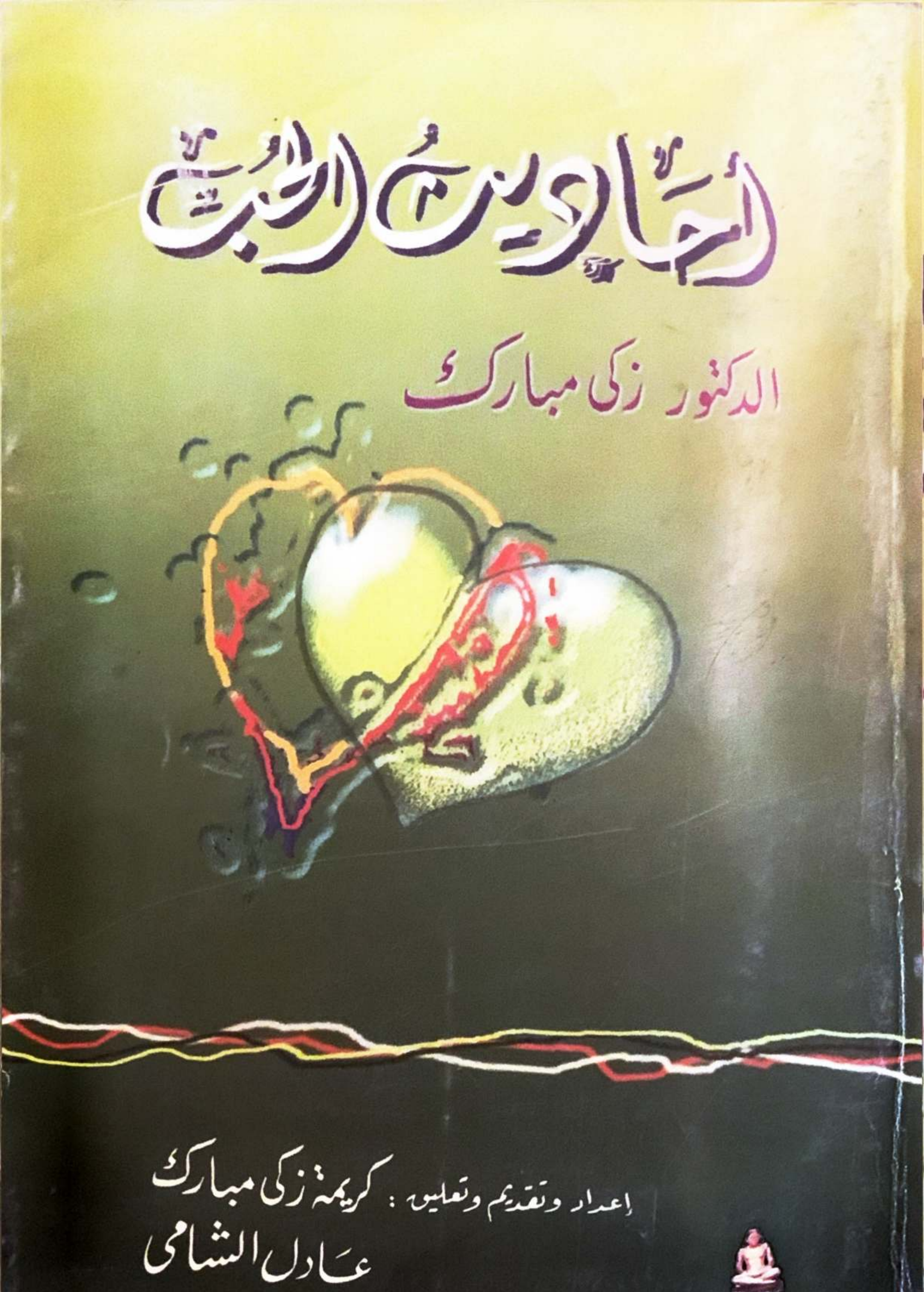

أحاديث الحب
الدكتور زكي مبارك
إعداد وتقديم وتعليق : كريمة زكي مبارك
عادل الشامي

أحاديث الحب

مبارك، زكى، ١٨١٣ - ١٩٥٣.
احاديث الحب/ بقلم زكى مبارك؛ إعداد وتقديم وتعليق : كريمة زكى مبارك، عادل الشامى. - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩
٣٧٢ ص ؛ ٢٤ سم.
تدمك ٦ ٠٠٠ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الحب.
أ - مبارك، كريمة زكى. (معد ومقدم ومعلق)
ب - الشامى، عادل. (معد ومشارك ومعلق)
جـ - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٦١٢٦/ ٢٠٠٩
I.S.B.N- 978 - 977 - 421 - 000 - 6
ديوى ١٥٢,٤

أحاديث الحب

بقلم:

الدكتور زكى مبارك

إعداد وتقديم وتعليق:

كريمة زكى مبارك

عادل الشامى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٩

« من الذى يعرف أنى أنفق على الكتب والحبر والورق أضعاف ما أنفق على الطعام والشراب . . عند الله والحب جزائى . . »

زكى مبارك

* * *

«... أما أسلوب «زكى مبارك» فسهل جميل، وأما لغته العربية فقوية رصينة، وأما حرصه على جمالها وجلالها، ففى كل مؤلفاته، ولا يمكن أن يدرس أحد الأساليب الحديثة دون أن يحتشد لقراءته..»

انيس منصور

الأهرام - ٢٠٠٤/٢/٥

تصدير

هذ الكتاب يضم بين دفتيه حشدًا مما أبدعه قلم زكى مبارك فى أحاديثه ذات الشجون والفنون عن عاطفة الحب. فقد عرف عنه أنه كان كثير الحديث عن عواطف القلوب. وكانت أحاديثه تأخذ صورًا شتى. تجمع كل فنون القول من شعر ومن نثر، فى أسلوب رشيق، وسياق دقيق، يجمع بين جمال العرض، ودقة النظر، وعمق المعنى، وشمول النظرة.. والواقع أن أحاديثه فى الحب، أو عن الحب، كانت سبيله لتحقيق رسالته الأدبية السامية من السمو بمعشوقته الخالدة التى أمضى حياته كلها يتغنى بها، ويسعى للارتفاع بها حتى لقد كان يتمنى أن يأتى ذلك اليوم الذى يراها ملء الأسماع، وعلى كل لسان فى جميع أنحاء العالم وفى كل بلدانه وأقطاره.. ولم تكن معشوقته سوى اللغة العربية التى قدم لها الكثير والكثير من صور البيان، وفنون القول، وبديع النثر، وجميل الشعر.

ولا نود أن نتحدث عما وقع فى حياته من ظلم، وما بقى عليه نتاج فنه بعد وفاته من انتشار محدود، موقنين بأن أدب زكى مبارك كالجوهر المكنون، ما إن يكتشف أمره، فسوف يعرف الجميع قدره، ويتسارعون إليه: كل يريد أن يحظى منه بنصيب، وأن يقبض من ذخائره قبضة تغنيه.. ولكن هيهات لمن يتعرف عليه أن يعرف القناعة، أو يقف عند حد. فزكى مبارك منهل عذب، ونبع ثرى، وما يعرف من يرتوى بمائه حدًا يقف عنده، أو حدودًا يلتزمها فلا يتخطاها وسواء كان حديثه عن الحب، أو عن اللغة، أو عن الدين، أو عن المجتمع، وسواء كان عن الماضى أو عن الحاضر، أو فى استشرافه للمستقبل، فهو إمام البيان، ورائد

التجديد، وحديثه فى كل مجال - هو صفوة الحديث، وخلاصة القول، لا تقف روعته عند جمال تراكيبه، وإنما تنبعث من عمق معانيه، وبعد مراميه..

وهذا كتاب يقدمه جامعاه بعد جهد بذلاه فى استخراج موضوعاته، واختيار مقالاته، التى تناثرت على صفحات العديد من الصحف اليومية، والمجلات الأسبوعية، وقد بذلا فى ذلك جهدًا خارقًا حيث جعلا «أحاديثه عن الحب» هى موضوع البحث، وزادا على ذلك بالرجوع إلى بعض كتبه المعروفة، فاختارا بعض صحائفها التى ضمت خطرات ونفحات من أحاديث الحب.. فضماها إلى ما وقعا عليه من صحائف الصحف والمجلات فكانت هذه المجموعة التى تجمعها وحدة الموضوع، وإن كانت كل صفحة منها تنطوى على جديد، وطريف، حتى أنه ليتعذر أن تجد معنى بذاته مكررًا، أو حديثًا معادًا، فهو كالنهر الذى تتدفق مياهه فهى وإن كانت كلها مياها عذبة نقية إلا أن لكل شربة منها لونًا ومذاقًا وطعمًا، يختلف عما سبقها، فهو دائمًا جديد متجدد.

والمتتبعون للدراسات النفسية، ومن أحاطوا بكل ما قام عليه، وتوصل إليه علم النفس من نتائج مستحدثة.. سوف يندهشون إذ يطالعون هذه الصفحات فيجدون أن ماهو جديد عندهم تكشف عنه سطور هذه الصفحات التى ترجع تواريخ إبداعها إلى النصف الأول من القرن العشرين..

رحمك الله أيها الشاعر الرقيق، والمحدّث الملهم، والكاتب المبدع، والعالم الثبت، والمصلح الكبير، والعاشق الذى لم يعرف سوى الحب طريقًا للحياة، وسبيلاً للتقدم والصلاح.. والشكر كل الشكر لابنتك الكريمة ولحفيدك المبدع - وإلى القراء، هذا العمل الجميل.

والله ولى التوفيق،،

د. أحمد السيد عوضين

القاهرة فى ١٠/١٠/٢٠٠٧

الباب الأول

كان زكى مبارك من طلائع هذا الجيل الذى قام فكريا وعمليا بالثورة الأولى فى الثقافة العربية المصرية وفي الحياة العربية المصرية.

كان زكى مبارك مشاركا فعالا وخطيبا باللغة العربية وباللغة الفرنسية وهو مازال فتى أزهريا شابا.

دكتور صلاح فضل

صوت المأساة

مطولة شعرية

أو

زكى مبارك يتحدث عن نفسه

شعر: محمود خليفة غانم

«فى سبتمبر ٢٠٠٦ أقام المجلس الأعلى للثقافة ندوة تحت عنوان :

«زكى مبارك - قراءة متجددة» - استمرت ثلاثة أيام - وفيها ألقى الشاعر هذه القصيدة التى تخيل فيها أن «زكى مبارك» تحدث عن نفسه، واختار للقصيدة عنوان: «صوت المأساة - مطولة شعرية».

وإن كنا أشرنا للعنوان الذى اختاره الشاعر إلا أننا آثرنا أن نورد القصيدة تحت عنوان آخر يتفق مع موضوعها الذى دعانا إعجابنا به أن نجعلها فاتحة هذا

الكتاب - ذاكرين للشاعر فضله، مقدرين إبداعه، وصدق تصويره، وبلاغة تعبيره..
والسلام،،،

(١)

إنى «زكى»، وخير الناس خلانى — «مبارك»، تعرف الأقدار أوزانى
كنت الملاكم والقفازُ يعرفنى — فى حلبة الفكر متبوعًا بفرسان
ولى عقول كشعر الراس عدتها — والفكر فيها محاريبٌ لرهبان
وليس فى الراس عفريت يحركها — وفى يدى قلمى، والنصرُ عنوانى
اعوذ من هَمزةٍ بالله يحفظنى — من نفثِ جنّ ومن نزعات شيطان
عقلى تصدّى لأوهام يروّجها — زيفُ الخوارج عن إسلامنا البانى
شقّ الطريق وأعلَى السّيف متّشحا — ثوب التصوّف قلبٌ غير غفلان
ياويل من حدّته النفسُ قائلة — هوّن ما شئون تراث عند قحطان
الأربعون كتابًا صيحتى، كُتِبَتْ — وانتى كُتبتِ فى طى كتمان
وكلّ صفحة أفكار ادبّجها — من فيض علم «إجازاتى»، وعرفانى
على «البلاغ لَكَمْ فتّحت نافذة — منها اطلّ بنورى خلف قضبانى
وفى «الرسالة»، كم أرسلت نافلة — تهدّ دنيا على كفرٍ وأوثان
غازلتُ علمًا، وخلى كان لى قلمى — فهو السلاحُ، ويخشى نصله الشانى
إنى المرايا لأجيالٍ يواكبها — عشقُ الخلود، وإبداعٌ ببنيانى
أهدّم الطلل البالى بموقعه — وفوقه أبتنى مجداً بتبيانى
لو يشرب الصخر من وردى لأرجه — تشوّف الشمس أنداءٌ بأفنان
اجهدت فأسى بعزق الفكر أقلبه — وقدت محراثه فى تبر غيطانى
فى غفوة الليل لا اغفو، تسامرنى — أرواح سبقوا عمرى بأزمانى

(٢)

موروثنا من قديم الفكر ليس به — عيب إذا وجد الأثمار بستانى
فى «مصر» الف «ارسطو» النيل علمهمْ — ولستُ ادعو إلى تمجيد يونانى
وليس قادة فكر الكون من أزل — إلا الروافد من نهرى وغدرانى
والكون يشهد والتاريخ السنةُ — مثل الطبيعة قرآنًا لفرقانَ
إن التصوف «بعد النثر» لى هرمًا — فكرى، وضعتهما للمجد قربانى
هل من يقدم در البحر مثلهما؟ — هل من يغوص لياقوتى ومرجانى؟
هل من منازل فرسان؟ الى مثل — أو اى ظلّ لما يحويه كنزان؟
وكان لى هرمُ «الأخلاق» انقله — من «الغزالى» آيات لأذهان
وما عرفْت حظوظًا غير ناكرةٍ — حقى، وفقرى الف حرمانى
وقارُ علمى واخلاقى لىَ اتفقا — لكن حظّى أبى حقّى بنكران

ورثتُ عزّة قومى منذ أن بهُروا ... دنيا الأنام، وكانت خَبط عُميان
و«الضاد» فى نثرها الفنىّ مجملة ... كنزاً من الدرّ ياقوتاً بمرجان
وإن أخذت برأى الغرب فى ريبٍ ... فنور «أحمد» لم يحجبه غاران
بعض العقول تزيغ، بريقُ الغرب يبهرها ... فى متحف صفتُه من بعض جدرانى
«الجاهلية» أصدقُ فى شعر يفاخرُنا ... بما لديه حجى أبناء عدنان
إنّى أسجل للتاريح أحفظه ... من الضياع ببحر غير ريّان
و«للحديث شجونٌ» دونما شجنٍ ... لكن حزنى بيض ليل أشجان
فالنثرُ فى لغة القرآن أبدعه ... ربُّ الأنام بلا تعبير إنسان
والنثُر فن مديد الجذر فى لغتى ... فلا «المعُرى» قديم عند «غفران»
لكنه «ابن شهيدٍ» فى رسالته ... ألقى البذور ليرويها ببستان
و«للشريف الرضىّ» الفذّ منزلةٌ ... عندى على «المتنبى» نجم «حمدان»
وقد أوازن بين الشعر أنقدُه ... فى الكفتين، فلى فى الشعر ميزانى
و«العاشقون» يحيّى شوقهم «عمر» ... وفى «المدامع» أشواق لتحنانى
فنُّ «البدائع»، أو «شعر المدائح» من ... كلّ القلوب، سنى، والفيض ربانى

(٣)

ما الفكر غير عروس العقل غانيةٌ ... لا تمنح السرّ إلا المفردَ الهانى
والحبُ نفحة قدسٍ، والنبى لها ... روح، ونافحها من قال: «سبحانى»
اكدت ذاتى على علم زرعت به ... كتبى شموساً لمجد خير إعلان
اليس حقى أن أعتز مفخرة ... بما صنعت على الدنيا القطان
هذا الكتاب «كتاب النثر» أعلنه ... وقد تحديت أن يبلى بأزمان
إن المساجد إن لم تلق منصفها ... من الشمال إلى ما خلف أسوان
لها الأيادى التى أبقت منائرها ... تحت المآذن علما حول قرآن
وهى البطولة للقرآن مرجعها ... قبل العروبة لا فكر لرومانى
أعلنت حربى على الأوهام هل سفه ... أن أعلن الحرب وحدى ضد بهتان؟
وسوف أحيا غريبا دونما وطن ... اقر فيه، لأن الصدق عنوانى!
الفكر سلوى وما فارقت عاطفتى ... ولا بلادى، ولو ضاقت بجثمانى
وكل كتبى أهدى خمرها فكراً ... تروى بها النفس، والقراء ندمانى
أمزق الليل نشواناً، يسامرنى ... عد النجوم على خيل وفرسان
إخا لها فى صراع الأفق غازيةً ... على الهموم لتفريها بأسنان
واغرق الحزن فى الأمواج، أدفنه ... فقد يموت الذى بالبؤس أضنانى
عصر «الرشيد» ببغداد أرجّعه ... برجة من مدار الراس تغشانى
إن زرت ساقيةً للرى فى سحر ... فكى اغنى بأدواحى وأفنانى

ولو شربتُ مياه النهر إن مُزجت ... من «الفرات» بطين فهى حسبانى
اشهى لدى من المعسول إن به ... «كالنيل» ماء حياتى، سر وجدانى
وقد يصدّ بأذنٍ غير واعيةٍ ... ينسل من تحت اقدامى كثعبان
او ارقب الشمس فوق البحر سابحةً ... كى تستحم بجمر دون نيران
وقت الأصيل وقد غامت تغلفها ... رقائق الشفق الوردى والحانى
اشكو الجحود واشكو الغدر فى زمنى ... وارقب الموت، إذ قطعت ارسانى
كأننى حاملٌ نعشى على كتفى ... الف جسمى موءوداً بأكفانى!

(٤)

إنى انكفأت على ذاتى مفزعة ... مما لقيت، فما لى اى أعوان
الله خالقنى، والله رازقنى ... والله هادينى، والله أغنانى
هل يترك الله عبداً وهو خالقهُ ... يامبدع الكون: زدنى فوق إيمانى
ادعو لأمِى بغيث العطف تغمّرها ... فى القبر، هل ضمه فى حضن تحنانى؟
والف عمرى بنتُ الريف راعيتى ... أم البنات، وزوجى، أم ولدانى!
المجد عندى فوق الحبُ أعشقهُ ... يسوق أسراب غيد نحو تيجانى
والليليات كؤوسُ الحبّ تشربهُا ... ملء الجفون بلا شفتين عينان
والليليات اللواتى كنَّ لى شغفًا ... رمز لروح امانى قلبى الحانى
فهل اعود إلى روض الغرام لكى ... تشدو العنادل والبستان كالحان؟
اضحى الهزار صريعا بعد عزته ... هيض الجناح، فلم ينهض كعقبان
ايدى العقوق لى امتدت لتبعدنى ... عن جنتى بلظى تصليه نيرانى
تبت كما قطعت أيدى «أبى لهب» ... لم يغن عنه غناه بعد عصيان
لن أستمبل جدودى فى مصانعة ... للحاكمين، فلى فى الفكر سلطانى
ولم أسبّح لأحزاب أواكبها ... فلست ذيلاً. ولا بوقًا لطغيان
ولى سفائن كم جابت عوالمكم ... وكم أسير بها فى صخر خلجان
اغضبت كل رفاقى لا اجاملهم ... إن خالفوا الحق من زيف وبطلان
والناس فى الرأى أشتات إذا اختلفوا ... فالخير من أزل والشر ضدان
إنى العيوف، رغاب النفس ارفعها ... فوق الحياة، وقلبى كان سجانى
والفكر بحارتى، والحق ألويتى ... فوق السفين، وهدى العقل ربانى
لكننى لم أنل حمداً، وكنت إذا ... تاجرت جاء الغنى طوعًا لابانى
افنيت عمرى أسوس المجد أملكه ... ويوم أسلم لى لم ألق شكرانى!
الحقد حطمنى، والجهل ابعدنى ... عن نيل حقى، واردانى بأحزانى
شعرى نجوم سماء الفكر انثرها ... تروى الخلود واشدوها بألحانى
كالثلج قلبى، وحبى لم يدع طرفًا ... فى اى ركن به حتّى لطعّآن
ويح النهاية إهمال على أدب ... يطاول الشمس ظهراً عالى الشان
لو تعلمون حروب الرزق فى بلدى ... وكنت ابحث عن قوتى كديدان

(٥)

كى أشبع البطن من جوع يمزقنى ... وترفع الكف لقماتى، أتى الجانى..

يصوّب الحقد نار البغض يمنعهُا ... فكَى، تسقط فى أفواه ذؤبان

كى أحرم القوت حقى وهو عز على ... مثلى، وإنى لم أسلمْ من الشانى!

وكم كلاب لدى السلطان يخدمها ... حشد من الناس فاقوا بعض أقرانى!

وسوف يقهر ربّ الناس لى زمنى ... وتنتهى الحرب فى ساحات ميدانى

حسبى إلهى، فلن أخشى حشوداً أسىً ... تهمى على، وقلبى غير غضبان

لو جوعونى فإنى الطود فى ثقتى ... بالله، يشبع ربى كل جوعان..

أو أهملونى، فدمع العين تلقفه ... أقلام روحى، تحكى طعم حرمانى..

مدادها الدمع، فاضت بى مناهله ... من الفؤاد، وعينى نار أحزانى

قلبى كنهر، دماء الحب مالئه ... شوق الهجير جرت فى جوف ظمآن

لا المستميت يموت ويحيا ... إنما بطل ... ينافح الزّيف عن سرّ وإعلان

الصدق لى ديدنى فى جراةِ قلمى ... يصور الكون لم يخلط بألوان

من «سنتريس» أنا الفلاح فى بلدى ... أرضعت من ماء نهر النيل ألبانى

كنز الهدايا، يزف النيل الويتى ... للجامعات بدنياكم لأكوان

حاربت كلّ عدوّ لا أهادنه ... وما دعوت لتغريب ببلدان

إنى الغريب «بمصر» فهى تجهلنى ... أمى الرءوم، فوا أسفَا لأوطانى

بالرغم من غصةٍ فى الروح ياوطنى ... فالحبّ يا ظالمى فى القلب روانى

ويوم تكسف شمسى إنها بغدٍ ... ستبعث الفكر فيمن قام أحيانى

وبعد حين يدور المجد فى فلكى ... مثل الدماء التى دارت بشريانى

* * *

محمود خليفة غانم

زكى مبارك

قراءة متجددة

بقلم: كريمة زكى مبارك

بداية ...

من هو «زكى مبارك» أو الدكتور «زكى مبارك» .. أو الدكاترة «زكى مبارك»؟..

زكى مبارك ولد فى سنتريس منوفية فى الخامس من أغسطس سنة ١٨٩١.

الدكتور «زكى مبارك» نال الدكتوراه الأولى سنة ١٩٢٤ عن أطروحته «الأخلاق عند الغزالى» من الجامعة المصرية القديمة.. وحصل من بعدها على أكثر من درجة علمية.

الدكاترة «زكى مبارك» كلمة أطلقها عليه الشاعر محمد الأسمر، وذلك أثناء حفلة أقيمت بدار الاتحاد النسائى للدعوة إلى إباحة الانتساب إلى جامعة فؤاد الأول (وهى حاليا جامعة القاهرة)، فألقى «زكى مبارك» خطبة، وألقى الشاعر «محمد الأسمر» قصيدة جاء فيها هذا البيت:

هـذا زكى لم يـزل مـتـتـلـمـذاً

وله تلامـذة هـم الـعـلـمـاء

ثم قال: يعجبنى طموح الدكاترة «زكى مبارك».

وكان «زكى مبارك» قد نال الدكتوراة الثانية سنة ١٩٣١ عن رسالته: «النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى» من جامعة باريس من السربون - وهى دكتوراه دولة.

والدكتوراه الثالثة سنة ١٩٣٧ عن (أطروحته: التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق) من الجامعة المصرية الجديدة.

سنة ١٩٤٩ تقدم الدكاترة «زكى مبارك» إلى جامعة الإسكندرية برسالة دكتوراه رابعة «عبقرية الشريف المرتضى» لأنه وكما قال كان الغرض هو أن يعيش طالب علم من المهد إلى اللحد.. ولكن «زكى مبارك» رحل قبل مناقشة الرسالة فى الثالث والعشرين من يناير سنة ١٩٥٢.

والآن ..

الآن ربما آن الأوان لتوضيح ما قيل من أن «زكى مبارك».

قد توقف فى أيامه الأخيرة عن الكتابة الجادة. ونقل بعض الكتاب بعض الجمل المتفرقة من هنا وهناك والتى توحى للقارئ أن «زكى مبارك» قد حاد عن الكتابة البليغة فى أواخر أيامه. لقد نقلوا جملاً متفرقة حتى لا يكتمل المعنى وذلك بطريقة. «لا تقربوا الصلاة» ولم يكملوا الآية. وللأسف، فإن معظم الذين كتبوا عن «زكى مبارك» بعد ذلك قد نقلوا ما قرءوه سواء من لم ير «زكى مبارك»

أو حتى من رأى «زكى مبارك» دون أن يستوعب إنتاجه.إن الأمانة العلمية تحتم على الكاتب أو الناقد إذا أراد نقل مقتطفات لأى أديب ألا ينقل مقتطفات مبتورة بحيث يستطيع هو أن يبرهن ويدلل على رأيه الذى يريده. لأنه هنا يكون قد ظلم من نقل عنه لأنه نقل بعض السطور المتفرقة من هنا ومن هناك. وربما تكون من مقالات مختلفة، وبذلك يكون قد نقلها بطريقة «لاتقربوا الصلاة» بدون أن يوضح أصل الكلام.

نحن فقط نتساءل .. هل هذه أمانة علمية ؟!!!

إن من يقرأ «زكى مبارك» يرى الحياة وجهًا لوجه ...

و «زكى مبارك» لم يتوقف أبدًا عن الكتاب الجادة..

إن «زكى مبارك» .

بخفة ظله المعروفة لم يستطع أن يغفل كلمة قالها له أحد الشبان. بل نشرها «زكى مبارك»

على صفحات جريدة «البلاغ» بتاريخ ١٩٥٠/٧/٤ تحت عنوان واضح هو:

هل يجب أن أنتحر؟

ثم قال الدكتور «زكى مبارك» : الأستاذ محمد فهمى شاعر يشغل نفسه بوضع قصة كليوباترا فى مسرحية شعرية كما صنع شاعرنا «أحمد شوقى».

سألنى الأستاذ مصادفة، فقال: يجب عليك يا دكتور أن تنتحر، فأنت لم تفعل شيئًا بعد كتاب: النثر الفنى وكتاب التصوف.

أنا أعترف بأنى لا أستطيع تأليف كتاب مثل النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى فقد ألفته أولا بالفرنسية وأخذت به الدكتوراه فى الأداب من جامعة باريس سنة ١٩٣١ ثم أضفت إليه زيادات بعد الرجوع من باريس فصار فى مجلدين كبيرين، وقد ظهر باللغة العربية سنة ١٩٣٤ والمدة التى أخذها من حياتى سبع سنين، أما كتاب التصوف الإسلامى الذى نلت به الدكتوراه الثالثة فى الفلسفة من جامعة فؤاد الأول، فقد قضيت فى تأليفه تسع سنين.

إن الذى يشقينى هو قلة المال.. ولولا هذا، لكان فى الإمكان طبع مجلدات من مقالاتى فى «البلاغ» فما خلت مقالة من فكرة جديدة!

وهذا حق ..

على صفحات كتاب «ملامح المجتمع العراقى» وتحت عنوان: «الشقى السعيد فى ٢٨٨٠ ثانية» يقول «زكى مبارك» :

«هو مقال أوحاه قصف المدافع فى ليلة قمراء وفى الإسكندرية»

ويختتم «زكى مبارك» مقاله بقوله:

تلك إذن خاتمة المطاف لدنيا الشقى السعيد وهو الرجل الذى شاهد الاحتفال بعيد ١٤ يوليو فى باريس ست مرات ونعم بالألعاب النارية فى باريس أكثر من عشر سنوات فى مواسم مختلفة ولعلها تزيد على العشرين، فلا ضير عليه فى أن يموت بالنار الحقيقية فى الإسكندرية وفى يده قلم أعنف من قنابل الألمان..

.. فأنا بالرغم منهم، فتى مصرى، لم يعرف الخضوع لغير صاحب العزة و الجبروت .. طاخ .. طاخ .. طاخ.

الجيران يصرخون ويولولون، ونوافذ غرفتى تصرخ وتولول، وقلمى مع هذه المزعجات أكثر طمأنينة من التمساح الجاثم أعلى النيل.. فكيف أغمد قلمى فى هذه اللحظة وأنا أشتهى أن أموت وقلمى فى يدى ... طاخ.. طاخ .. طاخ.

سأموت بعد لحظة أو لحظتين، فقد كادت نوافذ غرفتى تتصدع من هول القتال بين مدافع الإنجليز والألمان، فما أسعدنى حين أموت والقلم فى يدى وإن كنت أرتاب فى إنصاف التاريخ!!

* * *

وقد مات «زكى مبارك» فعلاً والقلم فى يده، فقد رحل عن عالمنا فى الثالث والعشرين من يناير سنة ١٩٥٢، فلنقرأ بعضًا مما كتبه على صفحات جريدة «البلاغ فى ذلك الشهر» .. ثم نلتقى بمقالتين كتبهما أيضًا خلال شهر يناير ولم تنشرا إلا بعد رحيله على صفحات جريدة «البلاغ» ومجلة «الرسالة».

فى الخامس من يناير سنة ١٩٥٢، وتحت عنوان: «العام الجديد» يقول «زكى مبارك» : إنه يبدأ الثلاثاء فيذكرنى بقصيدة «غرام يوم الثلاثاء» وقد غنيتها بصوتى فى محطة الإذاعة ولا يزال الشريط موجودا فمتى يسمع الناس صوتى وأنا أغنى؟ متى؟

وفى الثالث عشر من يناير سنة ١٩٥٢ وتحت عنوان «علم الصرف» يقول زكى مبارك: إنا أذكر من علمونى، أذكر الشيخ «محمد جودة» الذى علمنى الخط، وأذكر الشيخ «محمد أحمد عبده» الذى رأى أن تكون دروسى فى علم الصرف من الألفية وهذا هو السبب فى أنى كنت أتولى تدريس هذا العلم يوم كنت أستاذًا بالجامعة المصرية.

وفى التاسع عشر من يناير سنة ١٩٥٢ . وتحت عنوان: «مرض الوفاء» ينشر الشاعر «زكى مبارك» بعض الأبيات. ومنها هذين البيتين:

وفـيت كـثـيـراً لم لا يـفى
مـتى يـا فـؤادى مـتى تـفـهم؟
أرانى مـريـضـًا بـهـذا الـوفـاء
وإن كـنت يـا قـلـبى لا تـعـلم!

***

وبعد رحيل «زكى مبارك» إلى عالم البقاء فى الثالث والعشرين من يناير سنة ١٩٥٢ نشرت مقالة «لزكى مبارك» على صفحات جريدة «البلاغ» فى السادس والعشرين من يناير سنة ١٩٥٢، وكان مما جاء فيها:

«رجعت إلى البيت لأتغدى، فأخبرتنى زوجتى أن الراديو أذاع خبر وفاة مسيو دى كومنين... فبكيت.. ما أتذكره أننى دخلت مدرسة الليسيه فرانسيه بمصر الجديدة حزينًا فلمح الرجل حزنى، وكانت السماء تمطر فقال: (اليوم مطر وغداً صحو، فلا تحزن يادكتور «مبارك». (المسيو دى كومنين كان مديراً للمدرسة، وكان رئيس البعثة العلمانية فى مصر)..

إلى قرائى:

قال الشاعر:

يـا اخت نـاجـيـة الـسلام عـلـيـكـمـو
قـبل الـفـراق وقـبل عـزل الـعـزل
لـو كـنت اعـلم ان آخـر عـهـدكم
يـوم الـفـراق فـعـلت مـالم افـعل

أنا مسافر إلى الإسكندرية، فهنئونى يا قرائى، وسأرسل إلى «البلاغ» مقالة أصور بها آلامى فى حياتى.

(فعل سافر معناه بالفرنسية قطع الرجل جزءًا من حياته). وأنا بهذا أقطع أجزاء من حياتى لأنى مفتش المدارس الأجنبية بالمملكة المصرية.

***

أما المقالة الثانية التى كتبها «زكى مبارك» ولم تنشر إلا بعد رحيله أيضًا، فقد نشرت على صفحات مجلة «الرسالة» بتاريخ ١٩٥٢/٤/٢١ ... فتحت عنوان: «البلبل الذبيح» للمغفور له الدكتور «زكى مبارك» كتبت مجلة «الرسالة» تقول:

«بعث إلى المجلة بهذه الكلمة الدكتور «زكى مبارك» قبل وفاته بأيام يرثى المرحوم الأستاذ «على محمود طه». وقد أخرناها انتظارا لأى مناسبة تدعو إلى نشرها، والمناسبة اليوم هى حفلة تأبينه التى أقامتها نقابة الصحفيين فى هذا الأسبوع، وقد وضعناها فى غير هذا المكان».

والمقالة طويلة، وأكتفى بنقل بعض سطورها وفيها يقول «زكى مبارك»:

فى سهرة بمنزل «توحيد السلحدار» ومعنا الأستاذ «أحمد حسن الزيات» أخذ البلبل ينشد أشعاره وكان قوى الذاكرة، فقلت:

أنا أخذت راية الشعر من أيديكم..

فيقول: لن تستطيع يا دكتور.

أخرجت من جيبى ورقة وقرأت الأبيات الآتية:

عـجب النـاس من بقـاء أديب
رغم بغى الخطـوب والأيـام
انـا أيضًا عجبت من طول عيشى
فى زمان ملتح بالظلام
إن يومًا يمر من غير رغم
هو طيف يمر فى الأحلام
لا صديق يرد دينى عليه
لا حبيب يفى بعهد الغرام
قد سئمت الحياة أو سئمتنى
فرمتنى بكيدها الهدام
قال لى صاحبى: تواضع قليلاً
تجد الرزق صافيًا كالمدام

قــــلـت رزق مـن الـــــــريـــــــــاء يـــــوافى

هـــو عـــــنــدى من الــــطـــعـــام الحـرام

قال البلبل: هذا شعر نفيس.

وزارنى الأستاذ مرة ثانية فى القهوة، فرآنى مكروبًا فسأل عن حالى. فأنشدته قول «زكى مبارك»:

يــــــا ســـــــائلا مـــــــا الحــــال

الحــــــــــــال أنت الحــــــــــــال

وسألنى عن أسباب كربى فقلت: كان لى موعد غرام فى مشرب تريومف بمصر الجديدة وهو يطل على الصحراء، فانتظرنى المحبوب دقائق وانصرف، فصرخت بهذه الأبيات:

دقــــائق اضــجــرتك فـــطــرت عـــنى — وغـــادرت المــكـــان بلا انـــتـــظـــار

فـــمـــا حــــالى وقـــد مــــرت شـــهـــور — شــرين الــصــبــر من طول اصـطـبـارى

جـلـست أســامــر الــصــحــراء وحـدى — واشــرب لــوعـــة مــزجت بـــنـــار

قال البلبل: وهذا أيضًا شعر نفيس.

الشبيبى فى مصر:

فى العدد المقبل سأنشر فى «الرسالة» قصيدة حييت بها معالى الأستاذ «محمد رضا الشبيبى» زميل الأستاذ «الزيات» فى المجمع اللغوى، وقد نظمتها فى الإسكندرية والبحر يضرب أمواجًا بأمواج.

إذن ...

وكما أراد «زكى مبارك» فقد رحل والقلم فى يده. ولكن كما قال... هل أنصفه التاريخ؟ فى العاشر والحادى عشر والثانى عشر من شهر سبتمبر سنة ٢٠٠٦ أقام المجلس الأعلى للثقافة ندوة تحت عنوان: «زكى مبارك.. قراءة متجدد ة» .. عقدت فى قاعة المؤتمرات بالمجلس الأعلى للثقافة بالجزيرة، وتحدث فى الندوة

أدباء وكتاب وشعراء و نقاد كثر، وقدمت عدة أبحاث وكان مما قاله فى بحثه الأديب «يوسف القعيد»:

«هذه الندوة تقام بعد ٥٤ عامًا من رحيل «زكى مبارك» ولولا الجهد الدؤوب لابنته «كريمة زكى مبارك» فى جمع أعماله ونشرها والتذكير به لأصبح الرجل نسيًا منسيًا».

فى البدايه قدم الندوة الأستاذ الدكتور/ عماد بدر الدين أبو غازى - المشرف على الشعب واللجان الثقافية بالمجلس الأعلى للثقافة قائلاً:

فى امتداد موسم جديد من مواسم النشاط الثقافى للمجلس الأعلى للثقافة نستهل أعمال المجلس على مدار ثلاثة أيام حول كاتب ومفكر: الدكاترة «زكى مبارك» نستمع مع أبحاثكم ورؤاكم المتجددة حول «زكى مبارك» فى هذه الندوة التى نستهلها بكلمة الأستاذ الدكتور «صلاح فضل» عضو المجلس الأعلى للثقافة ومقرر الندوة العلمية.

ومما قاله الأستاذ الدكتور «صلاح فضل» ووعته الذاكرة:

«لعل الخاصية الأولى التى تتجسد فى «زكى مبارك» ولم يشترك معه فيها إلا قلة قليلة أنه كان من طلائع هذا الجيل الذى قام فكريًا وعمليًا بالثورة الأولى فى الثقافة العربية المصرية وفى الحياة العربية المصرية كان «زكى مبارك» مشاركًا فعالاً، وخطيبًا باللغة العربية. وباللغة الفرنسية، وهو مازال أزهريًا شابًا».

وتحدث الأستاذ الدكتور «جابر عصفور» الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة ومما وعته الذاكرة أيضًا أن من صفات «زكى مبارك» أنه كان عصاميًا علم نفسه، كما أن «زكى مبارك» كان رجلاً لايعرف وسطية، فإما أقصى الموضوع أو أقصاه الآخر، فهو رجل لا يحب الوسطية بأى حال من الأحوال ولا المهادنة ولا الحلول التى تحاول أن تجمع بين المتناقضات.

وما قاله أيضًا الأستاذ الدكتور «جابر عصفور»:

إن أهم عمل يقدم لـ «زكى مبارك» هو نشر الأعمال الكاملة لـ «زكى مبارك» ولعل المجلس الأعلى للثقافة... وأذكر الدكتور بدر الدين بذلك والتعاون مع الهيئة العامة للكتاب لإصدار أعمال «زكى مبارك» الكاملة بالتخابر مع ابنته كريمة «زكى مبارك».

وكنت قد ألقيت كلمة قبل الأستاذ الدكتور «جابر عصفور» قلت فيها:

لن أتحدث عن «زكى مبارك» فالسادة الأساتذة الأجلاء سيقولون أكثر مما أريد أن أقول..

ولكن ... تبقى كلمة وفاء.. فأنا ابنة رجل عرف بالوفاء... ومعاذ الله من كلمة أنا. فلمن كلمة الوفاء؟ ولمن كلمة الشكر والتحية؟

إنها لسيادة المستشار «عدلى حسين» محافظ القليوبية، وكان من قبل محافظًا للمنوفية، وكم سعدت به المحافظة وشرفت به «سنتريس» منوفية مسقط رأس «زكى مبارك» أكثر من مرة وهو يتحدث عن «زكى مبارك» وعن أبناء محافظة المنوفية العظماء.

لمن كلمة الوفاء والشكر التحية؟

للأستاذ الدكتور «عماد بدر الدين أبو غازى» المشرف على الشعب واللجان الثقافية بالمجلس الأعلى للثقافة، والذى أشرف على كل كبيرة وصغيرة حتى استطعنا أن نلتقى فى هذا الجمع المثقف بهذه الصورة المشرفة.

لمن كلمة الوفاء والشكر والتحية:

للأستاذ الدكتور «صلاح فضل» مقرر الندوة لجهوده المثمرة فى إنجاح أعمال الندوة .. والذى حثنى على تقديم كتاب: «زكى مبارك» سيرة ذاتية، كما قدم لكتاب «زكى مبارك»: «الموازنة بين الشعراء» فى طبعته الجديدة تقدمة جديدة هى بحق قراءة متجددة لكتابات «زكى مبارك».

لمن كلمة الوفاء والشكر والتحية؟

لمن شرفونى فى الندوة بالمجلس الأعلى للثقافة للإعداد لهذا الاحتفال الكبير:

وهى للسادة الأساتذة الباحثين الذين تجشموا مشقة العمل المضنى الذى لا يقدره ويعرف قدره إلا الله، وهم الذين قام على أكتافهم هذا الحفل الكريم حتى يستطيع الجميع قراءة «زكى مبارك» قراءة متجددة.

وهى لكل من شرفنا بالحضور للمشاركة وللاستماع إلى الأبحاث العلمية التى قدمت للمجلس الأعلى للثقافة.

ولكن ...

لقد قال «زكى مبارك» كلمته ورحل .. وصحيح أننى أشعر بروح «زكى مبارك» ترفرف علينا الآن سعيدة بذكره بعد أكثر من نصف قرن على رحيله..

ومع ذلك، فإن المستفيد من هذه اللقاءات والكلمات التى تقدم فى المجلس الأعلى للثقافة هم الشباب ...

الشباب الذى يرى ويسمع ويعى أن مصر الحبيبة لا تنسى أبناءها الأوفياء الذين خدموها بعد مئات السنين..

وهذا لعمرى فضل يشكر عليه المجلس الأعلى للثقافة ... إذ يحث الشباب على الاحتذاء بالقدوة الصالحة من أصحاب الفكر والرأى السديد... فرسالة المجلس الأعلى للثقافة هدفها تأكيد أن مصر لا تنسى رموزها التى أعطتها وأضافت لها الكثير.

كان «زكى مبارك» سفيرًا للعروبة المصرية فى كل مكان حل به ... وكان يقول إن السفارة الأدبية أفضل من السفارة السياسية.. وأنا أقول وإنها أبقى على مر الأيام.

وأخيرًا أحيى حفيد «زكى مبارك» عمرو على الشامى «الذى ساعدنى على إصدار أشهر أحاديث «زكى مبارك» «الحديث ذو شجون» فى كتاب صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

كما أحيى حفيد «زكى مبارك» عادل الشامى الذى يكمل معى المسيرة فى جمع وإصدار بقية مؤلفات زكى مبارك والتى لا تزال فى بطون الجرائد والمجلات.

وأحيى الشاعر على الشامى الذى قال فى ذكرى احتفالنا بـ «زكى مبارك»:

يا فارسا عادت الذكرى تواكبها

رؤى معاركـكم بالأمس فى صخب

إذا انــبــعــثــت خــيــالاً طــاف ســاحــتــهــم

لاذ الــشــو يــعــر والــكــتــاب بــالــهــرب

فــمــا اســتــطــاعــوا لك اســتــظــهــار قــوتــهــم

واســــتــــظــــهــــروهــــا وانت فى الــــتــــرب

عــاشــوا وعــشــت فــهــم أمــوات عــيــشــتــهــم

وانت رغم الــبــلــى حى لــدى الحــجــب

* * *

وأخيرًا أحيى «أحفاد زكى مبارك» من أبناء العروبة والإسلام فى كل مكان الذين يحملون الآن الراية للكتابة عن «زكى مبارك» وعن الرموز الخالدة التى قدمت الكثير للعالمين العربى والإسلامى. بل للعالم أجمع، وهم الذين تركوا أعمالا خالدة تمثل علامة بارزة من تاريخنا العربى والإسلامى.

إنهم صفوة شباب كتاب وأدباء وشعراء ونقاد المستقبل أبناء العروبة والإسلام.

وفى النهاية إن كلمة الوفاء والشكر والتحية هى أيضًا لكل الإعلاميين من إذاعة وتليفزيون وصحافة مصرية وعربية، فهم الذين ساهموا فى إنجاح هذا العمل الكبير وينتظر منهم الخير الكثير.

وحين تحدث المستشار/ عدلى حسين محافظ القليوبية كان مما قاله ووعته الذاكرة:

«إن «زكى مبارك» كان رمزًا للوحدة الوطنية. فمثلاً حين قام بالفرار من مطاردة الاحتلال الإنجليزى كان الذى آواه كاهنًا قبطيًا مصريًا أصيلاً.

والذى أعاره قلنسوته ليرتديها هروبًا من هذا المحتل كان هذا الكاهن القبطى المصرى الأصيل، وتلك دلالة قيمة رواها لنا «زكى مبارك» ليدلل على الوحدة الوطنية بين جميع أبناء هذا الشعب ممثلين فى دياناتها المختلفة التى تعيش على أرضها مطمئنة، ومن هنا فإن هذه المعانى الرائعة لابد أن تبرز لأبنائنا بين الحين والآخر كى نستزيد منها جميعًا وتكون حافزًا لآمالنا».

ثم قال المستشار/ عدلى حسين محافظ القليوبية إنه سيطلق اسم «زكى مبارك» على مدرسة فى محافظة القليوبية.

وهذه صورة من الرسالة التى وصلتنا بالبريد من سيادة المستشار عدلى حسين «محافظ القليوبية».

المحافظ

أسرة المرحوم الدكتور / زكى مبارك

تقديرًا وعرفانًا من محافظة القليوبية

يسعدنى أن أبلغكم أننا قررنا إطلاق اسم الأديب الكبير على مدرسة متميزة بشبرا الخيمة تخليدًا لذكراه الغالية ليظل اسمه رمزًا للعطاء والإخلاص وقدوة للأجيال القادمة.

وتقبلوا خالص تحياتى واحترامى،،

محافظ القليوبية

المستشار عدلى حسين

«تحريرا فى ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٦»

* * *

بعد حفل الافتتاح تتالت الكلمات وهى تقرب من الأربعين بحثًا، وأكثر الذين تحدثوا تناولوا أعمال «زكى مبارك» النثرية ولا يمكن تلخيصها.

ومن المعروف أن «زكى مبارك» ظلم كشاعر أكثر منه كناثر ولهذا سأكتفى بنقل ماقيل عن شاعرية «زكى مبارك» وعن الشاعر «زكى مبارك».

قدم الشاعر الدكتور «حسن فتح الباب» كلمة تحت عنوان: «الطائر المغرد فى غير سربه» جاء فيها قوله:

لم تخل ثقافة «زكى مبارك» التراثية التى تظهر فى تأثره بالقرآن الكريم وبالشعر فى أزهى عصوره دون نزوعه إلى التجديد فى الموضوع والقالب.

فإذا كانت كثير من قصائده مصوغة على غرار قصائد كبار الشعراء في الأدب العربي القديم، فإن له العديد من القصائد الأخرى التي تحمل سمات التجديد تحقيقًا لطموحه في السبق والتميز.

كما استحدث الشاعر «زكي مبارك» نمطًا أو شكلاً آخر وهو تنويع القافية في القصيدة العمودية فتصبح عنده ذات قافيتين أو أكثر دون أن يلجأ إلى نظام المقطوعات.

وعن «زكي مبارك» شاعرًا.. قال الشاعر «فاروق شوشة» في كلمته:

إن طغيان شهرته كاتبًا وناقدًا ومحققًا وصاحب معارك أدبية طغت على شهرته ومكانته شاعرًا.

وقد اتسع شعر «زكي مبارك» لمعجم غير معهود بين شعراء جيله، قد يكون بعضه صارمًا بجدته وشجاعته وحدته للسائر والمألوف في زمانه.

وأخيرًا يقول الأديب الناقد والشاعر الفنان «فاروق شوشة»:

إن المستويات اللغوية المتعددة في إبداعه الشعري قد تكون أحد الأسباب التي حجبت الرؤية المنصفة لشعره ولم تساعد على وضوح النظر إلى هذا الشعر..

وألقت الشاعرة «أميمة منير جادو» قصيدة استهلتها بهذين البيتين:

عرفتك بين سطور الكتب
وبين القوافي وبين الأدب

محبًا لمصر ومن نيلها
شربت فأضحيت فوق الشهب

أما الشاعرة «نور نافع» فقد قالت في إحدى قصيدتيها عن «زكي مبارك»:

قالوا: زكي، قلت نعم، ومبارك
وأجول في ساح الورى وأصول

انا صاحب القلم الفصيح وصاحب
الراى الصريح وامة ورعيل

ثم كانت قصيدة الشاعر «محمود خليفة غانم» التي تتصدر هذا الكتاب.

* * *

وهكذا نرى أن «زكى مبارك» الشاعر، والكاتب، والباحث والذى لم يترك مجالاً من مجالات الفن إلا ارتاده، وكان له فيه القدر المعلى - لا يزال يحيا بيننا، ومازلنا ننعم بما قدم لنا من قول، وما أشجانا به من نغم.. وقد اتخذ له فى كل إبداعاته نهجًا واحدًا لا يحيد عنه هو نهج المحب لفنه، العاشق للغته، المتفانى فى حبه وعشقه .. حتى ليحق لنا أن نقول إن من كان مثله سيظل حيًا بيننا يطربنا ويشجينا...

كريمة زكى مبارك

(*) يوم الندوة التى أقيمت فى المجلس الأعلى للثقافة فى قاعة المؤتمرات أيام ١٠، ١١، ١٢ سبتمبر سنة ٢٠٠٦ وزع على الحاضرين ملخصات أبحاث ندوة زكى مبارك قراءة متجددة، والأبحاث كاملة هى الآن تحت الطبع.

تمهيد

بقلم: عادل الشامى

كتب الدكتور «زكى مبارك» كثيرًا عن الحب، وعن تشريح عاطفة الحب، باعتبارها عاطفة إنسانية..

كتب نثرًا، ونظم شعرًا .. وسوف نلتقى ببعض المقالات العاطفية على صفحات هذا الكتاب ، كما سنلتقى ببعض القصائد العاطفية ... والآن مع بعض الأبيات العاطفية من آلاف القصائد التى ضمتها دواوينه الخمسة:

يـــا لــيــلـــة المـيـلادْ

يـــا لــيــلـــة الجـلـــوه

إنى عـــلـــى مـــيـــعـــادْ

مع غـــادتى الحــلـــوهْ

لا تــنــكــروا الــوجــد من أديب

بــســحــر هــذا الجــمــال يــشــعــرْ

لا تــنــكــروا الــوجــد من أديب

إلى صــبــاح الــوجــوه يــنــظــر

من لم يــهــم بــالجــمــال يــومًــا

فــعــيــشه فى الحــيــاة أغــبــر

* * *

لـقـيت من لـو دعـانى   إلى الـفـداء فـديـتـه
لـقـيت من لـو دعـانى   بـعـد الممات أجـبـتـه

* * *

يـا بـحـر ما أنت ما سـحـر تـموج به
ومـا فـؤاد لـديك الـيوم مـفـتـون؟
بـدا له الحـسن وهـاجـا فـهـام به
والحسن أمـر لـديه الـكـاف والـنـون

* * *

أمـجـنـون لـيـلـى أنـا ..... ربـمـا
إذا أمـر الحـسن قـد نـأتـمـر

* * *

حـسـبـتم هـذه الـدنـيـا   تـضـيق بـرحـبـهـا عـنـا
فـصـرتم كـلـمـا جـئـنـا   نـفـرتم جـهـرة مـنـا
ولـو أنـصـفـتـمـوا قـلـتم   أديب يـعـبـد الحـسـنـا

* * *

ريـاه صـغـت فـؤادى   من الأسى والحـنـين
ولم تـشـأ لـضـلـوعى   غـيـر الجـوى والـشـجـون
فـكـيف يـصـفـو فـؤادى   من الـهـوى والـفـتـون؟
أم كـيف تـرجى نجـاتـى   من سـاجـيـات الجـفـون

* * *

لـقـيـتـه ذات يـوم   فى الـعـصـر عـنـد الجـزيـره
والـنـيل سـكـران صـاح   مـثل الـعـيـون الـكـسـيـره

* * *

لـقـيـتـه وفـؤادى   غـاف قـريـر الـسـرائـر
فـعـدت أحـيـا بـروح   مـشـرد الأنس حـائـر

* * *

لم أقض مـنـك مـرادى   ولاشـفـيت غـلـيـلى
يـا فـتـنـتى فى مـقـامى   ومـحـنـتى فى رحـيـلى

* * *

انت ورد فــهب مــحـبك شـوكًـا

اتــرى الـورد عــاش من غــيــر شـوك؟

* * *

عـجـبت لـهم انى رمـونى بـحـبـهـا

ولا مــهـجـتى رهن لـديـهـا ولا قـلـبى

فـيـارب صـدق فى هـواهـا عـوازلى

فــإن عـــنـــاء ان الام بلا ذنب

والا فلا تــقــطع عــلى ملامــهم

فــإن ملام المــرء فــاتحـــة الحب

* * *

ولما نـسـيـتم ودنـا وغـرامـنـا

ولم تحـفـظـوا بـعـد الـفراق لـنـا عـهـدا

جـعـلـنـا نغض الـطرف عـنـكم وعـنـدنا

من الـشـوق نـار لا نـطـيق لـهـا وقـدا

* * *

لــقــد صـددنــاكــمـا صـددتم

فــهل نـدمـتم كـمـا نـدمـنـا؟

* * *

ولمـا عـــزنى فى الحب دهــرى

وارغـــمـــنى الــزمــان عـلى نـزوحى

ولم اعــرف لــرؤيــتــكم سـبـيلا

بـعـثـت بـصـورتى من بـعـد روحى

* * *

اصـبـاك مـا خـلف الـسـتـار وإنما

خـلف الـسـتـائـر لـؤلـؤ مـكـنـون

والـنـاس فى غـفلاتـهم لم يـعـلـموا

انى بـكل حـسـانـهم مـفـتـون

* *

عزيزى القارئ:

«زكى مبارك» فى شعره كما فى نثره يتحدث كثيرًا عن البقاع الجميلة، ويقول.. إنه موكل بالحديث عن البقاع الكريمة فى وطنه.. كما يقول «زكى مبارك»:

«لم أدخل بلدًا إلا أحببته أصدق الحب؛ لأنى أرى بضميرى وجه الله فى كل مكان».

* * *

كما يقول الشاعر زكى مبارك:

عائد لرمل إسكندريه
بأزاهير من الحسن جنيهْ
وأغاريد من الوجد شجيه
حين يطغى الموج فى وقت العشيه

* * *

كان زكى مبارك كثير الحديث عن الرمل، ويقصد به الأرض.. أرض مصر الحبيبة... وهل الإسكندرية إلا بقعة من بقاع مصر الغالية؟

* * *

ونعيش مع بعض مقتطفات من شعر «زكى مبارك» من خلال المكان والزمان:

«جاردن سيتى» بعد عصر اليوم موئلنا
وللأزاهير أشكال وألوان
وحولنا شجر يصغى لصبوتنا
فتنتشى منه أوراق وأغصان

* * *

«مصر الجديدة» أيام الثلاثاء
كانت ملاعب أطرابى وأهوائى
يا فاطر الحب فى يوم الثلاثاء
متى يعود لنا يوم الثلاثاء؟

* * *

كــان الــهــوى بــغــداد — أواه مــن بــغــداد

كــان الــهــوى بــاريس — أواه مــن بــاريس

مــصــر الجــديــدة، داري — والحب فــيــهــا قــراري

لا تــنــس يــاغــدار — جــمــيل هــذى الــدار

* * *

يــا فــاطــر الحب فى يــوم الــثلاثــاء

مــتى يــعــود لــنــا يــوم الــثلاثــاء؟

لاتــنــس يــاروح أحلام الــثلاثــاء

يــا فــاطــر الــشــعــر فى يــوم الــثلاثــاء

* * *

يــا غــرامى إنه يــوم الخــمــيس

وهــو فى أيــامــنــا الــبــيض عــروس

يــتــجــلى فى بــدور وشــمــوس

وأزاهــيــر مــن الــروح الأنــيس

* * *

إن . يوم الجمعة الآتى قريب

فيه محبوب يناجيه حبيب

وعيون لاعبات بالقلوب

فتحيل العيش بحراً من ذنوب

* * *

نــحن فى «يــولــيــو وأحلام الــتــصــابى

واعــدات بــتــنــعــيــمى وعــذابى

إن تــكن أنت عــلى الــشــوق ثــوابى

كــان بــذل الــروح فى الحب جــوابى

* * *

«شــهــر يــولــيــو» أنت يــا شــهــر عــزيــز

جــاز فــيــه الحب أو كــاد - يــجــوز

شــهــر «يــولــيــو» أنت كــنــز من كــنــوز

كل مــا فــيــهــا نــفــيس وعــزيــز

* * *

وعلى صفحات هذا الكتاب نلتقى ببعض قصائده العاطفية الأخرى وأيضًا ببعض مقالاته العاطفية، «فزكى مبارك» كتب كثيرًا عن الحب وعن تشريح عاطفة الحب.. فماذا قال النقاد عن كتابات «زكى مبارك» العاطفية؟

نشر الأديب الناقد الدكتور «عبدالله خورشيد» دراسة على صفحات مجلة الثقافة فى العدد (٩١٦ فى يناير سنة ١٩٧٥ تحت عنوان: «زكى مبارك» زعيم وجدانى أثبت فى دراسته أن أمير البيان الدكتور «زكى مبارك» أديب متمرد متفرد.

وقال الدكتور «عبدالله خورشيد»:

لعل دراسة أعمق تستطيع أن تكشف لنا عن أثر «زكى مبارك» فى الحركة الأدبية، وتثبت أن هناك صلة عضوية بين الإنتاج الأدبى الواقعى فى موضوع «الحب» لكتاب القصة والشعر فى مجتمعنا العربى فى العقد الخامس، وفى العقدين السابقين له من أمثال:

إحسان عبدالقدوس، ونزار قبانى، وإن هذا الاتجاه الواقعى فى معالجة موضوع «الحب» فى أدبنا العربى، ليس سوى الابن الشرعى والثمرة الناضجة لتلك الدعوة الجريئة إلى الحرية فى ممارسة عاطفة الحب، وفى التعبير الأدبى عنها هذه التى تزعمها فى شجاعة وصدق الأديب الكبير المتمرد المتفرد: «الدكتور «زكى مبارك».

ثم يضيف الدكتور «عبدالله خورشيد»:

«وعلى الرغم من أن «زكى مبارك» كان يوجه حديثه إلى كل الأجيال مجتمعة، فإن الشباب من ذلك المجتمع، كان هو الجيل الأكثر استعدادًا لتلقى دعوة «زكى مبارك» والانضواء تحت زعامته الوجدانية وتنفيذ مبادئه وقيمه.

ولاشك فى أن التطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية العميقة التى تعرض لها، ومازال يتعرض لها مجتمعنا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية قد

هيأت التربة والمناخ الصالحين لنجاح دعوة «زكى مبارك» الأدبية التى أدت إلى إطلاق الحرية العاطفية، وإذا كان واقعنا الحاضر يشهد بأننا نجحنا فى إقامة الحريات الاقتصادية والسياسية والفكرية . فإنه ليشهد كذلك بأننا نجحنا فى إقامة الحريات العاطفية».

وقال الأديب والكاتب الصحفى «محمد محمود رضوان» فى كتابه «صفحات مجهولة من حياة «زكى مبارك»، والذى صدر فى كتاب الهلال فى سبتمبر سنة ١٩٧٤ قال:

«إن الدكتور «زكى مبارك» كان عاشقًا واله القلب، قوى العاطفة، ففى حياته يتقلب فى سعير الوجد ووهج العاطفة، وقد طاب له أن يفصح عن سرائر روحه وأسرار قلبه، فملأ الدنيا غرامًا وتشبيبًا.

وقد جعل حديثه عن الحب شريعة من شرائع الوجود، فعاش إلى آخر نسمة فى حياته، يتشوف إلى أفنان الجمال، ويغرد للحب، وقد اتخذ مذهبًا واضحًا صريحًا فى الأدب، وأمعن فيه ووقف شعره على فن الغزل والتشبيب فى الوجدانيات».

ويقول الأديب العربى الكويتى الأستاذ فاضل خلف على صفحات كتابه: «زكى مبارك بين رياض الأدب والفن» والذى طبع بمبطعة الجماميز بالقاهرة سنة ١٩٥٧ يقول:

«زكى مبارك» استطاع أن يجعل من النثر أداة للغزل والتشبيب.. بينما كان هذا الفن مقصورًا على الشعر فقط..».

وفى دراسه تحليلية لحياة «زكى مبارك» وأدبه فى كتاب: «زكى مبارك» وهو الكتاب الذى صدر عن الدار القومية للمؤرخ العربى المصرى الأستاذ «أنور الجندى»:

(اتجه «زكى مبارك» إلى خلق مذهب فى الكتابة الوجدانية قوامه الأدب الصريح.

وعلى صفحة ٨٧ يقول «أنور الجندى»:

وقد رأى زكى مبارك أن الأدب العربى أصبح على شفا الهاوية بفضل شيوع التدليس فى تصوير العواطف والغرائز والميول. ومن أجل هذا كله عمد زكى مبارك إلى كتابة هذا النوع من الوجدانيات.

عزيزى القارئ:

ولقد أثارت كتابات «زكى مبارك» فى الحب العديد من التساؤلات.. وقبل أن نقدم بعضًا من رسائل القراء. نذكر أن لـ «زكى مبارك» كتابًا بعنوان «ليلى المريضة فى العراق،. وأنه الطبيب الذى جاء من مصر إلى العراق لمداواة ليلى. وردّد كثيرًا اسمها واسم ظمياء وصيفتها.

فمن رسائل التشجيع أن قراء (فلسطين) كانوا يدعونه إلى بلادهم ليداوى ليلى المريضة فى فلسطين «ويأتيه خطاب آخر يدعوه لمداواة «ليلى المريضة فى السودان» ويتسلم خطابات أخرى من «ليلى المريضة فى الزمالك»، أو مصر الجديدة أو حلوان، وكلهن ثائرات على المؤلف لإيثاره الكتابة عن «ليلى المريضة فى العراق»..

وكانت القصائد تنهال على «طبيب ليلى» فى الصحف والمجلات العربية، وقد أخذ أدباء العراق كتابًا وشعراء يداعبون طبيب «ليلى» ويهدونه قلائد الأفكار، يجدها القارئ منبثة فى كتاب «ليلى المريضة» وهى كثيرة.

وكما كان المؤلف يتلقى كلمات وقصائد التشجيع، كان يتلقى أيضًا كلمات النقد القارص، فمن ذلك هذه الكلمات المنشورة فى إحدى صحف لبنان.

ويلذ لى وقد قرأت فى مجلة «الرسالة» مقال الدكتور «زكى مبارك» عن سفرته إلى العراق، أن أستطرد فأسأله:

ما هذا الهراء الذى سوّد به صفحتين من المجلة، ووعد بـ «البقية تأتى».. ليقول إن «ليلى فى العراق مريضة» ومرضها لايشفيها منه إلا دكتور مثله؟

أتكون عاصمة الرشيد على فراش الاحتضار؟ وليس من يجهل فى «لبنان» أن بين أبنائها النطاسى البارع والجراح الماهر والصيدلى الممتاز؟

فهى إذن ليست بحاجة إلى دكتور يأتيها من بعيد ليداويها.

ويعلق على ذلك الأديب «فاضل خلف» بقوله:

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الرسائل فتح باهر فى الأدب الحديث، ثم يضيف الأديب «فاضل خلف» إلى ذلك قوله:

وقد كتبت إحدى الصحف ما يلى:

لقد أخذت رسائل الدكتور «زكى مبارك» التى تنشرها «مجلة الرسالة» الغراء بمصر تحت عنوان: «ليلى المريضة فى العراق» دورًا مهمًا ومكانًا طيبًا فى نفوس أدباء البلاد العربية طرًا. فقد تفنن الأستاذ «زكى مبارك» فى رسائله هذه فأحدثت فتحًا فى عالم الأدب.

ويعاود الأديب الناقد العربى الكويتى الأستاذ «فاضل خلف» الحديث مرة ثانية عن «ليلى المريضة فى العراق» صفحة ١٤٣ على نفس صفحات كتابه عن «زكى مبارك» فيقول:

ولأخباره الغرامية طرائف ممتعة، وقد نشر الأستاذ «محمد على الطاهر» صاحب «مجلة الشباب» عددًا من الرسائل التى تلقاها بمناسبة أخبار «ليلى المريضة فى العراق» والمنشورة على صفحات الرسالة، وتقول إحدى الرسائل التى تلقاها من تونس:

إيش السبب لما الحكيم «زكى مبارك» بقى «عزبان» وليش ما تجوزوه؟ بس يسكت لسانه عن التغزل بجمالات النسوان؟..

وتجيب المجلة:

الدكتور «زكى مبارك» ليس بحكيم، بل هو أستاذ، وقد أخذ لقب الدكتورية لنبوغه فى معالجة الأدب لا فى معالجة المصاريين.

والدكتور «مبارك» رجل متزوج منذ كان طالبًا فى الأزهر، وله الآن أنجال مهذبون وكريمات لهن أولاد، إذن فهو ليس «بعزبان» بل هو جد وله كرامة ووقار رب العائلة.

ورسالة ثانية من بلاد النوبة يقول سائلها:

يا صاحب «الشورى» و«الشباب» بحياة أبيك تفهّمنا من هو «زكى مبارك» وهل هو شيخ؟.. أم خواجة أم أفندى؟..

ولماذا يطلق لسانه فى الناس؟

وتجيب المجلة:

إنه شيخ وخواجة وأفندى فى وقت واحد، وأما لسانه فهو كألسنة بنى عذرة.. وقد وصف الدكتور نفسه أنه من الذين يحبون لقاء الناس بالفجور، ولقاء الله بالعفاف. بدلاً من أن يلقى الناس بالعفاف ويلقى الله بالفجور.

ورسالة أخرى تلقاها من اليمن. تقول:

والله عجيبة! كيف أن حكومة «العراق» ما تحبس الدكتور «زكى مبارك» الذى يعرض فى مقالاته بنسوان العباد، ويطول لسانه على بنات الناس المحترمات مثل الحاجة «ليلى» وهى مريضة. وحضرة الست ظمياء بنت عمتها؟

وتجيب المجلة على السائل بقولها:

لا تستطيع حكومة العراق التعرض للدكتور «زكى مبارك» بنصف كلمة، لأنه لم يتعرض لأحد من نسوان العباد، أما «ليلى» «وظمياء» فهى من الأسماء المنتحلة لشخصيتين خياليتين: «كأبى زيد السروجى» مع الحريرى «وعيسى بن هشام» مع «بديع الزمان» اختلقهما الدكتور «زكى مبارك» ليجرى الحديث على ألسنتهما والمحاورات والمعانى التى يريدها..

عزيزى القارئ:

أخيرًا ومن بين الرسائل التى نشرت على صفحات «مجلة الصباح» لصاحبها الأستاذ «مصطفى القشاشى».. وفى العدد ٣٢٦ بتاريخ ٢/ ٩/ ١٩٣٨ أنقل لكم هذه الرسالة:

تحت عنوان «بين مصر والعراق».. إلى طبيب «ليلى» قصيدة عصماء يستهلها الشاعر «ضياء الدخيلى» من النجف الأشرف بهذه الأبيات:

ليلى المريضة فى العراق مروعة
أشباح نقدك سودت أحلامها
فلكم رحبت بك للشفاء تماثلاً
واليوم تجرح بالفراق حمامها
إن العيون السود بعدك كحلت
بقذا البعاد فاتبعتك منامها
ليلى الصبابة ودعت أوطارها
رحل الطبيب فعانقت آلامها

وعلى صفحات مجلة «الصباح» أيضًا، وفى العدد نفسه. نقرأ تحت عنوان: «كلمة للعاشق المغترب»:

لك الروح والفؤاد يا زكى:

أستاذى:

أحقًا أن رجلاً مثلك تفعل به «ليلى» ما فعلت؟

فتبدل أنسه بوحشة، وتدخل اليأس إلى قلبه؟!

أحقًا...! إنك أصبحت بعد هجر «ليلى» لك الجازع من العزلة، والفازع من الوحدة والشاكى من الغربة؟!

أى ضيم سيلاقى قلبك يا دكتور وأنت فى مصر موئل الحضارة والأدب، ملتقى اللهو والسمر، وفيها بدل «ليلى» ألوف من الليليات!

أى وحشة قد أشقتك، ولك فى كل قطر عاشق ولهان يمنحك الروح والفؤاد إن لم يملك سواهما!

أى أحباء قد تركوك وفيك مثلث الدعابة وخفة الروح وطلاقة اللسان وبلاغة القلم وعبقرية العقل وعذوبة المنطق؟

أولى بهم أن يشكوا الصدّ والهجران! فأنت... فى غنى عنهم وهم فى حاجة إليك، أولى بهم أن يشكوك للزمان والليل وللصحراء. لا أن تشكوهم!

إن شمسك لا تغرب فى كل قطر، وفى كل بلد، لافى الزمالك التى عشقتها وحدها، وفى كل جهة أناس عشقوك. وفى كل بلد قد تمذهبوا، وإن كنت فى غفلة عنهم بالتجائك إلى الزمالك وتقديسك لليلاك.

وبعد. فألمك مبعث لآلامنا يا دكتور، وحزنك مسبب لحزننا، وكأنه صدق علينا قول الشعر:

انا من اهوى ومن اهوى انا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا ابصرته ابصرتنى
وإذا ابصرتنى ابصرتنا

ناصر الدين النشاشيبى

القدس / فلسطين

والآن... وقفة مع «زكى مبارك»:

يرى الأديب الناقد الدكتور «زكى مبارك» أن الأدب كاد يخلو من الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب، وإنه لا قيمة للأدب إن أغفل الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب.

ويقول «زكى مبارك» نحن لم نبتكر الكلام عن الحب، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود.

ثم يتساءل «زكى مبارك»:

وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب؟

ولأى غرض يحيا الناس إذا أصيبت أفئدتهم بالاعتلال فلم تحس ذلك الروح اللطيف؟

وهل ينصرف القلب عن الحب وهو فى عافية؟

ويستطرد «زكى مبارك» قائلاً:

إن شواغلى قد تجعل الحب آخر ما يشغل قلبى، ولكن حديثى عن الحب صار مذهبًا أدبيًا أشرح به ما يتعرض له الناس فى ميادين النوازع والأهواء.

أنا أريد أن أخلق جوًا من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان.

إن حالى فى دنياى شبيه بحال الحمام فى العراق، فالحمام فى العراق ينوح فى كل وقت من الجو هناك، وهو مع ذلك لا يفكر فى الهجرة لأنه يحب العراق.

وأنا فى مصر أشكو الظلم فى كل وقت، ومع ذلك لا أفكر فى الهجرة لأنى أحب مصر، مصر التى فيها القاهرة والإسكندرية والمنصورة، ودمياط وأسيوط وسنتريس.

إن زملائى بجريدة البلاغ حالهم أحسن من حالى بمراحل طوال وذلك لأنهم يكتبون فى شئون تأخذ وقودها من المشكلات اليومية، أما الأدب فوصوله إلى القارئين أصعب من الصعب فى جريدة يومية هى فى الأصل جريدة سياسية،

ولكن هذا الصعب ليس بالمستحيل، فقد استطعت أن أكون المحرر الأدبى لجريدة البلاغ أحد عشر عامًا فى عهد عبدالقادر حمزة منشئ البلاغ، وكان أعاظم الناقدين.

أيضًا على صفحات جريدة البلاغ، وفى التاسع من يونيه سنة ١٩٥١ قدم «زكى مبارك» إحدى قصائده بقوله:

نحن فى «البلاغ» جنود للأدب والوطنية ولكل محرر فى البلاغ فنه الذى تخصص فيه، وأنا متخصص فى الحديث عن الحب وهو حديث يمس جميع القلوب.

ويقول «زكى مبارك» فى كلمة له:

جلسنا فى القهوة نقرأ «الحديث ذو شجون»

ومعى صديقان أسبغ الله عليهما ثوب الجمال.

قال أحدهما: أنت بتجيب الكلام ده منين؟

قلت: هذا وحى يوحى إلىّ من الله لأعيش وأقتات، فمكافأة البلاغ آخذها وأطير بها إلى ملاعب الجمال، فمالى قوت غير النظر إلى الجمال وهو الذى أنشئ به هذا الأدب الجميل، ما الذى أصنع لو لم أغرق فوق أفنان الجمال؟

إن ضم كلمة إلى كلمة هو ضم وعناق.

وكتب «زكى مبارك» على صفحات جريدة «البلاغ» فى ٢٣/ ٥/ ٤٩، يقول:

لقد أكثرت من الكتابة عن الحب إكثارًا، توهم به بعض الناس أنه لا عمل لى غير الحب. والذى يقرأ مقالاتى وأشعارى لا يفهم غير ذلك:

صيرنى الوشاة نصيب المشيرين واحدوثة بكل مكان

لم اجد خالين للسر إلاّ قلت ما يخلون إلا بشانى

كنت مثل الكتاب اخفاه طى فاستدلوا عليه بالعنوان

ثم يقول «زكى مبارك»:

عرفت الشيخ محمد عبدالمطلب أول مرة كان يقيم بالحلمية الجديدة.. أسمعت الشيخ عبدالمطلب شعرى فتعجب وقال: هل أنت متزوج؟

فقلت: نعم..

فقال: العهد بالمتزوج أن تفتر حرارته فى العشق..

فقلت: هذا فى الحب الشهوانى.

وبتاريخ ١٨/ ٤/ ١٩٤٩ يقول «زكى مبارك»:

قابلت الأستاذ مصطفى بك أمين مصادفة فى مصر الجديدة، وهو أحد كبار المفتشين السابقين بوزارة المعارف، فقال وهو يبتسم: إنك؛ يا دكتور تخلق جوًا لطيفًا بحديثك عن الحب فى جريدة «البلاغ» ويظهر أنك عاشق..

فقلت: لم يبق لى من العشق غير الهيام بالملوخية الخضراء! لابد من شرح هذه القضية..

أنا فى كتاباتى عن الحب أعبّر عن عواطف قرائى وأعبّر عن أهوائى..

وهذه الكهولة تزعجنى، فيجب أن أتصور أننى كنت شابا: له صبوات، وإننى كنت يومًا من الغرام على ميعاد..

قال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيها

والشوق الذى أكابده هو الكهولة والصبابة التى أعانيها هى الشيخوخة:

زعمتنى شيخًا ولست بشيخ
إنما الشيخ من يدب دبيبًا

وقال الأستاذ: خالد محمد خالد:

أكثر مقالاتك فى «البلاغ» أشعار فكيف تفجر هذا الينبوع؟ وهل تجد عناء فى نظم شعرك؟

قلت: إذا وجدت المعنى اندفعت فنظمت وأنا أنظم القصيدة، كما أكتب المقالة ولى غاية هى خلق مدرسة شعرية.

قال الأستاذ خالد محمد خالد:

كلامك فى الحب له أساس؟ أكاد أتوهم أنه شعر صناعى، فما يكون للمرء أى حب فى مثل، فإن كنت صادقًا فانظم قصيدة تدفع بها اتهامى.. فنظمت القصيدة الآتية على البديهة:

ويسـال صاحبى.. هل كان شعرى
عن الحب العنيف له أصول
نعم، فى كل بيت من نظمى
يقوم بروحه روح جميل
وما يومى يمر بلا غرام
ولا قلبى بغير هوى يقول
عشقت الغيد فى شرق وغرب
بقلب فى أصالته أصيل

قال الأستاذ خالد محمد خالد:

عينى باردة عليك. وسأقرأ هذا فى «البلاغ» وأتذكر أننى فرحت بلقائك بعد فراق طال.

ويوضح «زكى مبارك» سبب إكثاره من الحديث عن الحب فيقول على صفحات جريدة «البلاغ» بتاريخ ١٦/ ١/ ١٩٥١.

قلت من قبل إن المعانى الوجدانية، قلت فى الأدب الحديث، وأن أبناءنا صاروا يأخذون أدبهم الوجدانى من الفرنسية والإنجليزية، فما يمنع من أن ننشئ لهم أدبًا وجدانيًا..

نفترض أنه كانت لى محبوبة اسمها سعدية وقد عانقها فى إسكندرية وقلت فيها:

ذكرت فراقك فى عودتى
ونحت على الليلة الماضيه

فبالرمل كنا وكان الصفاء

تجود به أعين داميه

ولم أدر كيف عرفنا الطريق

إلى الشوق فى تلكم الناحيه

ولم أدر كيف سرنا إلى ما نراه

من الوجد تعوزنا العافيه

تناسى المحبوب أحبابهم

وأمسيت وحدك فى باليه

ويرى «زكى مبارك» أن العشق فى طبيعة الحياة، وهو سبب التماسك فى الموجودات من جماد ونبات وحيوان.. فيكتب على صفحات جريدة «البلاغ» فى ٥/ ٩/ ١٩٥٠ يقول:

التماسك فى الجماد يدركه من يرى كيف ينجذب حجر إلى حجر بالقليل من الجير والأسمنت، والعدم نفسه وهو عدم له وجود، فما زال الناس يتأثرون بامرئ القيس، وابن أبى ربيعة والشريف الرضى والمتنبى، ومع أنهم ماتوا قبل أجيال طوال.... ومعنى هذا أننا نرث عن أجدادنا كثيراً من الشمائل والخصال... وهذا تمهيد لهذه القصيدة:

أعيش من غير عشق

رباه كيف أعيش

ما العيش من غير طيش

إلا سهام تطيش

وما حياتى إذا ما

لم ألق روحاً بقربى

أبثها زفراتى

فى الليل جنباً لجنب

إن الجمال ليطغى

إذا نظرت إليه

سينشنى بعد حين

إذا صبرت عليه

والعمر فيه الخلود

إذا أمنت الصدود

باكر إلى الروض

واخطف ما فيه من أزهار

ونادم الحسن واحلف

بطلعة الأقمار

إن كنت تخشى الله

فانظر لما يرضاه

* * *

والله يرضى بأن تلقى الذى صنعت

يداه بالبشر أفراحًا بأفراح

وان تقول وصدر منك منشرح

سبحان من خلق التفاح للراح

يا شارب الحسن من وجه تصابحه

احذر كلام الحسود اللاحى

واعطه أذنًا صماء ساخرة

لما يقول الأحمق الصاحى

عدوا عيوبى ولم أذكر فضائحهم

بصارم من خطير الشعر فضاح

من جهلهم جهلوا أن الذى بدرت

منه ذنوب سيمحو وزرها الماحى

الله ماح لما قد خطّه قدر

من قبل آدم مسطور بألواح

إذا الليالى تدجّت مرة فلها

عود إلى شمس وإصباح

ويكتب «زكى مبارك» ويكتب عن الحب والمحبوبة، يكتب إلى الروح التى حضرت من الإسكندرية فى جريدة «البلاغ» بتاريخ ٢/ ٨/ ١٩٤٩ لأراها وترانى

وأقدم تحية الشوق. ثم يقول:

الجمال الموحى هو الجمال من عينيك؛ يا روح شربت حتى سكرت وتذكرت الشاعر الذى قال:

مضى بها ما مضى من عقل شاربها
وفى الزجاجة باق يطلب الباقى

ما هذه الجدائل الذهبية فى شعرك يا روح الروح؟

وما هذه الجدائل الفضية فى شعرى؟

جلسنا نقرأ ملحق البلاغ وفيه أن الوزارة استقالت قبل أن تموت، وهو خبر تفرد به ملحق البلاغ، وأبناء عبدالقادر حمزة باشا ورثوا عن أبيهم الابتكار الصحفى.

مالذى يمنع من أن يبتكر المحرر الأدبى لجريدة البلاغ؟

فكرت فى الشاعر الذى قال:

والله لو القاك لا اتقى
عينا لقبلتك الفين

قالت المحبوبة:! الوزارة استقالت. فهل تستقيل من حبى؟

قلت: لن أستقيل.

قالت: وتكتب حديثى معك على صفحات البلاغ؟

قلت: سأكتبه بمداد أحمر آخذه من دم قلبى...

ثم سألتها عن الشاعر الذى قال؟:

شربت عيناه من خمر الصبا
وسقاه الحسن حتى عربدا

ثم سألتها عن الشاعر الذى قال

فيا عجبًا للدهر لم يخل مهجة
حتى الماء يعشقه الخمر

ثم سألتها عن الشاعر الذى قال:

يـا لـيـلـة الـعـيـد مـاذا أنت صـانـعـة

إنى أخـاف الجـوى يـا لـيـلـة الـعـيـد؟

قالت: هذا شعرك يا ملك الشعراء.

لم أعد أعرف كيف أكتب والخطابات التى ترد منك يا شقية تزيد آلامى

على صفحات جريدة البلاغ فى ٤/ ٤/ ١٩٤٩: يقول زكى مبارك:

والشوق يتوهج من يوم إلى يوم، ولولا القبلات التى أنهبها بالوهم عند التلاقى لطار صوابى.

لقد كنت أفقت من حلم الحب، ولكننى أستيقظ فأرانى من الغرام على ميعاد.

وإن صوتك فى التهاف تصحبه ضحكة رنانة تزلزل قلبى، إن كانت لى مع حبك بقية من القلب.

أنا مسافر إلى الإسكندرية، وسأسبح فى البحر لأطفئ النار التى تتوهج فى قلبى.

ثم يكتب الشاعر «زكى مبارك» تحت عنوان: (اللحن الجديد)، فيقول فى جريدة البلاغ بتاريخ ١٦/ ١٢/ ١٩٥٠:

ماذا أصنع؟ الغرام الجديد يحيط بى من كل جانب ففى إسكندرية جمال. وأنا توهمت أن لى فيها محبوب جميل.. كما توهم «موليير» فى روايته: «المريض الواهم»، وهى أجمل ما ألف «موليير» وهى رواية شعرية تحلل فيها من الوزن والقافية.

أما «فولتير» الساخر فله قصة لطيفة تلخصها الأسطر التالية:

قالت له إحدى السيدات: إن أسلوبك واضح جدًا. فقال: (لأننى نهر قليل العمق يا سيدتى).

وأنا أسلوبى واضح جداً لأننى نهر قليل العمق، بدليل أنى أغرق البلاغ بالقصائد والمقالات، وسأغرقه بالدمع الذى ينطق به هذا القصيد الحزين:

إن عيبًا فيك لا يقتلنى يا حبيبى
إنه الحسن الذى يقتلنى يا حبيبى

يا صبوح الوجه يا حلو العيون
لك صوت صيغ من لحن الرنين

وقوام صيغ من تلك الغصون
انت فى عينى فتون فى فتون

آه من صوتك آهًا يا بغوم
آه من ظلمك آها يا ظلوم

آه من وجدى بمعسول الرضاب
قبلة منه شراب فى شراب

وجحيم وسعير وعذاب
كيف اسلو؟ كيف يا رب اعنِّى

إن هذا الظبى صاد القلب منى
لأغنى واغنى واغنى

طال هذا الليل أم طال نواك
انا فى شوق فعدنى كى اراك

يا رشوف الريق أشقانى هواك
لم يعد لى من أناجيه سواك

ادمعى فيك وهو المطر
منهما يا روح يسقى الشجر

قد دجا الليل وطال السهر
وفؤادى بالهوى ينصهر

قل لى مـــــتى أراك يــــا قـــمـــــر؟

فـــفـــؤادى بـــالـــهـــوى مـــســـتـــعـــر؟

عزيزى القارئ:

لقد شغل «زكى مبارك» الناس بالحديث عن عاطفة الحب، ولكن وكما يقول «زكى مبارك» لأى غرض يحيا الناس.. إذا أصيبت أفئدتهم بالاعتلال فلم تحس ذلك الروح اللطيف؟

وأتساءل مع «زكى مبارك»:

هل ينصرف القلب عن الحب وهو فى عافية؟!

عادل الشامى

الباب الثانى

إن زكى مبارك أجرأ كاتب فى الشرق العربى

درينى خشبة

قصة واقعية بقلم: «زكى مبارك»

وأحاديث أخرى

زكى مبارك.. وكتابة القصة:

تحت عنوان: (اغْرب ما رأيت فى حياتى)! نشر أمير البيان الدكتور «زكى مبارك» هذه القصة على صفحات مجلة «الرسالة»

لكن «زكى مبارك» عندما دعاه الأستاذ عبدالقادر حمزة صاحب جريدة «البلاغ» ليكتب قصة تأخذ صفحة كاملة من صفحات جريدة «البلاغ» قال:

«بعبارة صريحة أننى لم أكتب فى حياتى غير قصتين، قصة قصيرة وهى فى صدر كتاب «الأسمار والأحاديث» وقصة طويلة تقع فى ثلاثة أجزاء. وهى قصة (ليلى المريضة فى العراق) والقصتان مأخوذتان من الواقع لا من الخيال».

هذا ما ذكره «زكى مبارك» على صفحات جريدة «البلاغ» بتاريخ ٢٢/ ١٢/ ١٩٤٧. ومن هنا نجد أنه لم يذكر القصة التى نشرها على صفحات مجلة «الرسالة» تحت عنوان (أغرب ما رأيت فى حياتى).. وهى أيضًا قصة واقعية.

ولعل السبب أن رأى الأدباء والنقاد اختلف فى التعليق على هذه القصة. وسوف نلتقى بها على صفحات هذا الكتاب. بعد أن نمهد بإشارة إلى القصتين اللتين ذكرهما ثم بكلمة عن أخلاق «زكى مبارك».. ثم نشير إلى تناوله منذ وقت مبكر لما عرف فيما بعد بموضوع «الأدب المكشوف».

القصة الأولى التى ذكرها «زكى مبارك» كانت تحت عنوان:

(شهيد الفاقة والاغتراب) على صفحات كتابه: (الأسمار والأحاديث) والذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٤٠.

وأعيد طبع الكتاب مرة ثانية فى المكتبة العصرية/ صيدا بيروت، وطبعة ثالثة فى دار لونجمان سنة ١٩٩٨.. فمن يريد الاطلاع على «شهيد الفاقة والاغتراب» عليه أن يعود للكتاب،. فهو فى متناول القارئ فى طبعته الثالثة على الأقل.

أما القصة الطويلة التى ذكرها «زكى مبارك»، فقد كانت تنشر أولاً على صفحات مجلة «الرسالة» ثم جمعت فى ثلاثة أجزاء تحت عنوان (ليلى المريضة فى العراق) وهو نفس الاسم الذى كانت تنشر به المقالات على صفحات مجلة «الرسالة».

وفى كتاب «ليلى المريضة فى العراق» نجد أن «زكى مبارك» يتحدث إلى (ليلى) وإلى وصيفتها (ظمياء) وهما من الأسماء المنتحلة لشخصيتين خياليتين، وذلك ليجرى الحديث علي لسانيهما والمحاورات فى المعانى التى يريدها.

ومما قاله «زكى مبارك» فى بداية القصة، إن الحكومة العراقية انتدبته ضمن المؤتمر الطبى المنعقد فى بغداد لمداواة (ليلى المريضة فى العراق) بصفته طبيباً. والمعروف أن «زكى مبارك» لم يكن طبيباً - بل كان أديباً، ومن يريد المزيد عليه أن يعود لكتاب (ليلى المريضة فى العراق) ليعيش فى قصة عاطفية رسمها خيال «زكى مبارك» ليقول فيها كل ما يريد فى جميع مناحى الحياة على لسان (ليلى وظمياء).

وقد سئل «زكى مبارك» من هى ليلى؟؟.. فقال: «إن ليلى الزهاوى هى العراق، أما ليلاى فهى معروفة لجميع الناطقين الضاد»...

ونحن نقول إن المعروفة لجميع الناطقين بالضاد هى اللغة العربية...

* * *

اخلاق زكى مبارك:

والآن وقبل أن نقدم القصة التى نشرها «زكى مبارك» على صفحات مجلة «الرسالة» يجدر بنا أن نوضح للشباب الذين لم يعيشوا عصر «زكى مبارك» شيئًا عن أخلاق «زكى مبارك»..

قال المؤرخ العربى المصرى الأستاذ «أنور الجندى» على صفحات كتابه (زكى مبارك) والذى أصدرته الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٥٦. صفحة ٤٢ تحت عنوان: (ملامح شخصيته):

لا أعتقد أن شخصية أدبية أوضح فى ملامحها وأصرح من شخصية «زكى مبارك» فإنه من اليسير الوصول إلى شمائل هذه الشخصية من آثاره وكتاباته، فهو أصرح كتابنا المعاصرين فى الحديث عن نفسه و أجرؤهم فى الكشف عن دخائله وأقدرهم على مجافاة التقاليد.

وهو صاحب مذهب الصراحة ومجافاة النفاق فى الكتابة، والولوع بمهاجمة المنافقين والذين يظهرون غير ما يبطنون.. فهو يعلن رأيه فى كل شىء فى صراحة تامة دون أن يبالى عواقب ذلك فى حياته.

ولقد جر عليه مذهبه هذا لعداوات كثيرة. وكان سببًا فى تخلفه فى الحياة، وعجزه عن الوصول إلى مكانه الحق.. ولعل مرجع هذا عنده أنه احتفظ بطبيعة الفلاح فى عنفه واندفاعه وصراحته وصوفيته، فإذا أحب أو كره، بلغ غاية الغايات، ووصل إلى نهاية الشوط لا وسط عنده ولا اعتدال تتحكم فيه عاطفته وأعصابه وتذهب به مذهب الرضا أو الغضب، وهو إلى هذا قادر على مواجهة أخطائه والاعتراف بها.

ويمضى «أنور الجندى» قائلاً:

(لقد برأ «زكى مبارك» نفسه من المجاملة والنفاق المصنوع، وترك لعقله الحرية رغبة فى تخليص الأدب من براثن الرياء والصنعة وقيود الهوى، ولعل هذا هو الذى صير حياته أتونا متقدا من العداء الصارم الساحق الذى يسد أمامه أبواب الرزق وفصله من عمله مرة بعد مرة).

وأيضًا يقول المؤرخ «أنور الجندى» فى الكتاب نفسه صفحة ١٨٦:

(زكى مبارك» وصف نفسه بأنه الكاتب الوحيد الذى يخجل من أن يقول فى السر ما يعجز عن قوله فى العلانية، كما أنه يرى أن الشيطان مخلوق شريف، لأنه لا ينافق، فهو يعلن فى كل وقت أنه من الضالين المضلين، ولو كشف كل إنسان عن سريرته لأصبحنا جميعًا من الملائكة لا من الشياطين).

* * *

زكى مبارك.. فى حديثه عن الأدب المكشوف:

قال الأديب «درينى خشبة» على صفحات مجلة «الرسالة فى العدد ٥٢٨» فى أغسطس سنة ١٩٥٣..

إن «زكى مبارك» أجرأ كاتب فى الشرق العربى..
ولكن ماذا قال «زكى مبارك»؟

على صفحات كتاب: (ليلى المريضة فى العراق) - الطبعة الثالثة والتى طبعته ونشرته مكتبة مصر بالفجالة، وعلى الصفحة ٤١٧.. قال «زكى مبارك» فى حديثه عن الأدب المكشوف:

أغرمت بالأدب الفرنسى منذ سنة ١٩١٥ فراعنى أن أراه يتحدث عن أزمات القلوب والنفوس والعقول بأساليب لا أجد لها نظائر فى الأدب العربى، فقررت أن أرجع إلى نفسى لأفتش عما فيها من أسرار وغرائب وأعاجيب عسانى أمد الأدب العربى بذخيرة جديدة من ذخائر النفوس والقلوب، ومضيت فدرست طوائف من الغرائز والطباع لأستطيع تأريخ النفس الإنسانية فى العصر الحديث، وقد جمعت من ذلك كله محصولاً يعز على من رامه ويطول..

يقول «زكى مبارك»: ولما دخلت بغداد، وجدت ناسًا يرتابون فى أمانتى بسبب مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) وفى تلك المقدمة كلام قلته فى الدعوة إلى الأدب المكشوف:

(١)

«وفى أنفسكم أفلا تبصرون»

آية كريمة، تذهب فيها النفس مذاهب شتى، ولكنى أريدها لمعنى خاص: هو الحكم على الأقوال والأفعال.

وبيان ذلك أننا نرى غيرنا يقول، أو يعمل، فنحكم عليه بالبر أوالفجور، فتارة نخطئ وتارة نصيب، وأكثر ما نكون شططًا إذا حكمنا على القول، أو الفعل، من غير أن نحيط خبرًا بظروف القائل، أو الفاعل، وهى وحدها محور الخير، والشر،

والخطأ والصواب، فليست كل كلمة يكفر قائلها بالإثم ولا قصائد التشبيب رمياً لصاحبها بالفسوق، ولكن فى الظروف وحدها الحكم بأن الشاعر فاسق أو سكير!

ومتى عودنا أنفسنا البحث فى الحالة النفسية للقائل قبل البحث عن مدلول ما قال، واجتهدنا فى معرفة ظروف الفاعل قبل تأمل ما فعل من منكر أو خبيث فقد ترفع التهمة، عن كثير ممن حكم عليهم بالكفر والمجانة، لكلمة ظاهرها الكفر أو فعل ظاهره الجون.

وليس فى ذلك خروج على أصول الدين، فقد قال ﷺ «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، وليس لمتعنت أن يرد علينا بأن هذا خاص بأعمال الخير لا الشر، فإنه كما يجوز أن يفسد الخير حين يراد به شر، كذلك يصلح الشر حين يراد به خير، وتبقى التبعية على من يقصرون فى إرشاد الناس إلى نتائج أعمالهم، وما لها من الضر، والنفع، لتتماثل النيات والأعمال.

وإذا أباح لك حسن النية أن تحكم على رجل بالصلاح لغلبة الخير على أقواله وأفعاله، من غير أن تلم إلمامه بالأسباب القريبة والبعيدة، لما يعمل وما يقول وقد تكون نيته سيئة فيحبط عمله، فإن من الواجب أن تنظر بدقة إلى ظروف من ساء قوله وعمله، فقد تكون نيته حسنة فيرضى عنه علام الغيوب.

إن علماء الغرب لا يحكمون على خلق المؤلف إلا بعد أن يتبينوا العصر الذى عاش فيه، والبيئة التى أحدقت به، فنال منها ونالت منه، لاحتمال أن تسود كتابته فكرة كانت فى عصره حسنة، هى فى عصرنا سيئة، فنحكم عليه بما هو منه براء.

(٢)

ولنرجع إلى الآية التى صدرنا بها هذا المقال (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فإنى لا أكتم القراء أنى وجدت فى مذكراتى كلمة لو قرأتها لغيرى الآن لأنكرتها عليه مع أنى أعرف أنى كتبتها من قبل، وأنا نقى القلب، خالص الضمير، ولقد تبدو تلك الكلمة، وكأنها خطاب مفتوح لأهل الجمال، وهى سذاجة طريفة، تمثل عهداً من عهود الصبا، خيل إلى فيه أن الحسن يجب أن يكون ملكًا لجميع العيون،

تستمتع به آمنة مطمئنة لا يمانعها فيه غيور، ولا يحجبها عنه ضنين، وليس فى مقدورى الآن أن أكتب مثل تلك الكلمة، لأنى حرمت من تلك السذاجة، واطلعت من الناس على بلايا ومناكر، يلوم من بعدها الكريم، وحاشاى، وسأفرض الآن أنى فى العهد الأول من عهود الشباب، وأن الناس كما كنت أحسبهم منذ سنين أطهار بررة،. ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يتقولون الأقاويل، ولأذكر طرفًا من ذلك الخطاب:

يا أرباب الجمال!

ما لكم تضنون علينا بما سوف يشبع الدود منه لثما، ويأكله التراب أكلا لما؟

كم صائن عن قبلة خده
سلطت الأرض على خدّه
وحامل ثقل الثرى جيده
وكان يشكو الضعف من عقده

أما والله إن أرواحنا لفى حاجة إلى بعض ما تنعم به الوسائد من الخدود، والمراود من الجفون، والمساويك من الثغور، والأمشاط من الشعور، والغلائل من الأعطاف، والزينة من الأطراف، فلم تحرموننا فى حبنا لكم، وإشفاقًا عليكم بما تكرمون به الجمال ليلاً ونهارًا على أنه لا يعرف ما حف به من حسن، وأحدق به من جمال؟!

يا أهل الملاحة!

إن الله ما خلقكم كالأزهار، فى القفار، تزهر ثم تذبل، ولا يتمتع أحد بشمها ولثمها، وإنما خلقكم روحًا لكل حى. ونعيمًا لكل موجود، فاجعلوا لنا منكم حظًا، ولا أقل من النظر، فقد خفنا على أرواحنا أن تزهق ببخلكم، وتموت بصدكم، وما الله بغافل عما تعملون!

إن كنتم فطرتم على العزة، وجبلتم على النخوة، فهبونا بعض القرب منكم، والأنس بكم، ولكم منا ما تشاءون من ذل واستكانة، وخضوع وعبودية، وقد

عذرناكم لعزكم، فارحمونا لذلنا، وعشقناكم لحسنكم، فاعشقونا لحبنا، فكفى بالحب جمالا وبالعشق زينة، وإن الحب المملول، لخير من الحبيب الملول، فإن أبيتم إلا الصد والقطيعة، والجفاء والإعراض، فإنا نبشركم بأن الحسن حال تحول، ودول تدول، ثم يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين!

أوردية الخدين من ترف الصبا
ويا ابنة ذى الأقدام بالفرس الورد

صلى واغنمى شكراً فما وردة الربى
تدوم على حال ولا وردة الخد

(٣)

ولقد يعجب قارئ هذا الخطاب حين يرى كاتبًا يعتقد أن الجمال ملك العيون النواظر، وأن البخل به إثم وعقوق، ولكنه لو تروى لعرف أن النفس الطاهرة كثيرة الشطط، وأن صاحبها لا يسلم من الإسراف، ورحم الله ذلك العهد الذى كنت أعيش فيه بأمل غير محدود!!

ليالى لا تنجو بنبلى خريدة
وإن عز حاميها وجم عديدها

إذا ما رمتنى ذات دل رميتها
بعين لها منها مقيدة يقيدها

على أننى لا أمنع أحدًا من أن يسىء الظن بما كتبت منذ سنين، فإن الذى يطمع فى معرفة النفس البشرية، لا يبخل بوضع نفسه على المشرحة، ليسهل عليه وعلى غيره التحليل، ومثله فى ذلك الطبيب المخلص لعمله، لا يبخل بتضحية نفسه وهو يفحص صرعى السل والتيفوس، فهل يعقل هؤلاء الذين يطيعون أهواءهم، وشهواتهم، فينسون أنفسهم، ويسلقون إخوانهم بألسنة حداد؟

إن قليلاً من الروية والأناة لكاف لسلامتنا من الزلل والعثار، حين الحكم على ما يعمل الناس وما يقولون.

(٤)

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل أسرف الكاتب حين هم بنشر مدامع العشاق فى جريدة الصباح سنة ١٩٢٢ وافتتحها بهذه الكلمة الجريئة، موجهة إلى إحدى العذارى. (قضى الأمر، وأصبحت حيًا كميت، وموجودًا كمعدوم! فما ضرنى لو أذعت هذا الحب، وما أبقى هواك منى ما أسمع به ملاما أو أرى وجه عذول؟

على أن قلبى يحدثنى بأن الإشادة بما بيننا من هوى قد تزيد حقد الحاقدين، وما إلى ردعهم سبيل! وأنت المعنية بهذا الإشفاق، أما أنا فما كنت لأرهب قومًا لاسلاح لهم غير القيل والقال :

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمى
وهموا بقتلى يا بثين لقونى

إذا ما راونى طالعًا من ثنية
يقولون: من هذا! وقد عرفونى

وبعد فإنه لم يبق ما أسكن إليه فى هذا الوجود غير حديث الحب، وبلايا المحبين، وقد رأيت أن أساير شعراء العرب فى أعذب ما جرى على ألسنتهم: وهو النسيب، وأن أبدأ ذلك بما انتهوا إليه، وهو الحديث عن الدموع، وما لها من سبب قريب أو بعيد، حتى إذا هدأت ثورة القلب بعد هذا الدمع المسفوح، عدت فصاحبت الشعراء، وذكرت كيف فتكت بهم النظرة الأولى، وبينت مهوى عيونهم، ومصرع قلوبهم، بين الخدود الفواتن، والعيون الفواتك، ولن أتحرج من ذكر ما كان من الوقائع بين الخصر النحيل، والردف الثقيل، وعلى وحدى إثم الفتنة التى ستقيمها هذه الأبحاث الشائقة فى صدور الشباب والكهول، ولمن شاء السلامة من القراء أن يكف منذ الآن عن قراءة هذا الحديث.

نصحتك علمًا بالهوى، والذى ارى
مخالفة، فاختر لنفسك ما يحلو)

(٥)

وهذا خطاب أقل ما يؤخذ عليه أنه لا يوجه إلى فتاة، فضلاً عما فيه من المجازفة، فى حمل إثم الآثمين، وفتك الفاتكين، ولقد آذتنى آثامى، فكيف أحمل آصار الناس!

ولم يمر ذلك الخطاب دون أن تضج له إحدى الجرائد الأسبوعية، وبدون أن ينالنى أحد الكتاب بلسان حديد، فكتبت فى الرد عليهم هذه الكلمة القاسية:

«فى مصر قوم لا يعرفون من الجد إلا الغطرسة والكبرياء والكاتب الجاد فى نظرهم هو الرجل السليط، الذى يخيل إليه كلما كتب: أنه قسيس فى كنيسة حافلة، أو خطيب فى مسجد جامع، فهو مسئول عن سرد الرذائل وعد المنكرات!؟ فأما الكاتب بما أودع اللهّ هذا العالم من روائع الحسن وبدائع الجمال، فهو فى رأيهم كاتب ماجن خليع!!

ولا أدرى بماذا يجيب هؤلاء لو سألتهم من خلق هذه الصور الجميلة، التى طارت بألباب الشعراء؟ وصيرتهم فى كل واد يهيمون؟ أتراهم يقولون إنها من خلق الله، أم من خلق الشيطان؟ فإذا كانت من خلق الله. فلم ينكرون علينا أن نتغنى بصنعه البديع؟ وإن كانت من خلق الشيطان، فلم لا يمحون الحسن من وجوه الحسان، لأنه من عمل الشيطان الرجيم؟

آمنت بالله وكفرت بما لهم من منطق مقلوب!

يريد جماعة ممن أظلمت الدنيا فى وجوههم، وعموا عن صنع الله الذى أتقن كل شىء، ماذا يريدون؟ إنهم يريدون أن أجاريهم عمايتهم، وأن أسايرهم فى جهالتهم، فلا أكتب فى غير ما يروقهم من ذم الدنيا البديعة التى حملت الغزالى على أن يصرح بأن ليس بالإمكان أبدع مما كان، فعدت خليقًا بحمد الحسن، والتقديس له، كلما أمعنوا هم فى الجحود!

يقولون إن مدامع العشاق التى أنشرها فى جريدة الصباح مما يفسد الشباب، وذلك منهم جهل بأسرار الجمال، وماله من الأثر فى تهذيب النفوس، وتثقيف العقول ويهددون ويتوعدون بالويل والثبور، إذا أنا مضيت فى هذا البحث الشائق الطريف، فهل حسب هؤلاء السفهاء أنى أكتب لهم حتى أنزل عند رأيهم السخيف المأفون!

ابينا ان نطيعكم ابينا
فلا تلقوا نصيحتكم إلينا

ركـبـنـا فى الـهـوى خـطـراً فـإمـا
لـنـا مـا قـد كـسـبـنـا او عـلـيـنـا

ولـو لـم يـرض ربـك مـا اردنـا
لـمـا اعـطـى لـنـا اذنـاً وعـيـنـا

فـمـا تـسـألـكـم عن كل صب
كـان لـكـم عـلـى الـعـشـاق ديـنـا

(٦)

إلى هنا وقف القارئ على ألوان من الخواطر ، مرت بخاطر شاب يهم بالتمرد على ما ألف الناس، وما كنت لأذكر هذه التفاصيل لولا بغضى للرياء، فأنا بصريح القول: موكل بالحسن أتبعه، ومغرم بالتغريد على أفنان الجمال، وإنى لأقول:

اشـجـاك مـا خـلـف الـسـتـار وإنـمـا
خـلـف الـسـتـائـر لـؤلـؤ مـكـنـون

والـنـاس فى غـفـلاتـهـم لم يـعـلـمـوا
انى بـكـل حـسـانـهـم مـفـتـون

وأقول:

فـيـارب امـا رمت لى الخـيـر مـنـعـمـا
فـفـى قـرب من أهـوى وبـعـد أخى الـلـوم

وإن كـان لى فـيـمـا قـضـيـت مـسـاءة
فـحـزن عـلـى الـنـائـين جـيـرتـى الـقـدم

وإن شـئـت لى يـومـاً جـوارك فـلأكـن
شـهـيـد الجـوى لانـضـوهم ولاسـقـهم

وطـول حـسـابـى فى المـعـاد عـلـى الـهـوى
فـطـول احـاديث الـصـبـابـة من هـمـى

وما كان أغنانى عن الفزع إلى حكم الأخلاق، لأرجع الخير والشر إلى النيات، لا إلى الاعمال، فقد آن لنا أن نعرف ان من الحق، بل من الواجب، أن ندرس

الجمال، وأن نتغنى به، وأن نصفه بالنثر البليغ، والشعر الجميل، وأن نكتب عمن كلفوا بالحسن: من العشاق، والشعراء.

ولقد يروون عن رسول الله أنه قال: (إن الله ليعجب من شاب لاصبوة له)؟ وأنا لا أريد أن يعجب الله منى! وسينكر المتعنتون هذا الحديث، وأنا قبلهم لا أجزم بصحته ولكنى أثق بأنه يقرر حقيقة واقعة، فما كان الله ليخلق الجمال عنوة. أو لنرمى بالإثم والفجور، وهؤلاء الملتزمون الأغبياء لا يملون من الدعوة إلى الاستمتاع بجمال الطبيعة، لهم الويل! وهل الإنسان إلا لباب الطبيعة، وسرها المكنون!؟

وماذا أصنع بالأشجار والأزهار، والثمار، والأنهار، والكواكب، والنجوم، والسهول، والحزون، والجبال، والوديان، والطيور الصوادح، والظباء السوانح؟؟

وهذا الإنسان؟ أليس لى الحق فى اختياره، قبل اصطفائه، وكيف أختاره إن لم أحكم الذوق. فى تمييز جسمه وروحه، وعقله وشعوره، وحسه، ووجدانه؟ وما قيمة الليل إن لم تظلنى فى الحب ظلماؤه؟ وما جمال الأغصان إن لم تهزنى إلى ضم القدود، وما حسن الازهار إن لم تشقنى إلى لثم الخدود؟ وكيف أصبو إلى الظباء، لو لم تشبه بعيونها وأجيادها، ما للحسان من أعناق وعيون؟ وكيف أصبو إلى غنة الغزال، لولا ذكرى تلك النبرات العذاب، والتى يسمونها السحر الحلال؟

وإنك لتعلم أيها القمر، كيف كنت أصدف عنك، وأنا أطالع ذلك الوجه، الذى نعمت معى بثغرة المفلج، وأنفه الاقنى، وطرفه الأحور، وجبينه الوضاح، وإنك لتعلم أيها القمر، كيف هجرتك حين غاب، وتعلم أنى لا أنظر إليك إلا حين السرار، لأرى كيف يفعل الشحوب بك، وكيف تنال منك الليالى! وإنها لشماتة طفيفة، أحزن من بعدها على خلود متعتك بصباح الوجوه وعلى عودتك لشبابك، فى حين أودع كل يوم جزءًا من شبابى، وواحسرتاه على ما أودع أجزاء الشباب!!

لأصبحت نهب الأسى والحزن
لجسم اقام وقلب ظعن
فيا ويحهم يزمعون الرحيل
وما زودونى غير الشجن

دمــــوع تحـــــدر فـــوق الخـــدود

كــصــوب الـــغـــمـــام إذا مـــا هـــتن

وقـــلـب يـــقـــلـب بـــين الـــضـلـــوع

بـــعـــيـــد الـــقـــرار فـــقـــيـــد الـــسـكن

واصـــبـــحـت والـــراس مـــرعى المشيب

قـــلـيل الـــســـرور كـــثـــيـــر الحـزن

لـــعـــمـــرى لـــئن شـــبـت قـــبل الأوان

لـــقـــد شـــاب حـــظى وشـــاب الـــزمن

كـــان الـــشـــعـــور عـــراهـــا الـــبـــيـــاض

ســـهـــام الـــردى او خـــيـــوط الـــكـــفن

وإن الـــشـــبـــاب إذا مـــا انـــقـــضى

لـــكـــا لحـــلـم اقـــلـع عـــنـه الـــوسن

(٧)

أما بعد فقد أخرجنا للناس كتاب «الأخلاق عند الغزالى» فرمونا من أجله بالكفر، واليوم نخرج لهم مدامع العشاق؟ وسيرموننا من أجله بالفجور، وسنصبر على عدوانهم حتى نخرج كتاب «آراء الجاحظ الفلسفية والأدبية» وكتاب «أفنان الجمال» ثم نجنح بعد ذلك إلى المتاب!

وقـــد زعـــمـت لـــيـــلى بـــأنى فـــاجـــر

لـــنـــفـــسى تـــقـــاهـــا وعـــلـــيـــهـــا فـــجـــورهـــا

الملحد الفاجرفيما يزعمون

زكى مبارك

سنتريس فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هجرية

* * *

بعد ذلك يستطرد «زكى مبارك» قائلاً: أنا الذى جنيت على نفسى لأنى لم أبين المراد من الأدب المكشوف، وما أردت إلا الصدق فى تصوير العواطف والأهواء، وليكون ذلك مادة تنفع فى دراسة علم النفس.

ومن المستحيل أنى أريد الدعوة إلى الفجور والمجون، لأنى بحكم أعمالى الرسمية من رجال التربية، ولأنى رجل متأهل وله أبناء، ولأنى أتسامى إلى أكبر منصب من مناصب الخدمة الوطنية.

وعلى صفحات جريدة «البلاغ» وبتاريخ ٢٢/ ١٢/ ١٩٤٧، وفى إحدى مقالات «زكى مبارك» والتى كان ينشرها تحت عنوان: (الحديث ذو شجون).. قال «زكى مبارك»:

كنت فى شبابى جميلاً إلى أبعد حدود الجمال، أنا رجل، والرجل هو الجميل، وأنا أزكى عن ذكورتى بالعفاف، والعفاف هو جمال الجمال..

ويرجع السر فى بقاء شبابى إلى أننى ما عصيت الله.. فما أقترفت جريمة الزنا فى حياتى..

* * *

أغرب ما رأيت فى حياتى

والآن مع قصة «زكى مبارك» والتى قصها فى مقالين على صفحات مجلة «الرسالة» بتاريخ ١٢، ١٩ يناير سنة ١٩٣٩ وكانت تحت عنوان: «أغرب ما رأيت فى حياتى»:

وهذه أول مرة تنشر فيها على صفحات كتاب.

أنا متهم بالعقل، متهم بالجنون.. فمن وصفنى بالعقل فهو متلطف، ومن وصفنى بالجنون فهو مسرف.. لأنى فى حقيقة أمرى إنسانًا يعيش بثورة العواطف فوق ما يعيش بقوة العقل، وهى حالة تجعل أمرى وسطا بين العقل والجنون والتوفيق الذى ظفرت به فى حياتى العملية، مدين لحياتى الوجدانية، فقوة الوجدان هى التى حملتنى على أن أستقتل فى الدراسات الأدبية والفلسفية، وقد يأتى يوم أعترف فيه بالأسباب الوجدانية التى جعلت عقلى يتفوق إلى أبعد حدود التفوق فى مثل كتاب النثر الفنى أو التصوف الإسلامى.

وهذه الغرابة.. فى تدوين عقلى وقلبى هى التى تحملنى على الجرأة فى تدوين هذا الحديث، وهو حديث كنت أفتضح به أشنع افتضاح لو نشرته قبل سنتين أو ثلاث، يوم كان لى خصوم يسرهم أن تحاط حياتى بالأقاويل والأراجيف، أما اليوم وقد قل خصومى بحيث لا يزيدون عن ألف أو ألفين، فأنا أنشر هذا الحديث بلا تهيب ولا تخوف، وليقل من شاء ما شاء.. (على صفحات مجلة «الرسالة» بتاريخ ١٢/ ١/ ١٩٣٩).

كنت حين انتسبت إلى جامعة باريس أقضى أربعة أشهر من كل سنة فى مدينة النور، ثم أعود إلى وطنى لأجمع من الصحافة والتدريس ما أستطيع به الرجوع

إلى باريس من جديد.. ودام ذلك بضع سنين. ثم عرفت أنى لن أصل إلى غرض إلا إذا قررت بطريقة حاسمة ألا أفارق باريس إلا فى أحد حالين: النصر أو الموت.

وكانت الإقامة الدائمة فى باريس تبدو من المستحيلات، لأن أبى رحمة الله لم يكن يقدر على إمدادى بكل ما أحتاج إليه، وكان ما ورثته عن أمى طيب الله ثراها لا يزيد عن بضعة قراريط، وكانت زوجتى أفقر منى؟؟ ولم يكن لى فى الحكومة المصرية عم ولا خال..

وفى تلك الظلمات استطعت أن أتفق مع الأستاذ عبدالقادرحمزة على مراسلة البلاغ من باريس بمرتب خمسة عشر جنيها، فتوكلت على الله وقررت الاعتكاف بالقبلة القديمة فى السوربون.

ولكن مراسلة البلاغ من باريس لم تكن عملاً ينفع إلا فى حال واحده: هو أن يشعر صاحب البلاغ بأنى أقدم إليه محصولاً أدبيًا ينقل القراء من حال إلى أحوال، فقد كان الأستاذ عبدالقادر حمزة اشتهر بين أصحاب الجرائد بأنه يحسن الاعتذار إلى من يريد الاستغناء عنهم من المحررين والمراسلين، وكنت جربت اعتذاراته الرقيقة قبل ذلك حين كنت أحرر فى البلاغ الأسبوعى سنة ١٩٢٦، ولكن اعتذاراته فى ذلك الوقت لم تكن تؤذينى لأنى كنت مدرسًا فى الجامعة المصرية، وكنت بفضل تلك الوظيفة من المياسير.

ماذا أصنع فى مراسلة البلاغ من باريس؟ كنت أستطيع أن أرسل إليه مقالات فى الأدب العربى. وأنا من أقطابه بلا جدال، ولكن إرسال مقالات عن الأدب العربى من باريس كان ضربا من السخف يقترفه من يراسل البلاغ من باريس، وهل يعيش الأديب فى باريس ليحدث الناس عن ابن المقفع وابن العميد؟؟

ماذا أصنع؟؟ ماذا أصنع لأنجو من تسلم خطاب رقيق من خطابات الاعتذار التى يجيدها صاحب البلاغ؟؟ ماذا أصنع لأظفر بخمسة عشر جنيها أضيفها إلى المبالغ التى أكسبها من الدروس الخصوصية التى أعطيها للطلبة الضعاف فى اللغة الفرنسية من أعضاء البعثات والنقود التافهة التى آخذها فى مقابل

المساعدة التى أؤديها لبعض المستشرقين الذين يهمهم أن ينقلوا النصوص العربية إلى اللغة الفرنسية؟ ماذا أصنع؟؟ ماذا أصنع؟؟.

لم يكن أمامى إلا مسلك واحد: هو الاندماج المطلق فى باريس لأحدث قراء البلاغ بأحاديث منتزعة من الحياة الواقعية فى باريس.

وما هى إلا أسابيع حتى عرف صاحب البلاغ أنه لن يكتب إلى رجل مثلى خطاب اعتذار، وحتى عرف قراء البلاغ أنى أحدثهم بما لم يألفوه، وأن البلاغ لن يستغنى أبدًا عن صاحب «الحديث ذو الشجون».

ولكن الانتصار فى هذا الميدان له تكاليف..

كان لابد من الاتصال الدائم بأساتذة السربون ومدرسة اللغات الشرقية لأظفر بما تساميت إليه من الألقاب العملية.

وكان لابد من معاقرة الحياة فى باريس لأنجح فى مراسلة البلاغ..

أما الأساتذة فالظفر بثقتهم سهل، لأنى فى الواقع من أصلح الناس لفهم ما أسمع من الخطب والمحاضرات، ولأنى كنت بالفعل شابًا ناجحًا له فى الأدب وله فى الفلسفة مذاهب وآراء..

الصعوبة كل الصعوبة، والعسر كل العسر هو فى اختراق باريس لأصل إلى أوهام وحقائق أفيد بها أذواق قرّاء البلاغ؟؟

وكيف أصل إلى هذا الغرض الجليل؟.. هدتنى الفطرة إلى قضاء أوقات الفراغ فى الملاهى والملاعب والمراقص والقهوات. فكنت أقضى فى هذه النزهة الطريفة ساعات من النهار وساعات من الليل، كنت شابًا، ورحم الله شبابى، الشباب الذى بددته فى طلب الحب والمجد..

كنت أذرع باريس بقدمى لأخلق لمقالاتى جوًا من الحقيقة لا من الخيال، وأعاننى على ما أسمو إليه لسان مرن فى اللغة الفرنسية مرونة عجيبة تقدر على جذب من أحاور من أسراب الظباء..

والفرنسيون يغفرون للرجل جميع الذنوب، إذا أمدته العناية الإلهية بلسان فصيح.

وكان لى فى باريس ثلاث قهوات، قهوة صغيرة جدًا فى بولميش بجوار (قهوة الرحيل) التى كان يجلس فيها الدكتور طه حسين يوم كان طالبًا فى جامعة باريس، وكانت هذه القهوة الصغيرة مخصصة للمواعيد الغرامية والتأملات الفلسفية. فكيف صارت اليوم؟ ليتنى أعرف؟

أما القهوتان الأخريان فهما الروتوند والدوم فى حى مونبارناس.

كيف كنت أصطبح وأغتبق بهاتين القهوتين؟؟

كان مضمونًا عندى أن لا سبيل إلى معاقرة الحياة إلا فى مونبارناس..

وإنما كان ذلك لأنى كنت أتهيب مونمارتز تهيبًا يصل إلى الفزع، والرعب، فقد تشاجرت فيها مع أحد الشبان الفجار فى سنة ١٩٢٧، وكاد اسمى يقيد فى سجلات البوليس لولا لطف الله، وكانت هذه التجربة القاسية كافية لأن أقنع بالضلال فى حى مونبارناس..

وفى قهوة الدوم وقعت المأساة أو الملهاة التى أدونها فى هذا الحديث:

دخلت ذات صباح، فوجدت سيدة تطالع سفر الوجود بعينين زرقاوين يندر أن يكون لهما شبيه أو مثيل. وجلست بالقرب من تلك السيدة عسانى أنهب منها نظرة أو نظرتين أستعين بهما على إتمام بعض الفصول من كتاب «سحر العيون» الذى أرجو أن يظهر بعد قليل، وما هى إلا دقائق حتى تلاطفنا برفق وعطف، ثم أشارت بأن أقترب فاقتربت.. رباه.. متى تعود أيامى؟؟ وبعد أن دار كأس الحديث نحو عشرين دقيقة، عرفت أنها من البغايا..

أعوذ بالله.. أعوذ بالله.. أعوذ بالله

أمثل هذا الحسن يكون من نصيب الفجرة الاوباش..؟؟

أتكون هذه الحسناء الفاتنة شبيهة بالشمس ينعم بضوئها من يشاء ولو كان من الخفافيش؟؟

أتكون هذه التحفة الفنية شبيهة بكرائم النهار يشرب منها البهائم والدواب؟؟

أتكون هذه العيون السواحر من نصيب من يساعده القدر المخبول فيملأ جيبه بالدراهم ولو كان من الأغبياء؟؟

أتكون هذه الدمية شبيهة بالحجر الأصم الذى تسجل عليه حوادث الأفاقين؟؟

ليتنى مت قبل أن أشهد ذلك المنظر الأليم!..

ليتنى مت قبل أن أعرف أن مثل ذلك الحسن يباع!

ألك يارب حكمة فى إذلال هذه الروائع الفنية التى زينت بها الوجود؟؟

أرفع الحجاب مرة واحدة. يا رباه لأعرف أسرار السياسة العالية التى تسوس بها مخلوقاتك!

وهاجمت تلك السيدة الجميلة بعنف فقالت:

أسمع أيها السيد؟ ليست الغواية من همى ولا هى من مناى،.. أنا امرأة شقية خدعها شاب مثلك باسم الحب.. وكانت ثمرة الحب طفلاً هو اليوم تلميذ بمدرسة (......) وقد هجرنى الحبيب والد الطفل وتركنى وحدى أربيه وأرعاه فأنا أقول باسم الحب لأنفق على ذلك الطفل المسكين، إلى أن يظهر أبوه، إلى أن يظهر هذا الوغد الذى هجر معشوقته وطفله منذ سبع سنين، فإن كنت تدعى الرجولة الصحيحة فتقدم لحمايتى ولرعاية طفلى. وسترى كيف أجزيك عطفًا بعطف وإخلاص..

وما كدت أسمع هذا القول حتى دارت الأرض تحت أقدامى..

ومن أين أنفق على هذه السيدة وعلى طفلها وليس لى من جريدة البلاغ ولا من الدروس الخصوصية إلا مبلغًا ضئيلاً من المال لا يزيد على ثلاثة آلاف من الفرنكات والحياة قاسية أشد القسوة على الفقراء فى باريس..؟؟

ثم نظرت فرأيت المرأة تعرض مشروعًا نبيلاً قد يرفع روحى بعد إسفاف، فصوبت بصرى إليها وقلت: وكيف أضمن أن تتوبى عن حياة الرجس؟؟

فقالت فى استحياء.. إن لغرفتى مفتاحين..

فقلت: وما معنى ذلك؟؟

فقالت: لك مفتاح ولى مفتاح.. فخذنى لنفسك وراقبنى كيف تشاء، فإن استطعت أن تشهد علىَّ ما يريب بعد اليوم فاقتلنى.. والمهم أيها السيد أن ينجو طفلى من الجهل والجوع، وفى تلك اللحظة تذكرت عبدالمجيد..

تذكرت أنى تركت فى مصر الجديدة أطفالاً منهم عبدالمجيد الذى كان يزعزع كيانى حين يقول (بابا)..

ـ وما اسم ابنك يا سيدتى؟؟

ـ اسمه موريس..

وذهبت إلى التسليم على موريس... سأذكر فى قبرى عبارة باقية فى اللغة الفرنسية حين طلع موريس فقالت له أمه: قبل أباك...

وتوهّم الطفل أنى أبوه.. فقبلنى بحرارة والدموع فى عينه...

وأستأذنا مدير المدرسة فسلم إليها الطفل ليقضى معنا الليلة فى مباهج باريس.. وسألنى الطفل أين كنت؟؟ فأخبرته أنى توجهت إلى الشرق لزيارة القاهرة وبغداد وبيروت، واخترعت له أقاصيص تعجبه وتلهيه، ولم يفتنى أن أحدثه عن أخبار الجن والعفاريت..

وفى تلك الليلة هجر الطفل صدر أمه وسكن إلى صدرى لينام نوم السعداء.. وفى تلك الليلة شعرت أن روحى ارتفعت إلى أجواء السماء..

كان موريس ورث عن أمه الفرنسية صفرة الشعر وزرقة العين، وكان ورث عن أبيه الهولندى شمائل من السماحة واللطف، وكان فى جملته وتفصيله تحفة من تحف الوجود.. وقد وجد من عطفى وحنانى كل ما يتمناه ويشتهيه، فانطلق يحدث أترابه فى التعليم بالنعيم الذى يلقاه فى يومى الأحد والخميس.

وفرحت مرجريت بما صارت إليه من راحة البال وصفاء النفس بعد الهيام الأثيم بأحياء باريس، ومضت تقترح ما تشاء من المغامرات فعلمتنى الرقص وطوفت بى على المكنونات من صناديق الليل..

وبفضل مرجريت عرفت من خبايا باريس مالا يعرف الشياطين، ولم تكتف بذلك بل نقلتنى إلى روان والهافر وأطلعتنى على المستور من شواطئ المانش.. وأقامت معى فى الضواحى النائية أسابيع.

والله وحده يعلم كيف عاشرت تلك الحسناء فلو قلت إنى فى حبها كنت من الأطهار لما صدقنى مخلوق، لأن سمعتى تعرضت لأخطار كثيرة بسبب التهالك على أخبار الملاح.. ولكنى كنت فى صحبة تلك السيدة رجلاً نبيلاً وأجمل ما نلت لم يزد عن قبلة شهية طبعتها على جبينى حين أخبرتها أنى متأهل ولى أبناء، وقد قهرتنى هلى قبول هدية من العطر (الكريم) لأرسلها إلى ابنتى وزوجتى وقد قبلت الهدية ثم ألقيتها خفية فى نهر السين..

كانت مرجريت متينة إلى أبعد الحدود (قالت ذات يوم) أنت يا دكتور معرض للسمنة بسبب شرب البيرة..

فقلت: هذا حق.. قالت.. ما رأيك فى سياحة على الأقدام، إلى ليون؟؟

فقلت: وفى كم يوم نصل على الأقدام إلى ليون؟؟

فقالت: نحو أسبوع..

فحملنا أثقالنا واتجهنا نحو ليون ماشيين..

وبعد يوم واحد تعبت، فحملتها على الرجوع بالقطار إلى باريس.

ليتنى أطعت مارجريت وذهبت ماشيًا إلى ليون لأعرف كيف يعيش الناس فى الأقاليم الفرنسية، ولأجدد الأنس بصحبة مرجريت يوم همنا على وجوهنا فى الحقول النورمندية..

كانت مرجريت ضجرت من حياة الفتون..

وكنت ضجرت من حياة الفتون..

وكنا نشتهى أن نعرف معنى التصوف فى الحب، وكيف نتصوف فى الحب وقلوبنا معمورة بحب الطفل العزيز موريس؟؟

وبعد أن دام هذا النعيم النبيل خمسة عشر شهرًا. وصلت إلى ما أريد فى امتحانات مدرسة اللغات الشرقية وامتحانات السوربون وصممت على الرجوع إلى أهلى وأبنائى ولم يكن بد من توديع مرجريت وموريس وأى توديع؟؟

كان من الواجب أن أرد المفتاح إلى مرجريت، فرفضت والدمع فى عينيها الزرقاوين..

وقالت: احفظ هذا المفتاح، فقد تصل على حين غفلة إلى باريس.

وكانت مرجريت لاتزال معرضة للفقر والبؤس فوعدتها بإرسال سبعمائة فرنك فى كل شهر لتستطيع الإنفاق على نفسها وعلى ابنها الغالى، وأنا أفى إذا وعدت.

كانت الدنيا فى ذلك العهد لا تخيفنى، وهل يخاف من يرجع مزودًا بأعظم الألقاب من باريس..

ولكن لم أكد أصل إلى مصر حتى عطلت جريدة البلاغ، فأرسلت إلى مرجريت أستعفها مما وعدت، فكتبت تصفح عنى وتسأل الله أن يفتح لى أبواب الرزق، وما هى إلا مدة قصيرة حتى استجاب الله لدعوة مرجريت فكنت آخذ من الجامعة الأمريكية ثمانية وعشرين جنيها، ومن الليسيه اثنين وعشرين جنيها ومن البلاغ خمسة عشر جنيها، بغض النظر عما كنت آخذه من المكتبة التجارية، ومن مجلة الهلال ورأيت أن أزيد مرتب مرجريت فكنت أرسل إليها فى كل شهر ألف فرنك، وعرف موريس فضل أبيه فكان يرسل إلى فى كل أسبوع خطابين، حرسك الله يا موريس وكتب لك التوفيق.

وفى سنة ١٩٣٢ ذهبت إلى باريس لأحضر مؤتمر (الميسيون لايك) نائبًا عن أساتذة اللغة العربية بمعهد الليسيه، ذهبت ومعى المفتاح لأزور مرجريت، ولكنى استكبرت عن زيارة مرجريت.. وهل يفكر الأساتذة الكبار فى العطف على امرأة نكبتها المقادير؟؟

ولما رجعت من المؤتمر أنقصت مرتب مرجريت من ألف فرنك إلى سبعمائة فرنك، واعتذرت بأن مواردى نقصت وإنى لم أعد أملك غير التدريس بالليسيه والتحرير فى البلاغ.. فكتبت مرجريت تقول إنها ترضى منى بأن أعترف أنها استطاعت مرة واحدة أن تدخل النور إلى حياتى..

اعترفت يا مرجريت بأنك بددت ظلمات حياتى..

طال العهد على لقاء مرجريت، وطال العهد على لقاء موريس، وحملنى لؤم الطبع على التخلص من مرجريت وموريس. وهل كانت مرجريت زوجتى؟؟ وهل كان موريس ابنى؟!

كيف أقطع مرتب مرجريت؟

وكيف أدخل البؤس إلى صدر موريس؟ كيف؟ كيف؟؟

المسألة فى ذاتها هيّنة.. ولكنها مع ذلك بدت لى فى غاية التعقيد لأن اتصالى بمرجريت كان أثار حول اسمى شبهات أذاعها فريق من أهل الفضول فى باريس، وأظن وبعض الظن إثم وبعضه غير إثم أن ابنة صاحب البيت التى كنت أقيم فيه كان لها دخل فى إذاعة الشبهات التى آلمتنى فى باريس..

كان ناس من المصريين يسألون عنى من حين إلى حين، فكانت تلك البنت تلقاهم بابتسامة خبيثة ثم تقول: المسيو مبارك رجل لطيف، فهو لا يلزم الخدم بترتيب غرفته غير مرة واحدة أو مرتين فى الأسبوع..

ومعنى ذلك أنى أبيت ليالى كثيرة فى مكان مجهول..

وكان لى مع هذه البنت تاريخ جميل يغريها بأن تلقى على حقودها حين اغيب.. وكان المصريون فى باريس يتعاتبون ويتلاومون كلما رأونى، ويحبون أن يعرفوا أين أقضى أوقات الفراغ، وكانت حجتى حاضرة، ولكنها لم تكن تقنع إلا من يريد أن يقتنع، كنت أعرف أنى تركت فى مصر خمسة عشر مليونا وما يهمنى أن أراهم مرة ثانية فى باريس..

والواقع أنى أحسنت كل الإحسان فى هذا المسلك، فلم يكن لى أى نفع مع تزجية أوقات الفراغ مع المصريين المقيمين فى باريس.. فأكثر كلامنا حين نلتقى لم يكن إلا ثرثرة سخيفة باللغة العربية حول السياسة المصرية، وربما كنت المصرى الوحيد الذى عاش فى باريس ولم يعرف مكان السفارة المصرية فى باريس..

والواقع أيضًا أن صلتى بمرجريت لم يعرفها أحد قبل اليوم غير شخص واحد هو الدكتور أمير بقطر الذى كلفته فى إحدى السنين أن يمر علي مرجريت ليحدثها عن أشياء لا يمكن أن تكتب فى خطاب ومع خطورة هذه المهمة.. فرط الدكتور أمير بقطر فى زيارة مرجريت، وهكذا الأخوان فى هذا الزمان..

والحاصل ـ كما يعبر أهل بغداد ـ أنى كنت أحب أن أتخلص بصفة نهائية من مرجريت، لأنى كنت أخشى أن أفتضح فى الأندية المصرية وتحق علىّ لعنة خصومى الذين كانوا يعرفون كيف يلطخون سمعتى بالسواد بلا تعفف ولا استحياء..

كان يجب أن أقطع صلتى بمرجريت وهل بقيت بيننا صلة غير مئات الفرنكات التى أجود بها فى كل شهر لأنقذ موريس من الجهل والجوع؟؟

كان هذا المرتب ثقيلاً جدًا، وكان إرساله يضيع علىَّ فى كل شهر يوما أو بعض يوم..

وقد اضطرنى فى مرة إلى أن أصرخ بالفرنسية: أنى أضيق..

وكنت فى كل مرة أتعرض لمكارة كثيرة من التحليلات النفسية، كنت أقول إن لى قرابات كثيرة تعانى الضر والبؤس، وهى أولى بكرمى إن كنت من الكرماء.. وكنت أقول إن مرجريت أوت روحى وقلبى خمسة عشر شهرًا وأمنتنى من أن أصير أبًا كريمًا لطفل جميل...

وكنت أقول إن لمرجريت فضلاً عظيمًا فى مرونة لسانى باللغة الفرنسية.. المرونة التى أمكنتنى من أن أحاور هيئة الامتحان فى مدرسة اللغات الشرقية خمس ساعات والتى أمكنتنى من أن أحاور هيئة الامتحانات بالسوربون فى ثلاث ساعات وذلك مغنم ليس بالقليل..

كنت أقول إن مرجريت هى التى عرفتنى بدقائق الحياة فى باريس..

كنت أقول إنى لم أحسن الأكل بالشوكة والسكين إلا بفضل مرجريت..

كنت أقول إن مرجريت بكت مرة. وأبكتنى يوم زرنا معًا مصانع ستروين، حين وقفنا ننظر إلى فتاة تطرق الحديد وهى أرق من الزهر وأكثر إشراقًا من الصباح..

قالت مرجريت: ما رأيك يا محبوبى فى هذه الفتاة؟؟

فتلعثمت.. فقالت: قل الحق، ماذا تدفع من الأموال لحديث ليلة مع هذه الحسناء التى تطرق الحديد؟

فقلت: وهل هى أجمل من مرجريت؟؟

قالت: دع هذا الأدب المصقول.. وأجبنى:

فقلت: أقدم حياتى ثمنًا للسمر ليلة مع هذه الفتاة.

قالت: وهل تعرف كيف زهدت هذه الفتاة فتنة باريس لتلهو بطرق الحديد؟؟

قلت: أحب أن أعرف.

فقالت: هذه الفتاة تستعد لتكون ربة بيت. فهى تطرق الحديد لتجمع من الأموال ما يمكنها أن تكون زوجة لرجل شريف مثل المسيو مبارك. ثم استغرقت فى البكاء والنشيج.

بكيت يومئذ لبكاء مرجريت، بكيت بكاء لو شهدته الملائكة لأضافت اسمى إلى أسماء الشهداء والصديقين...

وفى تلك اللحظة، جذبت يد مرجريت بعنف وقلت: لن نفترق يا مرجريت، فقالت: كيف؟؟ فقلت: سأنقلك إلى مصر إن كان إلى مصر معاد.

فقالت: وماذا أصنع فى مصر؟؟ هل ترانى أصلح لمعاونة مدام مبارك فى ترقيع الجوارب؟؟

فقلت: إن مدام مبارك لا ترقع الجوارب.

فقالت: وكيف تقول هذا وأنت أبخل من اليهود؟؟

وضحكنا ضحكًا صنع بالدموع ما تصنع الشمس بآثار الغيث..

ذكريات مرجريت كلها لطيفة. ولكن يظهر حقًا أن فىّ شيئًا من أخلاق اليهود، لأنى عانيت فى حياتى ما يعانى اليهود، وهل يبخل اليهود بالطبع ولهم جد اسمه السمؤل: إنما يبخل بسبب الاضطهاد، وأنا أبخل بسبب الاضطهاد.

كان أجدادى من أغنى أهل المنوفية فحملتهم النخوة العربية على التبذير والإسراف، إلى أن صافحوا الإفلاس، فأنا أجمع القرش إلى القرش لأصير من الأغنياء.. وهل يتفق هذا ما الإنفاق على امرأة جميلة فى باريس..؟

يجب أن أقطع مرتب مرجريت ولكن كيف؟؟ أحب أن أعرف كيف أتخلص من مرجريت..

كانت مرجريت تكتب إلى فى كل أسبوع خطابين، وكانت تخاطبنى بالكاف وكنت أبخل عليها المخاطبة بالكاف، لأنى كنت أخشى أن يحدث فى المخاطبة بالكاف، ما يشهد بأنى كنت مع تلك المرأة على صلات غرامية..

وكانت مرجريت تتألم من الا أخاطبها بالكاف.. وتقول: إن بخلك على بالمخاطبة بالكاف، يوجب أن أخفى رسائلك عن موريس وهى كل ما فى حياة هذا الطفل المسكين من عزاء. حرسك الله يا موريس وبارك فى حياتك الغالية.

وكانت مرجريت تتحدث فى رسائلها عن أشياء لاتذكر إلا فى رسائل العشاق، وكنت أتغافل عن تلك الأشياء حين أكتب الجواب.

وكان هذا يؤذيها أبلغ إيذاء، فكانت تتهمنى بالقسوة والعنف..

والله وحده يعلم كيف كنت أسىء الأدب فى مراسلة مرجريت، فأنا أعيش فى القاهرة، وهى تعيش فى باريس، أنا أحترس خوفًا من بطش خصومى، وهى ترسل بلا خوف، لأنها تعيش بين قوم يرون صيانة الحب من الشرائع..

وهل تعلم مرجريت أن محبوبها يشتغل بالتدريس وهو عمل تكدره الشبهات؟.. وهل تعلم مرجريت أن محبوبها الغالى يحيا فى القاهرة بلا ناصر ولا معين؟؟

هل تعلم مرجريت أنى لا أصلح أبدًا لما صلح له كوزان أعظم أستاذ للفلسفة فى باريس ولم يكن له زوجة، وإنما كانت له خليلة تحرسه وترعاه؟؟

إن مرجريت لا تفهم أنى مصرى يعيش فى مدينة لها تقاليد غير تقاليد باريس، يجب أن أقطع مرتب مرجريت وأن أتخلص من مرجريت.

وفى أثناء تلك الأزمة النفسية وقع حادث عجيب لم يهتز له فى القاهرة قلب غير قلبى، وقع حادث لم يصدقه أحد فى الشرق ولكنه زعزع كيانى، وقع حادث

لم يعلق عليه كاتب مثل المازنى أو العقاد أو الزيات، ولم يلتفت إليه مصطفى عبدالرازق ولا منصور فهمى، ولا طه حسين ولكنه زلزل قدمى وهدّ بنيانى.

وهل يقع فى الدنيا حادث أغرب وأعجب من أن يجىء المسيو ميللران رئيس الجمهورية الفرنسية الأسبق ليطالب فى المحكمة المختلطة بالقاهرة عن حق إحدى الغوانى بالميراث فى تركة أحد الأمراء؟؟

قد أنسى كل شىء، ولكنى لا أنسى أنى أعتذرت عن دروسى بالجامعة المصرية لأشهد دفاع المسيو ميللران، وماذا قال المسيو ميلران فى ذلك اليوم؟؟ قال إن موكلته امرأة شريفة، وما كاد ينطق بهذه الكلمة حتى صعقت؟؟ فقد فهمت أن المرأة من حقها أن تحب، وقد أحبتنى مرجريت فمن حقها أن تطالبنى بالنفقة الشرعية حين تشاء، وماذا أملك حين تطالبنى مرجريت؟؟ أملك سمعتى، وهى كل شىء وبفضل تلك السمعة أتسامى لمنصب الأستاذية فى الجامعة المصرية.

وقد آن أن أعترف بالخطر الذى كان يهددنى فى جميع أطوار حياتى، فأنا رجل من كبار العلماء، وستمر أجيال وأجيال قبل أن يوجد لى فى البحث والاطلاع شبيه أو مثيل،. ولكنى وا أسفاه مولع بدرس سرائر النفس الإنسانية وأغرانى بذلك أنى كنت أول دكتور فى الفلسفة من الجامعة المصرية.. وهذا المعنى هو الذى حملنى على الصراحة فيما أسجل وأفند من الأفكار والمعانى وأغلب الظن أنى سأكون أشرف ضحية للدراسات الفلسفية، ولا يغرينى إلا شىء واحد هو الشعور بأنى أنقذ الأدب العربى من كابوس الرياء والنفاق، ولكن الأدب العربى يحيا لأموت والحاصل . مرة ثانية . أنى عرفت وتيقنت أنى لا أملك قطع مرتب مرجريت..

وهل أستطيع الوقوف بالمحكمة المختلطة بالقاهرة أمام محام ذلق اللسان يطالبنى بحقوق مرجريت؟؟

وما هو مبلغ السبعمائة فرنك حتى أهرب من وجه مرجريت؟؟

إن أصغر مبلغ أتقاضاه على المقالة الواحدة لا يقل عن جنيهين، فما الذى يمنع من أن أنفق على مرجريت ما أتقاضاه من مقالاتى فى مثل جريدة البلاغ أو مجلة الهلال؟؟ وما الذى يمنع من أن أنقذ سمعتى بمبلغ ضئيل هو مئات من الفرنكات..

ولى مع ذلك تعزية صغيرة هى شعور موريس بأن له أبًا هو المسيو مبارك الذى استأنف سياحاته فى مصر والشام والعراق.

ولى تعزية ثانية هى رسائل مرجريت التى تحدثنى عن غرائب الأشياء فى باريس، ولى تعزية ثالثة هى الشعور بأن لى غرفة فى باريس أدخلها على غير موعد حين أشاء.. ولكن مع الأسف الموجع كنت أشعر بأنى قد نزلت إلى أسفل درجات الانحطاط لأنى كنت أقدم المرتب إلى مرجريت بفضل الخوف لا بفضل الوفاء.

وفى صيف ١٩٣٧ كانت لى فرصة لزيارة باريس بمناسبة المعرض، وكانت مرجريت تلح فى أن أزور ذلك المعرض لأراها وترانى، وقد شجعنى الأستاذ محمد العشماوى على زيارة المعرض لأكتب عنه مقالة أو مقالتين، ولكنى رفضت.. رفضت فرارًا من مرجريت، فماذا صنعت مرجريت؟؟

ماذا كتبت مرجريت..؟؟

كتبت خطابًا تقول فيه:

عزيزى مبارك..

يسرنى أن أخبرك أن موريس نال إجازة الدراسة الثانوية وقد وجد عملاً بمكتبة بمرتب قدره ثمانمائة فرنك، وبعد أيام سأقف مع المسيو.. بكنيسة المادلين لأداء مراسيم الزواج.

فأرجو أن تبقى المبلغ الذى تتفضل به شهريًا.. فقد ينفعك فى تربية أبنائك. ويهمنى أن تعرف أنك أشرف رجل عرفته فى حياتى. وأن تثق بأن خطيبى لا يغار منك، فقد صارحته بكل شىء.. وهو فى غاية الدهشة من أدبك العالى،. وكل ما نرجوه أن ترسل عبدالمجيد لنتولى تثقيفه فى باريس..

صديقتك العزيزة جداً

مرجريت

حاشية:

(أنا أقرأ خطاباتك مع زوجى.. فهل تقرأ خطاباتى مع زوجتك..)

آمنت بالله والحب!

لقد أنقذتنى مرجريت من العذاب والألم..

وفرت سبعمائة فرنك قبل رحيلى إلى العراق. وفرتها وأنا لئيم بخيل..

وفرت سبعمائة فرنك لأرجع إنسانًا سخيفًا لا يعرف الهيام بأودية المعانى..

مرجريت... مرجريت...

إذكرينى بالشعر يوم أموت..

هل الله عاف عن ذنوب سلفت

أم الله لم يعف عنها يعيدها؟

مصر الجديدة

١٩ ينـــاير ١٩٣٩ **زكى مبارك**

الباب الثالث

زكى مبارك نسيج وحده فى ميدان الوجدانيات ولن يجاريه أحد فى هذا الباب لما يمتاز به من شاعرية وعاطفة جياشة.

حواش مصطفى بن بكير

خريج معهد الحياة بالجزائر

ليليات زكى مبارك

سنة ١٩٢٧ سافر «زكى مبارك» إلى العراق أستاذا للأدب العربى بدار المعلمين العالية ببغداد.. ومن بغداد أخذ ينشر على صفحات مجلة «الرسالة» مقالات تحت عنوان :

«ليلى المريضة فى العراق»، والمقالات ضمها بعد ذلك كتاب يحمل نفس العنوان.

ولقد شغل «زكى مبارك» نفسه بالحديث عن «ليلى» :

ليلى العراق، ليلى الزمالك، ليلى أسيوط، وليلى مصر الجديدة، إلى آخر ما هنالك من الليليات إذا جاز هذا التعبير..

ويتحدث أمير البيان الدكتور «زكى مبارك» عن «ليلى» فيقول فى كتاباته : إنه إنما فكر فى إغناء الأدب العربى بألوان من الصور الشعرية التى تصور عذاب الأرواح والقلوب، وإنه أحب أن يقيم فى عالم الأدب العربى دولة للقلوب والأحاسيس..

ولهذا اختلق «زكى مبارك» اسم «ليلى» وتخيل وجود قصة حب بينه وبينها، فنشر مقالات تحمل هذا العنوان «ليلى المريضة فى العراق» على صفحات مجلة الرسالة.

ثم ماذا؟

سنة ١٩٢٨ أنهى «زكى مبارك» السنة الدراسية فى بغداد، وعاد إلى مصر.. وكان أول مقال يكتبه بعد عودته على صفحات مجلة «الرسالة» تحت هذا العنوان:

هذه دارى وهذا وطنى
ولكن أين أحبابى؟

هذه دارى، الدار التى أقمتها على أطراف الصحراء بمصر الجديدة لأفتح أمام قلبى آفاق المجهول من عوالم المعانى.

وهذا وطنى، الوطن الذى عانيت من أجله ماعانيت ولم أخنه فى سر ولا جهر، ولم يرمنى غير الصدق والوفاء..

هذه دارى وهذا وطنى، ولكن أين أحبابى؟

من كان يظن أنى أقضى الأيام والأسابيع، فلا أجد من يسأل عنى بعد غياب الشهور الطوال؟ من كان يظن أنى لا أجد أنيسًا غير بريد بغداد على بعد مابينى وبين بغداد؟

من كان يظن أنى أحبس نفسى فى دارى ليالى وأياما فلا يسهد لعزلتى جفن ولايحزن قلب، ولايرتاع وجدان؟

من كان يظن أنى لم أتلق من الإسكندرية غير خطاب واحد، ولم أتلق من دمياط غير خطاب واحد، ولم أتلق من سنتريس غير خطابين اثنين، وسكت من أهواهم فى المنصورة وأسيوط؟

من كان يظن أنى لم أعبر شارع فؤاد غير مرة واحدة منذ رجعت من بغداد؟

وما فائدتى من عبور ذلك الشارع المتموج؟

كان لى فى القاهرة هوى معبود فتبدد وضاع، كانت ليلاى فى الزمالك، فأين ليلاى وأين الزمالك؟

أنا أطفئ المصباح فى منتصف الليل، وأفتح النوافذ لأرى كيف يهيم نور القمر فوق رمال الصحراء، فماذا تصنع ليلاى بالزمالك أو ليلاى بالعراق؟

آه ثم آه من حيرة القلب فى غفوات الليل!

* * *

أيتها الصحراء

إن حالك مثل حالى فى موات..

وقد تمر فوق ثراك الميت هوام وحشرات.

وفوق ثرى قلبى الميت تمرح هوام وحشرات هى السخرية من الناس، واليأس من صلاح القلوب، وجمال الوجود.

وقد ترق حواشيك بالندى أو الغيث فتنبت فوق ثراك الأعشاب!

أما قلبى فقد اضمحل إلى الأبد ولن ينبت فيه شىء.

وأشقى الناس من يعيش بقلب أجدب من الصحراء.

* * *

أيها الليل!

هل رأيت فى دنياك من ينافسك فى ظلامك غير قلبى؟

هل عرفت منذ أجيال وأجيال شقاء مثل شقائى؟

أيها الليل!

خذ السواد من قلبى، إن أعوزك السواد.

خذ من قلبى ومن حظى ذخيرتك للأحقاب المقبلات.

خذ منى ماتشاء، أيها الليل، فلن تجد مشتهاك عند إنسان سواى.

خذ منى ماتشاء بلا من عليك : فما أخذت السواد إلا منك، ولا ورثت الظلام إلا عنك ومثلى يحفظ الجميل.

* * *

أيها الليل!

لاتجزع من العزلة، فأنا أسامرك وأناجيك.

لاتفزع من الوحدة، ففى قلبى ظلمات تساير ماتحمل من ظلمات.

عندى آلامى، وعندك آلامك. والجريح يأنس بالجريح، ياليل!

أنا أعرف من أنا فى دنياى، فمن أنت فى دنياك، ياليل؟

أنت جزء من الزمان هجرته الشمس فأظلمت دنياه.

إن شمسى تغرب فى الزمالك أو فى بغداد، فأين تغرب شمسك؟

إن شمسك تغرب ثم تعجز عن الصبر على فراقك فترجع إليك.

وشمسى تغرب فلا ترجع.

فليت حظى كان مثل حظك، ياليل!

والمقادير تترفق بك فتسوق القمر والنجوم لإيناسك.

وأنا أعانى الظلام المطلق حين تغيب الشمس التى تعرف.

فليت حظى كان مثل حظك، ياليل!

وأنت باقٍ على الزمان، وأنا صائر إلى الفناء.

فليت حظى مثل حظك، ياليل!

والناس يخافون بأسك فيتقربون إليك بالقناديل والمصابيح.

وأنا مأمون الجانب فلا يتقرب أحد إلىّ بشىء.

فليت حظى كان مثل حظك، ياليل!

من اسمك ياليل جاء اسم ليلى، ففيها طغيانك، وفيها ظلامك، فلا عفا الحب عنها ولا عفا الله عنك!

* * *

هذه دارى، وهذا وطنى، ولكن أين أحبابى؟

إن قلبى يستحق التأديب، فليتلق من الضيم ماهو له أهل :

ألم يتلق رسائل الشوق من بغداد فسكت عنها سكوت الغادرين؟

ألم يتلق رسائل الشوق من باريس فسكت عنها سكوت الجاحدين؟

ألم تنتقل إليه الغادة النورمندية فاستعفى من صحبتها بالقاهرة.

محافظة على سمعته بين الناس؟

إن قلبى يستحق التأديب، فليتلق من الضيم ماهو له أهل.

أيها الليل!

قد اقترب صباحك، فمتى يقترب صباحى؟

لك خلاص من ظلماتك، فأين الخلاص من ظلماتى؟

ستمضى لشأنك وتتركنى، ياليل!

إن الظلمات تقتل شبابى، وتحيى شبابك.

إن الظلمات تصيرك أقوى وأعنف، وتصيرنى أرق وألطف، والرقة واللطف من بواكير الفناء..

أيها الليل!

لقد عرفت قسوتك فى بلاد كثيرة من الشرق والغرب، وماكنت أعرف أنك أقسى ماتكون فى دارى وفى وطنى.

أما بعد، فأنا أعترف بأن قلبى يستحق التأديب.

كنت أصم أذنى عمن يسألون عنى فى باريس وفى بغداد : لأفرغ لما سموه الواجب، فليتنى أجبت الدعوة فى باريس وفى بغداد لآخذ ذخيرتى من الحب والعطف!

ليتنى صنعت وصنعت، ولكن هيهات، فقد فات مافات!

أيها الليل فى مصر الجديدة!

أنا على كل حال رفيقك وأخوك.

وستمضى الأعوام والدهور، ولاتعرف أصدق منى.

* * *

سيذكرنى الناسون يوم تشوكهم

شمائل من بعض الخلائق سود

سيذكرني الناسون حين تروعهم
صنائع من ذكرى هوى شهود

فوالله ما أسلمت عهدى لغدرة
ولا شاب نفسى فى الغرام جحود

ولاشهد الناسون منى جناية
على الحب إلا أن يقال شهيد

* * *

إلى متى الصوم ياقلبى..!

ويعود «زكى مبارك» للحديث عن غربته، فنقرأ على صفحات كتابه : «ليلى المريضة فى العراق» (طبعة مكتبة مصر بالفجالة - ص ٢٨٣) - نقرأ له تحت هذا العنوان مايأتى :

قلبى!

كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ فما عدت أسمع خفوقك فى صباح ولامساء!

صام الناس منذ أيام، فتذكرت صيامك.

إنهم يصومون من الفجر إلى الغروب ثم يفطرون، وأنت ياقلبى تصوم ليلك ونهارك، وأخشى أن تصوم دهرك.

وسينقضى صيام الناس بعد أسابيع حين يجىء العيد، وتبقى وحدك بلا عيد.

أتسمع ياقلبى؟

لقد كان شهر الصوم فرصة لمن تعودوا فى مثل هذا الموسم أن يقيموا مناحة على الآداب، وملطمة على الأخلاق.

وصومك ياقلبى هو الجدير بأن أذرف عليه غاليات الدموع.

ولو كان لصومك نهاية لتعزيت وتأسيت ولكنى أعرف أن بلاءك بالصوم سيطول، ويؤذينى أن أعرف بأنى لا أملك رجعك إلى ملاعب هواك.

وكيف أملك ذلك وقد شاركتك فى صيامك؟

أما رأيت ياقلبى كيف تمضى الليالى والأيام وأنا مبلبل الخواطر لا أعرف غير بياض القرطاس وسواد المداد؟

قلبى!

إن بعض الناس ينافقون فيفطرون فى السر، ويصومون فى العلانية، وقد استوى سرك وجهرك فألفت الحرمان من أطايب الحسن وغرائب الجمال.

كنت أنتظر أن أصير شاعرًا على حسابك، فأين أنت ياقلبى؟

كنت أطير إلى دنيا المجد والحب بجناحك، فماذا صنع الدهر بجناحيك؟

كانت القاهرة لاتسعنى فى ليالى رمضان، وكنت أملأ المحافل والأندية بالجدل والضجيج، وأنا اليوم لا أعرف غير القرار فى بيتى لأداوى جراحك يا أشرف جريح، فمتى يعود إليك نشاطك لأصاول بك الدنيا والناس؟

يعز علىّ ياقلبى أن أصبح بالرغم منى حكيمًا من الحكماء.

اعترف، أيها القلب الصائم بأنك بالرغم منى حكيمًا من الحكماء.

اعترف، أيها القلب الصائم، بأنك تخذل نصيرك وأخاك.

اعترف، أيها القلب الصائم بديونى عليك.

ألم أخرج على تقاليد المجتمع مليون مرة ومرة من أجلك؟

ألم أضيع ألوف المنافع فى سبيلك؟

فما الذى يضيرك ياقلبى لو تركت صومك يومًا أو بعض يوم لأواجه بك الحياة لحظة أو لحظتين؟

لقد شمت الشامتون بالشاعر الذى يعيش فى مصر الجديدة ولايرى مصر الجديدة، ويخترق شوارع القاهرة ولايحس جمال القاهرة، ويدخل عليه رمضان فلايهتاج لزيارة صديق أو استقبال حبيب.

كنت أرى الدنيا بك ياقلبى فأين أنت ياقلبى؟

أين أنت؟ حدثنى أين أنت؟ فقد ذهب صيامك بهيامى، وقضى على عنفوانى.

قلبى!

لقد تحطمت معاول الأعداء وعجزوا عن هدم بنيانى، فكيف تهدمنى أنت؟

أحب أن أعرف كيف شاءت المقادير أن لا أرى المتاعب والمضجرات إلا على يدى من أحب؟

لقد بدأت أبغضك ياقلبى، ولكن يعز علىّ أن تعيش بلا صديق، فإن بقيت بجانبك أعطف عليك وأواسيك فاعرف أن ذلك بقية من كرم الوفاء.

قلبى!

إلى متى الصوم ياقلبى؟

إن الناس يصومون ليلقوا من الله حسن الجزاء، وصيامك ياقلبى من أشنع الذنوب، فاعترف بذنبك ياغافل. واجرح صيامك بنظرة أو نظرتين قبل أن تطويك الأيام فلا ينصب لخفوقك ميزان.

وموعدنا إن شئت طغيان الفتون حيث تعرف وأعرف.. هل فهمت؟

أما أنا فسأسرقك إلى حيث أريد، وإن أبيت وتمردت. وإلى اللقاء فى مساء الخميس.

* * *

وبعد يومين من ظهور هذا المقال مررت على مكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف، فنبهنى الأستاذ محمد بيلى الفار إلى أن سعادة العشماوى بك سأل عنى، فطربت وظننت أنه سيبشرنى بأن حالتى قد سويت بوزارة المعارف، وأن مرتبى ارتفع بحيث أستطيع الإنفاق بسخاء على مرضاى من الملاح.

وماكدت أدخل على سعادة العشماوى بك حتى نهض واقفاً، فكيف خرج هذا الرجل على «التبالة» الذى عرف به حين يستقبل الزائرين؟

كيف يقف هذا الرجل لاستقبالى وبينى وبين مكتبه خطوات طوال؟

دكتور!

مولاى!

لقد أعجبتنى مقالتك فى جريدة المصرى.

أو قرأتها؟

أنا أقرأ كل ماتكتب : لأنك من ذخائرنا الأدبية.

ومن أجل هذه المقالة تسأل عنى؟

أنا أسأل عن صحتك الغالية.

أجزل الله ثوابك، ياسعادة الوكيل!

اسمع يادكتور نحن فى السنة الماضية حشدنا إلى بغداد مؤتمرًا طبيًا عربيًا لمداواة ليلى المريضة فى العراق، فما رأيك إذا عقدنا المؤتمر الطبى العربى فى هذه السنة بالقاهرة لمداواة طبيب ليلى.

دوائى عند ليلاى، ياسعادة الوكيل، لاعند الأطباء.

إنك رفضت السفر إلى العراق وفيه شفاؤك.

أنا رفضت السفر إلى العراق لأنى :

أخاف العيون السود فليرحم الهوى

فجيعة أهلى يوم أقضى وأبنائى

نعدل الغرض بعض التعديل.

وكيف؟

ندعو المؤتمر الطبى للانعقاد بالقاهرة لمواساة طبيب ليلى.

لابأس.

وماهى إلا لحظة حتى كان السيد على مراد ينسخ خطاب العشماوى بك إلى الدكتور على باشا إبراهيم يوصيه بعقد المؤتمر الطبى الحادى عشر بالقاهرة لمواساة طبيب ليلى، هداه الله وشفى ليلاه!

* * *

أمن أجل مواساتى ينعقد المؤتمر الطبى فى القاهرة؟

هو ذلك، أو هذا هو، كما يعبر أهل بغداد.

* * *

بفضلك ياليلى صرت شخصية عالمية.

بفضلك ياليلى رفعنى الحب درجات.

بفضلك ياليلى صرت فى وطنى من الأطفال المدللين.

أحبك ياليلى، فاذكرينى بالشعر والدمع يوم أموت.

* * *

سينعقد المؤتمر الطبى فى القاهرة لمواساتى.

الله أكبر، ولله الحمد!

وماذا يصنع الحاسدون والحاقدون والأعداء؟

أنا أعرف العواقب ستغلف مؤلفاتى من جلودهم وجلود أبنائهم وأحفادهم وأسباطهم بعد حين، وسوف يعلمون.

الفناء لأعداء الآداب والفنون.

أما طبيب ليلى فله الخلود.

أرباه أنقذنى فأنت رميتنى

بقلب على عهد الأحباء بكاء

أرباه لاتفعل فإنى أرى الهوى

على وقده بالقلب أنفاس روحاء

تباركت مالجنات من دون لوعة

سوى بقعة فى غابة الموت جرداء

* * *

وفى القاهرة يكتب «زكى مبارك» ويكتب، ويتغنى بقول الشاعر الذى قال :

تداويت من ليلى بليلى من الهوى

كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

وكذلك أداوى حبًا بحب، وغرامًا بغرام : كما كان يصنع زميلى قيس فى الأيام الخوالى.

إن ليلاى بالعراق مغفورة الذنوب : لأنها أوحت إلى قلمى فنونًا من الغرائب، وقد رقمت اسمى بأحرف من نور فوق جبين الزمان.

فما حجة ليلاى بالزمالك فى تجنيها الأثيم؟

فما حجة هذه اللئيمة فى سفك دمى، وقد أذعت محاسنها عند صبايا دجلة والفرات؟

كنت أتشهى أن أرى النور المتوهج فى جبينها المشرق.

كنت أتشهى أن ألهو بها فى ليلة قمراء بطريق السويس.

كنت أتشهى أن أقضى معها سهرة فى زورق يترنح فوق أمواج النيل.

كنت أتشهى أن أخاصرها فى بساتين الجيزة الفيحاء.

كنت أتشهى أن نهيم على وجوهنا فى حى القصر العالى الذى يسميه الجهلاء (جاردن سيتى).

كنت أتشهى أن أرى معها البيت الذى كنا اصطفيناه بحدائق القبة.

كنت أتشهى أن أهصر فوديها بحى الزيتون.

كنت أتشهى أن نغرق معًا فى النيل عند القناطر الخيرية.

كنت أتشهى أن أرى وجه الله فى وجهها الجميل.

ولكن من الذى يدرك كل مايتمناه؟

أنا أعيش بروح سماوية وهى تعيش بروح أرضية، مع أنها حورية نزلت إلينا من الفردوس.

إن ليلاى بالزمالك لاتعقل، لأنها حسناء، والحسن يغرى بالجنون.

سأحاربها بقلمى، كما حاربت إنجلترا بقلمى.

وأنا رجل يحارب الظلم فى جميع الأشكال.

وكذلك أنشر الرسائل لأفضح ليلى المريضة بالزمالك، ولأجعلها عبرة لغادات المعادى وحلوان.

«وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون»

* * *

أترين الدنيا تصلح مرة ثانية فأرى أنى حين اتهمتك كنت من الظالمين؟

أيجىء يوم أرى فيه أنك لاتزالين نقية القلب طاهرة الوجدان؟

أكتب هذا وأمام قلبى خيال اليوم الذى دفعنا فيه مرة حساب النور لقصرك العالى، فقد عجبنا حين رأينا حساب الكهرباء يصل إلى عشرة جنيهات فنظرت إليك وقلت : ولكن قلبك ياشقية لايزال ظلامًا فى ظلام!!

كنا نلهو ونلعب، وكانت الدنيا من حولنا تلهو وتلعب، وكان للقمر رقصات تميدها راسيات الجبال من الرفق والحنان.

فمن يعيد تلك الأيام السوالف؟

من يعيدها لأرى بعينى جبينك المشرق وهو يتوهج ويتألق؟

من يعيدها، ياليلى، من يعيدها ياروح القلب الذى شرده الزمان!

إن قلبى يموج بالوساوس والأوهام والأضاليل.

فهل يكتب الله أن أراك وعلى وجهك نضرة الصيانة والوفاء؟

هل يكتب الله أن أقف بين يديك لأستغفر من سيئات الظنون؟

الأمر إليك ياليلى، إن كنت لاتزالين على كرم العهد.

لاتظننى أبدًا أنى سأعبر الزمالك بعد اليوم إلا حين يصح عندى أنى كنت فى سوء الظن من الخاطئين.

اعرفى ياليلى وتيقنى أنى أصبحت أحمل فوق كاهلى همومًا لا تحملها الجبال.

اعرفى أنك ملأت الدنيا سوادًا فى وجه عاشق مخلص كان ملأ الدنيا نورًا فى وجهك الوضاح.

اعرفى ياليلى ماتعرفين، وانكرى ماتنكرين، ولكن تذكرى أنى لم أكن إلا رجلاً كريمًا يحفظ العهود والمواثيق.

وتحدثك الغيرة بأنى أحضرت معى ليلى المريضة فى العراق.

فما الذى يمنع من أن تفاجئينى بزيارة فى غسق الليل لتعرفى ماتضم دارى من ملاح الليليات؟ ليتك تحضرين مرة على غير موعد لتعرفى أن أنيسى فى دارى هو صورتك الباسمة التى انتهبتها منك انتهابا فى ليلة مقمرة من ليالى الربيع الأسبق!

تعالى مرة ياغادرة وانظرى كيف صارت تلك الصورة وثنًا يعبده القلب.

تعالى ترى صورتك مصحوبة بصورة عزيزة غالية هى صورة أختك العزيزة الغالية، صورة ليلى المريضة فى العراق.

تعالى وانظرى كيف جمعت بين الصورتين لينعم القلب بجحيمين!

تعالى مرة، تعالى، تعالى واستغفرى من ذنبك فى الصدود لا فى العقوق، فمازلت أرجو أن يكون ارتيابى فى وفائك المعهود أضلولة من أضاليل الخيال.

تعالى، ياليلى، تعالى، تعالى نقرأ معًا بريد بغداد!

أحبك ياليلى، أحبك وأحب بغداد، وليلاى فى العراق.

أحبك بلا أمل ولا رجاء، وإن كنت أتشهى أن أقبل ذلك الوجه مرة ثانية، قبلة أثيمة تنزعج لها شياطين الأرض وملائكة السماء.

أحبك ياليلى، فتعالى خذينى، خذى الطفل الكبير الذى لم تؤدبه الأيام ولا الليالى، ولم يعرف أن الثقة بعهود الملاح ضرب من الخيال.

تعالى ياعروس الزمالك، تعالى إلى قلبى وروحى وضميرى، تعالى إلى الرجل العارم الذى لايزال على ماتعهدين من العنف والجموح.

تعالى ياليلى، تعالى تعالى نقرأ معًا بريد بغداد لتعرفى أن ليلاى هنالك تسأل عنى وهى ترتاب فى وفائى كما ترتابين، ولكنها تقول فيمن أحب :

«أفوقهم بإخلاصى»

تعالى وأنظرى هذه الجملة «أفوقهم بإخلاصى» لتعرفى أن الإخلاص له فى عالم الحب ميزان.

اسمعى ياليلى.. اسمعى.

سأزور الزمالك بعد أسبوع أو أسبوعين، فإن دار رأسك من حيث لا تحتسبين فاعرفى أن روحًا شفافًا يزور ذلك الحى الجميل/ ولن يكون ذلك الروح غير روحى المشرد الذى أشقاه الغرام بالملاح.

ستطوف بالدنيا قلوب وأرواح، ويبقى فى عالم الخلود قلبى وروحى.

لن يكون لك أثر فى الوجود إلا بفضل العاشق الذى تكوين فؤاده بنارك الحامية.

ستفنى محلة الزمالك، ويبقى ماقلت فى عروس الزمالك.

اصنعى ماشاء لك الغدر والجحود، ولكن تذكرى أن غضب الحب سيحل عليك، وسيذلك الهوى فتسألين عنى بعد حين.

أستغفر الحب :

فما أتمنى إلا أن تعيشى بخير وعافية، وأن تظلى ريحانة مطلولة تبسم للشروق والغروب، وتطالع الدنيا بالنضرة والنعيم.

أحبك ياليلى، أحبك ياغادرة، وأحب من أجلك جميع الملاح.

وسلام الحب على الجدائل المعطرة التى كانت ذكراها تؤنس وحشتى فى أيام الاغتراب، وسبحان من لو شاء لأرضانى وأرضاك عنى.

* * *

الرسالة الثانية

لم أكن أعرف، وليتنى ماعرفت!

لم أكن أعرف أنى قادم على سعير العذاب حين فكرت فى إغناء الأدب العربى بألوان من الصور الشعرية التى تصور عذاب الأرواح والقلوب.

لم أكن أعرف أنى سأضع قلبى بيدى فوق جمرات الصبابة ثم أنظر إليه وهويتنزى ويتوثب عساه يظفر بالخلاص، ولا خلاص!

لم أكن أعرف أنى سأجد ليلى فى طريقى، ليلى، ليلى التى عذبت روحى وأحرقت قلبى.

لم أكن أعرف أن الهيام بالعيون السود سيسوقنى إلى الهيام فى غيابات الليالى السود.

لم أكن أعرف أن الأقدار تدخر لى هذا النصيب الضخم من العناء والشقاء.

وهل يصدق أحد أنى صرت لا أعرف غير الحيرة والضلال فى يقظتى ومنامى؟

هل يصدق أحد أن الدنيا تحولت أمام عينى إلى منادح من الهول والعذاب؟

أين من يصدق أنى أقضى الأيام والليالى فى أحزان وكروب؟

وفى سبيل من؟

أحب أن أعرف فى سبيل من؟

فى سبيل المخلوقة التى تقيم فى الزمالك، عليها غضبة الحب!

لم أكن أعرف أن ليلى التى نقلت قلبها من مكان إلى مكان، وعلمتها كيف تناجى النجوم، وتصافح الأزاهير وتباغم البلابل، وتسامر الأحلام، وتراود

الأمانى، لم أكن أعرف أن هذه الإنسانة الظلوم ستسقينى أكواب العلقم بعد أن سقيتها أكواب الشهد.

إنك ياربى تعلم أنى لم أكن سيئ القصد فيما صنعت.

كنت أحب أن أقيم فى دنيا الشرف هيكلاً يعبد فيه الجمال.

كنت أحب أن تقوم دولة فى عالم الأدب العربى للقلوب والأحاسيس.

كنت أحب أن يشعر شبابنا بأن لغتهم لاتزال غنية وأن فيها كتابًا وشعراء يعرفون مواسم القلوب.

فكيف كان جزائى؟

كنت كالطبيب الذى يحمل المشرط ليداوى جرحاه فينقل إليه المشرط جراثيم الهلاك.

ليتنى أعرف كيف أصور بلائى بما أسلفت من جميل!

إن اللغات كلها تعجز عن وصف ما أعانى، وما أخطر ماأعانى!

وما خفقت أرواح النسيم ولا برقت لوامع النجوم، ولا هتف هاتف بالوجد فى صباح أو مساء، إلا حسبت ذلك لمحات من وميض قلبى.

أمن أجل ليلى أصير إلى ماصرت إليه؟

ومن أنت ياليلى؟ من أنت؟ أتملكين شيئًا غير عينين سوداوين، وخدين أسيلين، ومبسم يتلألأ بسحر البريق، وقوام يترنح وما سقوه الصهباء؟

ومن أنت ياليلى؟ من أنت؟

من أنت حتى تحولى دنياى إلى أمواج من الظلمات؟

تذكرى ماتملكين من شواهد الحسن التافه السخيف!

هل تملكين غير ذلك الدلال الذى يزلزل قلبى وعقلى؟

هل تملكين غير ذلك الصوت المتكسر الناعم الرقيق المقتول الذى يذل الأسود؟

هل تملكين غير ذلك الصدر المشرق الذى يغرق الناسك فى بحار الضلال؟

هل تملكى غير تلك الطلعة البهية التى تخجل الأقمار والأزاهير؟

ماذا عندك حتى أصير إلى ماصرت إليه من الجنون والفتون؟

ماذا عندك وماذا تملكين؟

***

أنا الذى خلقت بقلمى وخيالى كل ماوصفك به الواصفون من حسن وإشراق.

أنا الذى جعلتك ريحانه الدنيا، انس الوجود.

أنا صاحب الفضل على ليلى المريضة فى الزمالك وليلى المريضة فى العراق.

ولكن أين جزائى؟

أين جزاء العاشق المهجور الذى صار حظه أشد سوادًا من قطع الليل؟

كل حظى أن أتلقى خطابًا فيه خصلة من الشعر أتذكر بها سواد حظى فى غرامى.

كل حظى أن أصبح وأمسى مبلبل الخاطر، مقروح الكبد، مفطور القلب.

***

ولكن لابأس.

فقد أومن بأنى أواسى بحبى فتاةً لا تأنس بجمالها غوافل القلوب إلا كما تأنس العيون الرمد بضوء الشمس.

كنت أشعر أنى أخلق هذه الفتاة خلقًا جديدًا، وكنت أرى من الوطنية أن أشيد بمحاسنها ومفاتنها لتجد مكانها فى عالم الصباحة والجمال.

أما أنا فقد كان مصيرى فى هواها مصير من يعبد النار، وعابد النار يؤججها بيديه لتحرقه حين يداعبها وإن ترفق وتلطف!

وما أنكر أنى عرفت بفضل هذه الفتاة مالم أكن أعرف.

عرفت أن النبات الجميل قد يكون أمر من الصاب.

عرفت أن البحر لا يروى الظمآن لأن ماءه ملح أجاج.

عرفت أن الثقة بعهود المرأة تشبه الثقة بعهود الزمان.

وعرفت ما هو أعظم من كل أولئك :

كنت بالرستمية ذات مساء مع أعضاء «نادى القلم العراقى» ومضينا نستروح بسكون الليل حول نهر ديالة فراعنا أن تنبح الكلاب بنزق وطيش.

قال أحد الزملاء : ما أقبح نباح هؤلاء الكلاب!

فقلت : هذا النباح صورة من صور الجمال!

فقال : وكيف؟

فقلت : لأنه يكمل صورة الليل.

وكذلك تصنع المرأة الغادرة، فهى تكمل صورة الوجود.

آه من زمنى ومن دنياى!

* * *

ورجعت أسائل نفسى : ماذا غنمت من حب ليلى التى تقيم فى الزمالك؟

لقد ظفرت بمغانم كثيرة سأنتفع بها فيما بقى من حياتى.

والظاهر أنى لا أخلو من لؤم، لأنى أحب اللئام من الملاح.

وإنما كان الأمر كذلك لأنى قضيت أكثر من عشرين سنة فى الدراسات الفلسفية، فالمرأة الرقيقة القلب لا تؤنسنى إلا قليلاً، لأن عقلى أكبر من قلبى، وأنا أشتهى المرأة اللئيمة التى يكون غرامى بها فرصة لدراسة القلوب والنفوس والعقول.

أردت مرة أن أساهم فى نفقات البيت فقالت : أنت تريد أن تحتل بيتى.

وتلك نظرة دقيقة قد يغفل عنها السياسيون.

وهجمت عليها ذات مرة فدفعتنى بعنف وهى تقول : إن مظهر القوة يذكر الضعفاء بالذلة ويغريهم بالعصيان.

أشهد أن هذه اللئيمة على جانب عظيم من الذكاء، واللؤم باب من الذكاء.

أحبك يالئيمة حبا لئيما، ولايفل الحديد إلا الحديد.

* * *

آه من زمنى ومن دنياى!

أنا اليوم فى خلاف مع ليلاى.

هى تريد أن تنتصر فتنقلنى إلى الزمالك، وأنا أريد أن أنتصر فأنقلها إلى مصر الجديدة وطن الملائكة والشياطين.

إن آدم عليه السلام انتقل فى سبيل حواء من الجنة إلى الأرض، فلأنتقل فى سبيل ليلى من مصر الجديدة إلى الزمالك.

ويظن الناس أن آدم باء بالخسران حين انتقل من الجنة إلى الأرض فى سبيل حواء، وهم والله جاهلون، فلو بقى آدم فى الجنة لعاش أغلف القلب، خامد الإحساس.

إن نزول آدم إلى الأرض كان فرصة لمعرفة الشهوات والضغائن والأحقاد، والعلم مع الشقاء أفضل من الجهل مع النعيم.

سأرجع إليك ياليلاى، سأنتقل من مصر الجديدة إلى الزمالك فى سبيل البحث عن سرائر الروح الإنسانية.

وسترضين عنى ياشقية لأحترق فى كوثر الوصال.

ولكن ماهو الوصال.

هو أن تكشفى الحجاب عن قلبك الغادر لأرى مافى الوجود من حقائق وأباطيل.

أحبك ياليلى.

أحبك ياليلاى.

وأستبيح الشرك، فأحب معك الإنسانة النقية التى أمتعتنى بخطابين كريمين ولم تظفر بجواب.

لاتغارى من تلك الإنسانة، فبينى وبينها أهوال، ولن ترانى إلا فى عالم الخيال.

أيتها الإنسانة التى تخاطبنى فلا أجيب!

أنت كل شىء فى دنياى، ولو كرهت ليلى المريضة فى الزمالك.

وسأوقد نيران الغيرة فى صدور من هنا ومن هناك إلى أن يقضى الحب بما هو قاض، وأنا راض بحكمه وإن كان أظلم الحاكمين.

أكتب هذا وقد طلع الصبح، ولاتزال ظلمات الهجران تسيطر على قلبى.

* * *

الرسالة الثالثة

صديقى...

سألتنى أن أكتب كلمة عن ليلى المريضة فى الزمالك فأثرت فى صدرى لوعة محرقة كنت أرجو أن تصير بفضل الكتمان والتناسى إلى الخمود.

وماذا يهمنى من أمر تلك الإنسانة الظلوم؟

إن الدنيا كلها سخف، والحب كله بلاء فى بلاء، فلتمض تلك الذكريات إلى جحيم النسيان والجحود.

وقد تعلمت فى حياتى أشياء، وكان أثمن ماتعلمت هو اليأس من وفاء القلوب.

وأقسم بالله، والحب، ماخططت هذه العبارة إلا وأنا أقاوم طغيان المدامع، فمن الحسرة واللوعة أن أنفض يدى من العواطف بعد أن جعلت الكتابة فى العواطف مذهبًا أدبيًا له أنصار وأشياع فى سائر الأقطار العربية.

ولكن خيبتى فى الحب لها اسباب.

وآه ثم آه، من الاعتراف بالخيبة!

ليت ضلالى فى هواى كان دام حتى أخرج من دنياى وأنا موصول العطف على الملاح!

فإن سألت عن أسباب القطيعة بينى وبين ليلى المريضة فى الزمالك، فإنى احدثك بأن تلك الأسباب ترجع فى جملتها إلى شىء واحد هو العظمة الحقيقية التى فطر الله عليها قلبى.

ومعاذ الأدب أن أكون من المفتونين أو المخدوعين، فلى قلب ماعرف الناس مثل جوهره النفيس فى قديم أو حديث.

هو قلب فطر على الحب والعطف والوفاء.

وقد شاء هذا القلب أن يبسط حنانه على ليلى المريضة فى الزمالك.

فماذا صنعت تلك الحمقاء؟

* * *

لا تسأل كيف كنا إلى خريف سنة ١٩٣٧؟

كنا عاشقين.

وما أسعد العشاق!

كنا نعرف أطايب الخلوات على شواطئ النيل.

وما أسعد من يستصبحون بظلام الليل على شواطئ النيل!

كان قلب ليلى أصغر من قلبى.

ولكنها مع ذلك كانت تملأ قلبى، وهو قلب يرضى بالقليل فى بعض الأحيان.

وكنت أتلقى القليل من عطف ليلى بالحمد والثناء.

والذوق كل الذوق أن نفرح بالقليل من الملاح.

كانت ليلى تعد وتخلف، وكنت أرى إخلافها من الدلال.

وكنت أروضها بنفسى على الإخلاف، لأنى كنت أحب أن أخلق منها دمية روحانية أعاقر فى محياها كئوس النبل والصفاء.

وكان ما أردت وأراد الحب العذرى حينًا من الزمان.

أردنا مرة أن نؤلف رواية....

فهل ألفنا الرواية؟

ليتنا ألفنا الرواية!

آه من ليلى ومن زمانى!

* * *

ودامت دنيانا فى قبض وبسط، وبؤس ونعيم، إلى مساء اليوم الثامن عشر من الشهر التاسع سنة ١٩٣٧.

ففى ذلك المساء تفضلت ليلى فدعتنى إلى تناول العشاء لتمنحنى القبلة الموعودة قبل رحيلى إلى العراق.

وكانت لحظة من الحياة لن أنساها ماحييت وإن كدرتها ليلى بعد ذلك.

أحبك ياليلى. أحبك لتلك اللحظة التى بلبلت نجوم السماء.

أحبك ياليلى، وإن صيرت حياتى بؤسًا فى بؤس، وشقاً فى شقاء.

أحبك ياصغيرة القلب، وياضعيفة العقل، وياقليلة الوفاء.

أحبك يامثال النزق والطيش والجنون.

أحبك لتلك اللحظة القصيرة التى بددت أضواؤها ظلمات قلبى.

* * *

وفى اليوم التالى رحلت إلى بغداد وأطياف الزمالك تؤنس روحى.

ثم سمعت ليلاى فى الزمالك أنى تعرفت إلى ليلى المريضة فى العراق.

فماذا صنعت الحمقاء؟

أرادت أن تنتقم منى ففتحت أبواب قصرها للواغلين من أدعياء الأدب والبيان.

ولم تكتف بذلك، بل أعلنت غضبها على فى رسائل نشرتها فى مجلة الصباح..

وأسرفت الشقية فى الحمق فنشرت فى مجلة المصور أخبار سهرة تناول فيها السامرون عندها أكواب الصهباء.

وكانت الشقية تعلم أن ذلك سهم سيصيب صدر حبيبها فى العراق.

ولكنى تجلدت وتماسكت، وكتبت إليها فى رفق ولطف.

فأجابت الحمقاء :

«هل كنت تنتظر أن أضع يدي على خدى إلى أن ترجع من بغداد؟».

خبر أسود!

خبر أسود!

خبر أسود!

كذلك هتفت كما يهتف الفلاح المصرى حين ينزعج - وعبارات الفلاحين تسبق إلى لسانى حين يثور غضبى -.

إن ليلى المريضة بالزمالك لاتريد أن تضع يدها على خدها حتى أرجع من بغداد، وهى تعرف أنى هاجرت إلى العراق لغرض نبيل هو توثيق علائق المودة بين مصر والعراق.

وهل تفهم المرأة هذه المعانى؟

آمنت بالله، وكفرت بالحب!

* * *

أما بعد، فقد انتهى مابينى وبين ليلى المريضة فى الزمالك، وقد حرمت على نفسى رؤية الزمالك إلى أن أموت، فحدثونى يارفاقى عن أضواء الزمالك وأيام الزمالك وليالى الزمالك، حدثونى كيف يغنى الكروان فى الزمالك، حدثونى كيف تكون أشجار الزمالك فى الليل، حدثونى كيف يثب النيل ليقبل أقدام الزمالك، حدثونى كيف تصبر عنى ليلاى فى الزمالك، حدثونى كيف تصبر عنى ليلاى فى الزمالك، حدثونى كيف تغيب الشمس عن الزمالك، وكيف يطلع القمر على الزمالك، وكيف تثور عواصف الحب والبغض فى الزمالك؟

حدثونى، حدثونى، حدثونى.

انتهى حلم الحب، وانتهت أيام الزمالك، وانقضت ليالى الزمالك.

تلك الزمالك لم تكن إلا قطعة من وطنى، ولو شئت لقلت إنها قطعة من كبدى.

فى الزمالك تعلمت طب الأرواح والقلوب.

وبالزمالك شقت روحى ومرض قلبى.

فأين السبيل إلى الرجاء، بل أين السبيل إلى اليأس؟

أحبك ياغادة الزمالك، أحبك ياغادرة، وأعشق ضلالى فى هواك النبيل وهواك الأثيم.

ليلاى، ليلاى..

مازال روحى الظامئ، يحوم على وردك، فارحمى الطائر الذى يرفرف حول حماك فى السحر والضحى والأصيل، ويخفق بقلبه وجناحيه كلما لذعه الشوق إلى صهباء الرضاب.

أنا مشتاق إلى الكوثر الممنوع الذى كانت قطراته تسكر روحى وتعقر فؤادى.أنا مشتاق إلى النار التى كوت كبدى، فمتى أواجه تلك النار العصوف؟سأقبل قدميك حين أراك ياشقية، ولكن متى أراك؟ متى أراك؟

أفى الحق أننا تخاصمنا إلى آخر الزمان؟

أفى الحق أن عربدة الهوى لن تعود؟

لقد شمت فينا الشامتون، فمتى يندحر الشامتون؟

إننى واثق بطهارة قلبك ياشقية، ولولا ذلك لأصليتك نار العقوق.

فحدثينى متى ترجعين إلىّ؟ متى ترجعين؟ متى ترجعين؟

* * *

ليلى، ليلاى التى خرجت من حماها كما خرج آدم من الفردوس أجيبى.

مضت أعوام وأنا أتلقى منك تحية رمضان، فأين تحية رمضان؟

إن الناس يذكرون موتاهم فى هذه الأيام يامعبودتى، وأنا قتيل الهوى، فمن يذكرنى إذا صدفت عنى؟

لاتؤاخذينى بما جنيت فى حب ليلى المريضة فى العراق، فما كانت ليلاى هناك إلا صورة من صور الطهر والنبل والعفاف.

أحب ليلاى فى العراق، وإن تأذيت بذلك، فاصنعى ماتشائين.

أيتها الحمقاء فى الزمالك!

لا أحب أن أراك إلا يوم تعرفين أنى صاحب الفضل على جميع الملاح، فلولا قلمى، ولولا بيانى لصارت الصبابة ألعوبة من الألاعيب.

انتظر أن تكون دنيا الصباحة والملاحة طوع يدى.

فإن لم تفعلى - وستفعلين - فودعى دنيا الرفق والحنان.

ليلى، ليلاى.

إلى صدرى ياعروس الزمالك.

إلى صدرى ياجارة النيل.

إلى صدر العاشق الوفى الأمين.

* * *

ليلي المريضة فى الزمالك

يعود «زكى مبارك» فيتحدث مرة ثانية عن «ليلى المريضة فى الزمالك».. فقد جاء العيد، بل انقضت أيام العيد وبقى العيد وبقى قلب «زكى مبارك» بلا عيد...

على صفحات مجلة «الرسالة» بتاريخ ١٩٣٨/١٢/١٥ يتذكر «زكى مبارك» ليلاه فى الزمالك حين يتحدث عن القاهرة فى العيد، ففى ختام مقالته يهتف :

أيتها القاهرة..

ماذا تظهرين، وماذا تضمرين؟؟

اكشفى القناع قبل أن يمزقه القلم أقبح تمزيق...

مضت ليلة العيد وجاء يوم العيد..

الدنيا تموج بالمحاسن والمفاتن فى كل أرجاء القاهرة، وكل مكان فى القاهرة مباح إلا الحدائق..

ولماذا؟ لأن الانتفاع بحدائق القاهرة مقصور على أطفال الملاجئ فى يوم العيد.. الحمد لله.

لايزال فى القاهرة مجال للطيبات.

أما بعد فقد انقضت أيام العيد، وبقيت ياقلبى بلا عيد..

أين أيامك ياقلبى، وأين لياليك؟؟

وماحظك من هذه المدينة التى تموج بالسحر والفتون؟؟

أكل حظك أن يطوف بك العقل حول هذه الأشواك؟؟

ليت عهدك بالغواية كان طال، وليت الأقدار رحمتك من ثورة العقل فى هذه الأيام..

كتب عليك ياقلبى أن تعيش بين أدغال المدينة، حيث لايحنو قلب على قلب، ولا يأنس روح بروح، ولا تأتلف نفس مع نفس بروابط وثيقة من أصول المنافع، آه وآه ثم آه من عصف المنافع بأهواء القلوب..

أترانى غدرت بك أيها القلب؟؟ احذر أن يمر هذا فى ذهنك.. فما كنت إلا أكرم صاحب وأشرف صديق..

هل غدرت بأحد حتى أغدر بك؟؟ لقد طوفت بالمهالك والمعاطب لأروى ظمأك المشبوب.

ولأريك مطالع الأهل فى القاهرة، والإسكندرية، وباريس وبغداد..

ومازلت أتلطف بك ياقلبى، وهل صادقت من صادقت من كبار الكتاب والشعراء إلا لأزف إلى حماك كرائم المعانى؟؟

ولكنك - مع فضلى عليك - تلقانى باللؤم فى بعض الأحيان.

وإلا فما هى حجتك فى الهيام بعروس الزمالك؟؟

عرفت حجتك ياقلبى، وأنت تريد أن تصدنى عن الحتف الذى ينتظرنى فى البلد الذى أعرف وتعرف.

أنت تريد أن تصدنى عن الحبيبة الوفية التى ترسل بعض حبائلها المعطرة فى كل خطاب ولم تظفر منى بجواب. شكرا لله على فضلها الجميل وعفا عنها، عرفت حجتك ياقلبى، فأنت تريد أن تقول :

ويحب نسوان من الجهل أننى

إذا جئت إياهن كنت أريد

فأقسم طرفى بينهن سوية

وفى الصدر بينهن بعيد

أتريد أن تقول هذا؟ وكيف وأنا أحب معك عروس الزمالك؟؟

أحبها من أجلك ياقلبى؟ وأحبها لأنها سمية الاسم الذى تعرف وأعرف.. أحب التى هنا والتى هناك.. وأطلع كما يطلع القمر بكل سماء، وأهيم هيام النسيم بجميع الحدائق والبساتين.

ولكن متى تجيب صاحبة الجدائل المعطرة ياقلبى؟؟

حدثنى متى تجيب، فقد يحملها اليأس على الصدود..

أيها الجمال..

تحدث ولاتقل غير الحق..

هل عرفت قلبًا أشرف من قلبى. وضميرًا أطهر من ضميرى؟؟

وأنت أيها الليل...

هل عرف المحبون من أسرارك ماعرفت؟

هل استصبحوا بظلامك كما استصحبت؟؟؟

١٩٣٨/١٢/١٥

من هى ليلى المريضة فى الزمالك؟

بقلم : كريمة زكى مبارك

قبل أن نجيب على هذا السؤال يستحسن أن يعرف القراء كيف كان يعيش زكى مبارك فى منزله... وكيف كانت الصلة التى تربط بينه وبين زوجته.. وكيف كانت علاقة زكى مبارك بزوجته التركية الريفية؟

جد أمى كان تركيًا اسمه عثمان وقد أتى إلى مصر واستوطن سنتريس منوفية وتزوج ابنه أحمد من عائلة مبارك فأنجب بين من أنجب فتاة سموها «تورك» وهى التى تزوجها «زكى مبارك» فيما بعد.

وكانت أمى ضنينة فى عواطفها وتحب السيطرة.. وكانت تصرفاتها فيها بعض القسوة.

عاشت أمى سنوات طويلة فى سنتريس فى حين كان أبى يقيم فى القاهرة يدرس فى الأزهر الشريف... وكانت أمى بعد أن يسافر أبى تبقى فى الدار تخدم أبناءها وأهل زوجها كما هو متبع فى الريف.

حين انتهى زكى مبارك من دراسته وعمل مدرسًا فى القاهرة كان أول شىء نفذه أن أجر فيلا فى مصر الجديدة من دروين وصحب أمى وإخوتى إلى القاهرة ويومها كنت لم أولد بعد.

من هنا نلاحظ أن زكى مبارك حدد العلاقة بينه وبين زوجته من أول يوم صحب فيه أسرته إلى القاهرة.. أو إلى عالمه الخاص.. أو برجه العاجى.. فماذا كان موقف زوجته من هذه العلاقة؟

لم تعترض أمى أبدا على ذلك فقد اعتادت من قبل ألا ترى أبى إلا فى الأجازات، كما أنها اعتادت ورضيت أن تعيش فى بلد وهو فى بلد آخر.. أضف إلى ذلك أن أمى التركية الريفية كانت مطيعة جداً لأبى، ورغم أنها وكما قلت كانت تحب السيطرة إلا أنها إزاء أبى كانت تحب سيطرته هو عليها... كان سيدها، وكان يسعدها أن يكون الآمر الناهى وهى الملبية لكل طلباته.

كان فى الفيلا «جرس» هو همزة الوصل بين الطابقين، أى بيننا وبين أبى... فكان أبى إذا رن الجرس مرة واحدة فمعنى ذلك أن أمى هى المطلوبة فتصعد إليه أمى لتلبى طلباته ثم تعود.. وإذا رن أبى الجرس مرتين كان أخى الأكبر هو المطلوب وعلى هذا كنت أنا أحمل رقم (٥) فى بيتنا... وكنا إذا رن الجرس نعد عدد الرنات لنعرف من المطلوب.

وبعد :

لم تكن أمى تستطيع أبداً أن تقطع على أبى خلوته وتصعد إليه فى الدور الثانى إلا إذا طلبها، وكان ذلك كما قلت برنين الجرس.

والآن أعود من حيث بدأت.. أعود لأتساءل من هى ليلى المريضة فى الزمالك؟ لقد ظن البعض أنها ممثلة المسرح الفنانة زوزو حمدى الحكيم.

والشاعر صالح جودت نشر هذا.. بل زاد فذكر أنها كانت حبيبة الشاعر إبراهيم ناجى أيضا وليس زكى مبارك فحسب...

وقد سألت الأديبة الكبيرة القديرة الشاعرة الفنانة الأستاذة جليلة رضا قبل رحيلها إن كانت زوزو حمدى الحكيم حبيبة الشاعر إبراهيم ناجى فأجابت بالنفى، وذكرت لى اسم حبيبة الشاعر إبراهيم ناجى، وكانت من بلد عربى آخر غير مصر.

وعلى هذا فإن ليلى المريضة فى الزمالك ماهى إلا شخصية اختلقها زكى مبارك، كما اختلق شخصية ليلى المريضة فى العراق وغيرها من الليليات ليقول مايريد أن يقول بعيداً عن المساءلة.

ولكن هل كانت هناك صلة ربطت فى يوم من الأيام بين زكى مبارك وبين ممثلة المسرح الفنانة زوزو حمدى الحكيم؟

نعم كانت هناك صلة بل صلات، فالفنانة من بلدتنا أى من سنتريس منوفية، ثم إنها على صلة قرابة بعائلة أمى عن طريق المصاهرة، وكنت أحب زوزو حمدى الحكيم بل إن أى إنسان يسمعها وهى تقرأ الشعر لابد أن يحبها وإن كانت أمى لم تحبها فى يوم من الأيام.

أذكر مرة زارتنا فيها الفنانة زوزو حمدى الحكيم أولا لأنها قريبة أمى كما قلت، فقد كان خالى الأستاذ زاهر أحمد عثمان قد تزوج شقيقتها، واسم زوزو هو زينب حامد الحكيم ولكن اقتضى الأمر أن يكون اسم الشهرة أى اسمها الفنى زوزو حمدى الحكيم، وثانيا لأنها كانت تتصل بأبى فى التليفون ليكتب عنها كممثلة قديرة ولأنه كاتب كبير حتى تزداد شهرتها.

وأذكر أننى يومها رأيت أمى مشغولة بترتيب الطابق الأول الذى كنا نقيم فيه أنا وأمى وإخوتى... وكانت أمى أثناء انشغالها بالترتيب تبدو ضائقة على غير عادتها، ولما سألتها عن السبب أجابت باقتضاب : أخت مرات خالك ستزورنا الآن.

وبلا فهم لكل مافى نفسية أمى قلت بفرحة : ياه.. الفنانة الكبيرة الـ.... وقبل أن أكمل كلامى نهرتنى أمى على هذه الفرحة قائلة: وهل يشرف أى أسرة أن تزورها هذه السيدة؟ إنها خارجة على التقاليد... و... و...

وعدت بذاكرتى لبلدتنا الجميلة سنتريس منوفية... وتذكرت التقاليد الصارمة... مجرد خروج أى فتاة من بيتها للزيارة أوحتى لقضاء أى عمل يعد فى نظرهم جريمة طالما تخطت الفتاة سن العاشرة.... فما بالنا بخروج إحدى الفتيات للعمل، وأى عمل؟ التمثيل!

تذكرت كل هذا عندما نهرتنى أمى على فرحتى للزيارة المرتقبة للفنانة الكبيرة... وأفقت من تخيلاتى عندما رن جرس الباب، وفتحت أمى الباب وسلمت على الفنانة سلام مجاملة.... ثم أوصلتها إلى الطابق الثانى حيث كان زكى مبارك

فى انتظارها وتركتها مع أبى وأغلقت باب الشقة وعادت أمى وهى صامتة تعد لها الشاى وهى حزينة... وأثار فضولى هذا الموقف والحزن المرتسم على وجه أمى، فاتجهت إلى الدور الثانى على أطراف أصابعى، ولما كان الباب مغلقًا فقد نظرت من ثقب الباب.. فماذا رأيت؟

كان كل منهما يجلس بعيدًا عن الآخر والحديث يدور بينهما بصوت مرتفع.

كانت المناقشة تدور حول مايكتبه زكى مبارك عن الفنانة الكبيرة فى الجرائد والمجلات وعن رقة تمثيلها وحلاوة صوتها... وجاءت أمى فنهرتنى فانصرفت... ودخلت أمى ووضعت صينية الشاى أمامهما وعادت إلينا بعد أن أغلقت الباب.

بعد لحظات سمعنا باب الشقة العليا يفتح وأبى يصافح الفنانة الكبيرة وينادى على أمى لتوصيلها للباب الخارجى.

كان زكى مبارك يرتدى فى البيت دائمًا جلبابًا طويلاً ويضع على رأسة طاقية لايخلعها إلا بعد أن يرتدى ملابس الخروج ليستبدلها بالطربوش... ولهذا فإن الفنانة الكبيرة زوزو حمدى الحكيم بعد أن زارتنا فى بيتنا أدلت بحديث لمجلة الاثنين قالت فيه ما معناه أنها أصيبت بخيبة أمل عند رؤيتها لزكى مبارك الأديب والشاعر، وأن شكله فى البيت لم يعجبها.

والآن أضع النقط فوق الحروف لأقول لا الممثلة زوزو حمدى الحكيم أحبت زكى مبارك، ولا زكى مبارك أحبها.... ومن هنا نرى أن ماكتبه زكى مبارك تحت عنوان : «ليلى المريضة فى الزمالك» لايمت بصلة من قريب أو حتى من بعيد إلى الفنانة زوزو حمدى الحكيم كما تصور البعض.

كريمة زكى مبارك

المرأة فى وجدان زكى مبارك

بقلم: كريمة زكى مبارك

والآن كيف كان «زكى مبارك» يتخيل المرأة؟

على صفحات جريدة «البلاغ» وبتاريخ ١٩٤٨/٣/٢٢. نشر «زكى مبارك» تمثيلية تُصور البحترى فى غرامه الأول.

فى التمثيلية أدار «زكى مبارك» الحوار بين «البحترى» وبين «زياد» محبوبة «البحترى» واسمها «علوة»..

نشر «زكى مبارك» وصفًا لمحبوبة «البحترى» «عُلوة» شعرًا ونثرًا. الشعر طبعًا نظم الشاعر الكبير «البحترى».. أما النثر فقد تخلل مقاطع الشعر وكان بقلم «زكى مبارك».

أنقل فقط نثر «زكى مبارك» الذى وصف به علوة كما تصورها. وبمعنى أصح وصف «زكى مبارك» للمرأة كما تخيلها «زكى مبارك».

ومن هذا الوصف الذى ذكره «زكى مبارك» للمرأة. يمكننا أن نتصور كيف كان «زكى مبارك» يرى المرأة. وكيف عاشت المرأة فى وجدان «زكى مبارك».

يقول «زكى مبارك» فى وصفه النثرى لـ «علوة» محبوبة «البحترى»: وبمعنى آخر يصف «زكى مبارك» الأنثى فيقول:

ـ ماطلعت الشمس على فتاة أنضر منها وجهًا. وأشرق منها جبينًا. وأصح منها رأيًا. وأعرف منها بغزو القلوب.

ـ لو رأيتها. يازياد. لعبدتها كما تعبد العين أنوار الصباح. وكما أعبد ألحانى فى أشعارى. إن النور يتوهج فى خديها وشفتيها توهجًا يوحى بالجنون. وحين أضع يدى فى يدها أشعر بأن يدها صيغت من الكهرباء.

ـ أما عيون علوة يازياد فهى سحر فى سحر. وضلال فى ضلال. إنها عيون كحيلة على جفونها أهداب لا يستطيع وصف جمالها أقدم الشعراء. ومن أعجب ما رأيت أن هذه العيون تتكلم وهى صوامت. فأعرف ماتريد فى حين وأجهل ما تريد فى أحايين. وإذا تلاقينا صوبت نظرى إلى عينيها الحلوتين. فأشعر بأننى أشرب أكواب الرحيق. ثم أسلم نفسى إلى الأحلام وأنسى الزمان. وأنسى المكان وأتصور أننى فى الفردوس.

ـ أما شعر علوة، يا زياد. فهو سبائك ذهبية، مع أنها كحيلة العينين، وكان المعروف أن الشعر الأسود هو الذى يتناسب مع العيون السود، وإذن يكون فى علوة شذوذ فى خلقتها الجسدية، وبذلك صارت أقدر النساء على سبى القلوب.

ـ أما جبينها، يا زياد، فهو نور القمر حين ينجاب عنه السحاب وما نظرت إلى جبينها إلا خشيت أن يزيغ بصرى، كما يخاف على عينيه من يواجه ضوء الشمس.

ـ أما خدها، يازياد، فجمر يتوهج وما قبلتها إلا خفت من الاحتراق، وشفتاها كذلك. أما ثناياها فهى اللؤلؤ المنضود وهى حين تبتسم أرى الحب فوق تلك الثنايا البيضاء فأكاد أجعل شرابى من ذلك الرضاب.

ـ حين أرى صدر علوة والنور يتموج فيه كما تتموج الآمال فى فؤادى أشعر بأننى ملكت أقطار الوجود.

ـ عبقرية اللون لا يراها الرائى إلا إن رأى صدر علوة وهو يصور ما يختلج فى صدرها من الأحاسيس، إنها تعبر بالألوان، وهذا أغرب ما رأته العيون.

وصوت علوة، يا زياد، أعجوبة الأعاجيب، ففى حلقها بلبل يغرد وينتقل من فن إلى أفنان، أضمها إلى صدرى بعنف لتقول: آه، آه، آه!!!

ـ والمهم كله هو أن أسمع الهمزة فى ذلك، وفى بعض القراءات إن الله يزيد فى الحلق ما يشاء.

أما جسمها فقل فيه ماشئت، قوام منسرح يغار منه الغصن الرطيب وتقاسيم فنية كالتقاسيم وما رأيتها يومًا وهى عارية، فقد خشيت أن يضيع صوابى.

ـ أنا أحب كما يحب الكريم الشرف. وكما يحب الشاعر شعره وأبكى لفراقها كما يبكى الفارس على شبابه الذى طوته الأيام والليالى. وأشعر بالآلام تثقل ظهرى وكأنها ديون يعجز عن حملها الرجل الذى قضى عمره وهو يدين ولا يدان. والأيام يا زياد أشواك فى حلوق الرجال، كانت سمكة علقت أشواكها بحلقى، وقد أردت الخلاص منها فلم أستطع، برغم ما بذلت من الجهود للخلاص.

حاولت أن أغرق فأموت وأستريح، ولكننى تذكرت أنه يجب أن أعيش لأقول فى علوة أشعارًا تضفى عليها أثواب الخلود.

ـ أنا لا أحب أن يلطف الله بى، وإنما أحب أن يزيدنى فى هواها عذابًا فى عذاب، وأننى سقيتها أكواب حبى وإننى شربت من عينيها كئوس الغرام، كيف أنسى تلك الليالى، يازياد لو دخلت الجنة ورأيت الآلاف من الحور العين ولم تكن فيهن علوة لرأيت الجنة جحيمًا فى جحيم.

إن علوة يازياد جعلتنى أنفرد بفن من الشعر وهو الحديث عن طيف الخيال، فقد كان الشاعر يقول فيه البيت والبيتين، ولكن طيف خيال علوة يزورنى فى الكرى كل ليلة ـ فأكثرت من الحديث عن طيف الخيال.

ويصف «زكى مبارك» أيضا المرأة، فيقول فيما يقول فى موضع آخر:

ماذا أقول فى عيون لو نظرت إلى ميت لعادت إليه الحياة؟

ماذا أقول فى ثغر رضا به أشد فتكًا من الخمر؟

ولا موجب للحديث عن الورد فى الخد فهذا حديث يطول.

ويرى «زكى مبارك» أهمية تربية العواطف، فيقول:

العواطف تحتاج إلى تربية كما يحتاج الأطفال، ويجب إذكاؤها بالذكريات.

كان لى فى باريس صديق آنس به وأفرح بلقياه، وأقضى معه أكثر السهرات.. وكانت أخته تسهر معنا فترسل إلى قلبى معانى جديدة.. وقضت المقادير بأن أسافر إلى «روان» وأعطيت الصديقين عنوانى، فجاء خطاب من الفتاة تقول فيه ما ترجمته بالحروف:

«إنى أشعر أن الحياة بدون رؤيتك أحجار أثقلها البرد».

وقد فهمت ما تريد الفتاة أن تقول فاسمى «ذكى» بالذال.

اظننى قد رأيتك ... وبالعناق قتلتك
فى الحسن أنت كتاب ... قراته فدرستك
فى كل يوم لقاء ... والوقت فى الحسن وقتك
يا زهرة من جمال ... إنى بحبى قطفتك
الذنب ذنبى لأنى ... أثمت حين عشقتك
ولو اطاع فؤادى ... لكنت قهراً هجرتك
فى كل لحظ جديد ... إنى بروحى لحظتك
هل تفهم الشعر قل لى ... يا ظبى إنى فهمتك
بالحسن تسحر روحى ... بالشعر سحراً سحرتك
يا غافلاً عن هيامى ... إنى برفق ضممتك
لا تنس ما كان منى ... يوماً، وفى الفجر زرتك
والبدر فى الفجر صاح ... والقلب نشوان قلبك
لا تسأل الناس عنى ... إلى صباك شكوتك

* * *

إن شعرى يصور العصر الذى أعيش فيه، فالتليفون اسمه فى لغتى «الهتَّاف» وفيه أقول لمحبوبتى:

تحدثت بالهتَّاف إنك حاضر ... لإيناس روحى بعد خمس دقائق

* * *

ثم نقرأ هذا القصيد:

الـلـيـالى رايـتـهـا وهى تـمـضى	فى زمــان بمن احب بــخــيل
أرى بـالخـيـال أنى سـعـيد	بـعذاب المـتـيَم المـتبـول
لحـظـات الآمـال تـؤنس روحى	وقـلـيل الآمـال غـيـر قـلـيل
إن بـخل الجـمـال بـالـقـرب منى	هـو بـخل أراه غـيـر جـمـيل
يـخـلق الـلـه كل يـوم حـبـيـبـا	مـنـعـمًـا مـكـرمًـا بـألف عـزول
افـتـضـحـنـا بـالحب حـتى غـدونـا	مـضـغـة فى لـسـان كل جـهـول
إن وجـهًـا أحـبـه لخـلـيق	بـهـيـامى بـكل قـال وقـيل
يـا نـسـيم الـصـبـا وأنت رسـول	كن إلى الـهـاجـر الجـمـيل رسـولى

والآن... الآن كلمة لابد منها:

الآن ربما آن الآوان كى نوضح ما أثير حول ما قيل من أن «زكى مبارك» قد هاجم المرأة خاصة فى هذا الكتاب الذى يحمل كل هذا الحب بقلم «زكى مبارك».

الكاتب الأستاذ/ أنور الجندى فى كتابه بعنوان «زكى مبارك» والذى صدر عن الدار القومية للطباعة والنشر وفى العدد ٣٥ من سلسلة «مذاهب وشخصيات» نقل بعض الجمل المتفرقة من هنا وهناك والتى توحى للقارئ أن «زكى مبارك» قد هاجم المرأة هجومًا عنيفًا. نقلها بطريقة «لا تقربوا الصلاة».. ولم يكمل.

وللأسف فإن كثيرين ممن كتبوا عن «زكى مبارك» بعد ذلك نقلوا عن أنور الجندى سواء منهم من عاصر «زكى مبارك» أو حتى الذى لم ير «زكى مبارك»!

عزيزى القارئ

إن الأمانة العلمية تحتم على الكاتب أو الناقد إذا أراد نقل مقتطفات لأى أديب ألا ينقل مقتطفات مبتورة بحيث يستطيع هو أن يبرهن ويدلل عنه؛ لأنه نقل بعض السطور المتفرقة من هنا وهناك، وربما من مقالات مختلفة.. وبذلك يكون قد نقلها بطريقة: «لا تقربوا الصلاة» بدون أن يوضح أصل الكلام.

إننا فقط نتساءل.. هل هذه أمانة علمية؟

* * *

كان لى فى باريس صديق آنس به وأفرح بلقياه، وأقضى معه أكثر السهرات.. وكانت أخته تسهر معنا فترسل إلى قلبى معانى جديدة.. وقضت المقادير بأن أسافر إلى «روان» وأعطيت الصديقين عنوانى، فجاء خطاب من الفتاة تقول فيه ما ترجمته بالحروف:

«إنى أشعر أن الحياة بدون رؤيتك أحجار أثقلها البرد».

وقد فهمت ما تريد الفتاة أن تقول فاسمى «ذكى» بالذال.

اظـنـنـى قـد رأيـتـك	وبـالـعـنـاق قـتـلـتـك
فـى الحـسـن أنت كـتـاب	قـرأتـه فـدرسـتـك
فـى كل يـوم لـقـاء	والـوقت فـى الحـسـن وقـتـك
يـا زهـرة من جـمـال	إنـى بـحـبـى قـطـفـتـك
الـذنب ذنـبـى لأنـى	أثـمـت حـيـن عـشـقـتـك
ولـو أطـاع فـؤادى	لـكـنـت قـهـراً هـجـرتـك
فـى كـل لحـظ جـديـد	إنـى بـروحـى لحـظـتـك
هل تـفـهـم الـشـعـر قل لى	يـا ظـبـى إنـى فـهـمـتـك
بـالحـسـن تـسـحـر روحـى	بـالـشـعـر سـحـراً سـحـرتـك
يـا غـافـلاً عن هـيـامـى	إنـى بـرفـق ضـمـمـتـك
لا تـنـس مـا كـان مـنـى	يـومـاً، وفـى الـفـجـر زرتـك
والـبـدر فـى الـفـجـر صـاح	والـقـلـب نـشـوان قـلـبـك
لا تـسـأل الـنـاس عـنـى	إلـى صـبـاك شـكـوتـك

* * *

إن شعرى يصور العصر الذى أعيش فيه، فالتليفون اسمه فى لغتى «الهتّاف» وفيه أقول لمحبوبتى:

تحـدثـت بـالـهـتّـاف إنك حـاضـر
لإيـنـاس روحى بـعـد خـمـس دقـائق

* * *

ورد «زكى مبارك» على الأديبة عاتكة الخزرجى فنشر على صفحات جريدة «البلاغ».. فلماذا أغفله من كتب عن رأى «زكى مبارك» فى المرأة؟

عزيزى القارئ:

وقد عد البعض قول «زكى مبارك» «إن الرجل لن يذوق طعم السعادة. أو الشرف، إلا إذا كان السيد الأول والأخير فى البيت».. عدوا قوله هذا هجومًا على المرأة.

ولكن ما رأيهم فى أن المرأة. المرأة الحق. المرأة نفسها تحب أن يكون الرجل رجلاً وأن يكون السيد الأول والأخير فى البيت.

ولنختتم هذا الموضوع بقول «زكى مبارك» على صفحات كتابه: «ليلى المريضة فى العراق» صفحة ١٥٩ ـ مكتبة بالفجالة:

ما أقول الرجل أشرف من المرأة من حيث الجنس، فلكل جنس خصائصه.. وإنما أريد أن أقرر أن شرف الرجل فى الرجولة. وشرف المرأة فى الأنوثة. فالمرأة تجرم حين تلبس ثوب الرجل. والرجل يجرم حين يلبس ثوب المرأة. والإشارة فى هذا الموضوع الدقيق تكفى للبيان.

وقال بعض الكتاب:

إن «زكى مبارك» أحس بالمرارة فى أواخر حياته حين تعرض للهجر والغدر من محبوباته..

والحقيقة والتى يجب أن تقال هى أن «زكى مبارك» لم يحب فى حياته إلا مرة واحدة فقط هى فتحية فتاة سنتريس.

لقد عاش «زكى مبارك» وحيداً. فرغم كتاباته عن الحب. ورغم كل الأسماء التى تحدث عنها كظمياء ولمياء وسعدية وصفية وسعاد وليلى المريضة فى الزمالك، وليلى المريضة فى العراق، فإن «زكى مبارك» عاش وحيدا بعد أن رحلت محبوبته والتى كتب عنها يقول فى أول ديوان صدر له سنة ١٩٣٣ وهو ديوان «زكى مبارك»:

إلى تلك الفتاة التى خفق لها القلب أول خفقة. والتى قلت فيها أول قصيدة وسكبت عليها أول دمعة. إلى تلك الفتاة المنسية التى تنام فى قبر مجهول تحت سماء سنتريس.

إلى بقاياك فى التراب يا فاتحة الأمانى وخاتمة الآمال

يا كل ما كنت أملك فى مطلع الصبا وفجر الشباب.. أقدّم هذا الديوان:

واقسم ما قدمت إلا اضالعى
يمزقها حزنى وينثرها وجدى

فلا تحسبينى بعد أن خانك البلى
تخونت ما بينى وبينك من عهد

***

ولكن الشاعر «صالح جودت» يكتب فى مقدمته لكتاب «صفحات مجهولة من حياة زكى مبارك» للكاتب محمد محمود رضوان. والذى صدر فى كتاب الهلال سنة ١٩٧٤ فيقول:

إن «زكى مبارك» كانت ليلاه نجمة من نجوم المسرح. شده إليها أكثر من عامل أولها أنها بنت بلدته سنتريس، وأنها مثقفة، ذكية، وقارئة للشعر.

ومما قاله أيضًا الشاعر «صالح جودت»:

عرفت «زكى مبارك» فى وقت مبكر فى مطلع عام ١٩٣٢ عن طريق «جمعية أبوللو» التى أقامها يومئذ «أحمد زكى أبو شادى» لرفع شأن الشعر ونشر حركة التجديد فيه/ وقد جعل على رأسها أمير الشعراء «أحمد شوقى» وحشد حولها أعلام الشعر والنقد فى ذلك العام وفى طليعتهم الدكتور «زكى مبارك»، كما حشد من حول هؤلاء الشباب المأمولين وكان منهم: على محمو د طه، إبراهيم ناجى، محمد الهمشرى، مختار الوكيل، وصاحب هذه السطور.

وازدادت معرفتى ب «زكى مبارك» عن طريق صديق لنا مشترك هو المرحوم الأستاذ مصطفى القشاشى. صاحب مجلة «الصباح» وكنت يومئذ بكلية التجارة

وكنت أكتب بمجلة «الصباح» وكان لكل من أصدقاء صاحب مجلة «الصباح» فى ذلك الوقت صفحة أسبوعية، وكان فى مقدمتهم الدكتور «زكى مبارك» والدكتور «سعيد عبده - صاحب المقالات الطبية المعروفة «خدعوك فقالوا» وكنا فى أماسينا نصحب صاحب مجلة «الصباح» فى سهراته العامرة فى المسارح والملاهى أو فى بيته حيث كان يجتمع مع نجوم الفن وأعلام الصحافة. فنسهر نتحدث ونستوحى حتى مطلع الفجر فى أكثر أيام الأسبوع.

إذن فالشاعر صالح جودت استشف من أحاديث «زكى مبارك» فى هذه السهرات أن حب «زكى مبارك» الكبير كان لفتاة سنتريس. وبما أن اسم الفنانة الكبيرة نجمة المسرح(ز) كان يرد على لسان «زكى مبارك» فقد ربط صالح جودت بين حب «زكى مبارك» لفتاة من سنتريس وبين نجمة المسرح لأنها أيضا من سنتريس منوفية.

لكن حب «زكى مبارك» لم يكن لنجمة المسرح، صحيح أنها من سنتريس. وكانت هناك لقاءات بينهما ولكن السبب كان لأنها ابنة بلدته. وهى أخت زوجة الأستاذ «زاهر» - رحمة الله عليه. وكانت تقابله ليكتب عنها لشهرته. وكان هو يرتاح لقراءتها للشعر.

أما حب «زكى مبارك» فقد كان لفتحية ابنة سنتريس.. والقصة يعلمها شيوخ سنتريس. وما كان «زكى مبارك» يستطيع أن تكون هذه القصة بما يحكى فى سهرات الأصدقاء، فأبناء الريف لهم مثل وأخلاقيات لا يعرفها إلا القليل.

ما كان «زكى مبارك» يستطيع أبداً أن يحكى شيئًا عن فتاة أحبها وأحبته وتزوجت غيره. وبعد سنوات قصار من زواجها توفيت.. ولعلها سئمت حياتها بعد الزواج بدون حب فمرضت وماتت.

وهذا ما دفع «زكى مبارك» إلى الشعور بالذنب؛ لأنه تركها تتزوج من غيره، ولكن فى الواقع فقد كانت عائلته وعائلة فتحية فى شجار مستمر. ولذا فقد كانت هناك استحالة فى زواجهما مهما فعل «زكى مبارك».. ومع ذلك لم يستطع أن يرى أى أنثى إلا من خلال وجهها الصبوح.. لهذا عاشت فتحية فى قلب «زكى

مبارك» وضميره ووجدانه فلم ينسها فى يوم من الأيام وحتى آخر أيام حياته.. وهذا الرأى نشرته على صفحات مجلة «الثقافة» التى كان يرأسها الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدسوقى فى التعليق على كتاب محمد محمود رضوان «صفحات مجهولة من حياة زكى مبارك» وذلك ردًا على كلمة الشاعر «صالح جودت» ولم يعلق الشاعر صالح جودت يومها على كلمتى تلك.

حتى الكاتب «محمد رضوان» عندما أصدر أحدث كتاب له عن «زكى مبارك» سنة ٢٠٠٤ بعنوان: «عبقرى من سنتريس زكى مبارك» أغفل كلمتى رغم أنه نشر مقدمة الشاعر «صالح جودت» كاملة، ولو أنه ذكرها لكان قد تغير الكثير مما ذكره فى كتابه الجديد.

ولنقرأ رأيا محايدًا وصادقًا لأديب كبير:

يقول الأديب العربى الكويتى «فاضل خلف» على صفحات كتابه «زكى مبارك بين رياض الأدب والفن» والذى صدر سنة ١٩٥٧ عن مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز بالقاهرة. يقول على صفحة ١٤١:

«أما فتاة الأحلام فهى تلك الفتاة التى خفق لها القلب أول خفقة. تلك الفتاة الريفية التى أحبها ولم ينعم بالسعادة معها. تلك الفتاة السنتريسية التى غيبها الثرى. فتحطمت آماله فى الحب. وانهارت أحلامه فى السعادة. لقد غابت عن الدنيا، لكن طيفها لم يغب عنه. لقد كان دائما يحن إليها وينظم فيها القصائد. وينشئ فيها الرسائل حتى توفاه الله.

لقد كان يرى وجهها فى وجوه أخواتها من «بنات حواء» فى النسيم إذا هب وفى القمر إذا طلع، كان يراها فى الليل إذا عسعس، وفى النهار إذا تنفس، كان يراها فى جمال الكائنات ورواء الطبيعة. كان يراها من خلال السطور أثناء بحثه وتحقيقه فى غفوات الليل. وكان يراها فى قلبه وبصره.

لم تغب صورتها عنه طوال حياته، لذلك نراه يملأ الجو بأحاسيس الحب، وكانت له صبوات وأحلام يعجز عنها أصدق العشاق، لقد وزع حنينه وأنينه إلى تلك الروح فى كتاباته الكثيرة وإن تعددت الأسماء التى يخترعها والليلات اللائى نجد أسماءهن فى أبحاثه الكثيرة».

أيضا يرى الأديب فاضل خلف أن حب «زكى مبارك» هو الحب العذرى وهو حب خالص من شوائب الدنس والرجس. هو حب طاهر شريف لا يعرف مخزيات المآثم ولا منديات الأهواء.

ويقول الأديب «فاضل خلف» على صفحات كتابه: «فى الأدب والحياة» والذى صدر سنة ١٩٥٥ عن مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة وهو أول من كتب عن زكى مبارك بعد رحيله.

«إن غرام «زكى مبارك» الذى نجده منبثا فى شعره ونثره ما هو إلا غرام المجد، ولا شىء غير المجد.

وما ليلى التى يعنيها فى كتبه سوى اللغة العربية التى عشقها «زكى مبارك» فأصبح أمير العاشقين». و«قد حاول هو نفسه إخفاء هذه الحقيقة عن قرائه فلم يستطع .. وإليك البرهان على هذا الكلام:

قال الدكتور «زكى مبارك» عندما كان فى عز مجده الأدبى سنة ١٩٣٩:

«أنا فى هذه الأيام مشغول عن جميع الملاح لأنى أشرب العلقم والصاب فى ثلاث مطابع، والمطبعة هى أنت جهنم التى تقول هل من مزيد؟

أكتب هذا وأنا أعنى ما أقول. ولا تستطيع ليلى فى الزمالك أو ليلى المريضة فى الجيزة أو ليلى المريضة فى مصر الجديدة، أو ليلى المريضة فى دمياط. أو ليلى المريضة فى حلوان. لا تستطيع واحدة من هؤلاء الليليات أن تقول إنها تدخل على قلبى من الفرح بعض ما أشعر به يوم ظهر كتاب «التصوف الإسلامى» أو كتاب «وحى بغداد».

المجد أعظم من الحب لو تعلمون.

المجد هو الذى يسوق إلينا أسراب الملاح صاغرات خاشعات.. فلنجاهد فى سبيل المجد بعزائم الرجال. ولنترك ما للشيطان للشيطان».

ونقول إن «زكى مبارك» لم ينقطع عن الكتابة فى الحب. وعن الحديث عن عاطفة الحب. وقد أراد من كل هذا أن ينشئ أدبًا وجدانيا لتحبيب الشباب فى

اللغة العربية حتى لا يأخذ أبناؤها أدبهم الوجدانى عن الفرنسية أو الإنجليزية. حتى إننا نراه فى كثير من الأحيان يقول:

«نفترض أنه كانت لى محبوبة اسمها سعدية.. وسعدية شخصية وهمية.. غير أنى أبتدع الصور ابتداعًا لأزيد من ثروة اللغة العربية من المعانى الوجدانية.

على صفحات كتابه «ذكريات باريس» والذى صدر فى طبعة ثانية فى كتاب الهلال فى أغسطس ٢٠٠٢ بعد إغفال بعض الموضوعات.. لأن الطبعة الأولى كان عدد صفحاتها أكثر من أن يضمها كتاب الهلال. وعلى صفحة ٢٦٦ كتب «زكى مبارك» تحت عنوان: «أرواح الذكريات» يقول:

صديقى:

إنى لا أذكر يومًا طاب لى كله، ولا أذكر أنى عرفت كيف يكون الصبوح والغبوق فى يوم واحد. ولعل هذا هو السر فى أنى أعرض أحيانًا لبعض الجوانب الحسية من متع الحياة فأصفها بشره وافتراس. كما يسطو المحروم على لقمة سائغة فيلتهمها مرة واحدة كأنها آخر ما سيلقى من طيبات دنياه».

ونقول: إن السر فى عاطفة «زكى مبارك» المتأججة تكمن فى أنه حرم الحب منذ رحيل حبيبته «فتحية».

إذن «زكى مبارك» لم ينعم بالحب فقد ودعه فى صباه فكتبه. ولهذا يمكننا أن نقول كما وصف هو نفسه. إنه كان يصف الحب بشره وافتراس كما يسطو المحروم على لقمة سائغة فيلتهمها مرة واحدة كأنها آخر ما سيلقى من طيبات الحياة.

ولهذا أحب القراء كتابات «زكى مبارك» وكلماته.. وعاش «زكى مبارك» فى خاطر الناس وفى وجدانهم وأفئدتهم بالحب الذى ملأ الدنيا بالحديث عنه.. لقد كتب الحب وبكثرة لأنه لم يعش الحب. فقد حرم منه بعد رحيل فتحية.

ورأى «زكى مبارك» الحب فى العمل والأمل والدافع إلى كل ما هو خير.. ومع هذا فإن «زكى مبارك» لم ينس محبوبته فتحية، فقد كان وحدانيًا فى الحب، فلم يحب غير فتحية.

ولعل «زكى مبارك» حين دافع فى كتابه «العشاق الثلاثة» عن جميل بن معمر وكثير بن عبد الرحمن، والعباس بن الأحنف وهم شعراء التوحيد. فكأنما كان يدافع عن نفسه، يقول «زكى مبارك»:

يمتاز هؤلاء العشاق الثلاثة بالجد فى الحب وبالحرص على كرامة الحب، وبالإشادة بالعفاف، فالهوى عندهم شريعة وجدانية، وليس لهو أطفال ولاعبث شبان؛ لأنهم نشأوا فى أيام كان أهلها أصحاء العقول والقلوب فأفصحوا عن سرائرهم بتصريح الواثق الأمين، لا بتلميح المريب الهيوب.

هذا ما قاله «زكى مبارك» عن العشاق الذين جمع بينهم التوحيد فى الحب... ولاشك أن «زكى مبارك» ينضم لهؤلاء. وسنجد فى المستقبل القريب بإذن الله دراسة باسم: «العشاق الأربعة»: «جميل بن معمر»، و «كثير بن عبد الرحمن»، و«العباس بن الأحنف»، و«زكى بن مبارك»..

* * *

الباب الرابع

الأديبة والشاعرة كريمة زكى مبارك جعلت من القيام على تراث أبيها والإهتمام بنشر ما لم ينشر منه والتذكير به فى كل مناسبة رسالة حياة.

فاروق شوشة

جريدة الأهرام فى ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٨

تكريم الأوفياء

بقلم: كريمة زكى مبارك

عزيزى القارئ:

بعد أن قرأت مقالات أديبنا الكبير الدكاترة «زكى مبارك» عن عاطفة الحب، هل كان يمكن أن تلتقى بهذه الوجدانيات الممتعة لو لم تجمع فى كتاب؟

من منا الآن لديه الوقت للذهاب إلى الهيئة المصرية العامة للكتاب أو إلى دار الكتب. ومراجعة الدوريات والاستمتاع بما فيها؟

ومع هذا لم أفكر فى جمع أى كتاب لـ«زكى مبارك» كان رأيى أن أترك هذا العمل لغيرى من الكتاب.

كنت أكتفى بالمقالات التى أنشرها من حين لآخر عن «زكى مبارك» بالإضافة إلى ندوتين كل عام الأولى فى ذكرى مولده، فى الخامس من أغسطس لأنه ولد فى هذا التاريخ سنة ١٨٩١.

والثانية فى ذكرى رحيله إلى عالم البقاء فى الثالث والعشرين من يناير؛ لأن «زكى مبارك» رحل فى مثل هذا اليوم سنة ١٩٥٢.

بجانب هذا كنت مشغولة بأشعارى فأصدرت ديوانين: الأول بعنوان: «أحبك أنت» والثانى بعنوان «أنت الحب» وفى ترنمى بأشعارى لأقدم للقارئ الديوان الثالث. ذهبت للكاتب الكبير الأديب «رجاء النقاش» أدعوه للمشاركة فى أمسية ثقافية عن «زكى مبارك» فى ذكرى مولده. فقال لى إن صدور كتاب جديد لـ«زكى مبارك» أبقى على مر الزمان من الأمسيات الثقافية، وطالبنى بضرورة جمع مقالاته لتصدر تباعًا فى عدة كتب.

ولكنى قلت له: أفضل أن يقوم بهذا الجهد غيرى.

قال: وإذا لم يحدث ولم يتقدم أحد من الكتاب للقيام بهذا العمل.. فهل تترك كتابات «زكى مبارك» مبعثرة على صفحات الجرائد والمجلات؟

بعد هذه النصيحة قمت بإعادة طبع كتب «زكى مبارك» وهى:

حب ابن أبى ربيعة وشعره، الأسمار والأحاديث. الأخلاق عند الغزالى، النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى، التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق، مدامع العشاق، ذكريات باريس، ليلى المريضة فى العراق، المدائح النبوية، اللغة والدين والتقاليد، العشاق الثلاثة، الموازنة بين الشعراء وديوان ألحان الخلود.

ومن الكتب التى حققها وتم إعادة طبعها:

الأم، الرسالة العذراء، زهر الآداب وثمر الألباب..

أما الجزء الأول من كتاب: «الكامل للمبرد» فلم يطبع ثانية لأنه مرتبط بالجزء الثانى والثالث والذى حققه المرحوم «أحمد محمد شاكر».

والسبب أن «زكى مبارك» بعد أن حقق الجزء الأول، وبدأ فى تحقيق الجزء الثانى، طلبته العراق أستاذًا للأدب العربى فى دار المعلمين العالية ببغداد سنة ١٩٣٧، ولهذا ترك الجزء الثانى ليحققه الأستاذ أحمد محمد شاكر، وأيضا الجزء الثالث.

كما قمت بجمع وتقديم عدة مقالات نشرت فى العديد من صفحات الجرائد والمجلات، وصدرت لأول مرة فى عدة كتب وهى:

مجنون سعاد، بين آدم وحواء، زكى مبارك ناقداً «جناية أحمد أمين على الأدب العربى» وذلك ردًا على مقالات الأستاذ أحمد أمين والتى صدرت تحت عنوان: «جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى».

كما أصدرت عدة دواوين للشاعر «زكى مبارك» لم تكن قد رأت النور من قبل وهى:

أطياف الخيال، أحلام الحب، وقصائد لها تاريخ، وهى قصائد نشرها «زكى مبارك» على صفحات جريدة «البلاغ» فى أيامه الأخيرة..

كما جمعت بعض الكتب وقدمتها للقارئ من إعدادى وتقديمى؛ لأن «زكى مبارك» لم يرها، فمن الخطأ أن أنسبها إليه، أضف إلى ذلك، إننى ربما فاتتنى بعض المقالات وهذه الكتب هى:

«أحمد شوقى» بقلم «زكى مبارك»، «حافظ إبراهيم» بقلم «زكى مبارك» زكى مبارك وهؤلاء والمعارك الأدبية بين «طه حسين» و «زكى مبارك».. ملامح دينية بقلم «زكى مبارك»، «شط إسكندرية» شعر «زكى مبارك».. «رسالة الأديب» بقلم «زكى مبارك» وقد صدرت فى دمشق عن وزارة الثقافة السورية.

وقمت بتقديم سيرة «زكى مبارك».. وصدرت الطبعة الأولى بعنوان: «زكى مبارك» بقلم «زكى مبارك» سنة ١٩٨٨. وبعد ذلك طبعها الأستاذ «سعيد جودة السحار» فى مطبعة ومكتبة مصر تحت عنوان: «سيرة زكى مبارك» سنة ١٩٩٥، وقلت فى مقدمة الطبعة الأولى والتى أصدرتها على نفقتى:

«من سنوات وسنوات وأنا أعيش مع مذكرات «زكى مبارك» من خلال ذكرياته ولكنها أتعبتنى جدًا، فلقد كان من السهل أن أقدم للقارئ كتابًا عن «زكى مبارك» بقلمى. فى حين أنه من الصعوبة أن أقدم للقارئ «زكى مبارك» بقلم زكى مبارك ولكنى اخترت الأصعب؛ لأن «زكى مبارك» كان يسكب رحيق قلمه فى مجرى الزمان وقلب الوجود. كما أنه شاهد على العصر. يقول «زكى مبارك» إن الكاتب الحق لا يخاطب العصر وحده. وإنما يسكب رحيق قلمه فى مجرى الزمان وقلب الوجود. ومن هنا أتعبتنى جدًا مذكرات «زكى مبارك» إذ اقتضى ذلك منى أن أقرأ صفحات وصفحات. وأن أختار منها أقل القليل، فقد كان من الممكن أن تملأ مجلدات ومجلدات .. ولكن أين لى النقود التى أستطيع أن أطبع بها ما أجمع من مجلدات؟

إن «زكى مبارك» نفسه يقول على صفحات «جريدة البلاغ» فى الخامس عشر من يوليو سنة ١٩٤٧ يقول: «قد أعود يومًا إلى نشر ما أودعته فى «جريدة البلاغ» مما فاتنى نشره قبل غلاء الورق وهو يملأ طوائف من المجلدات؟

ولهذا اخترت أقل القليل كما قلت. وأشهد أننى لم أتدخل فى هذه المذكرات إلا بإضافة حرف عطف أو أداة وصل إذا اقتضى الأمر ذلك، وأنا فى كل هذا قد

دونت التواريخ وكل التواريخ التى ذكرت بدون اسم المرجع منقولة عن جريدة «البلاغ» اليومى حتى يعود إليها القارئ حين يشاء.

وإن كنت لم أرتبط بالتدرج التاريخى، بل اهتممت بتسلسل الأحداث لأن «زكى مبارك» كما قال هو نفسه كان يختزن ما يصادفه فى حياته ويدونه حين تتاح له الفرصة.

وقد رأيت أن أعتمد فى هذه المذكرات على مقالات «زكى مبارك» على صفحات جريدة «البلاغ» خاصة التى كانت تحمل عنوان «الحديث ذو شجون».

أولا: حتى لا أنقل عن كتبه وهى فى متناول يد الجميع.

ثانيا: لأن بعض هذه المقالات كانت أشبه بالاعترافات الواقعية والصادقة، فقد قال فيها «زكى مبارك» كل شئ له أو عليه.

أيضا من الكتب التى أعددتها وقدمتها للقارئ:

«الفكر التربوى عند زكى مبارك» بالاشتراك مع الكاتب العربى السعودى زهير محمد جميل كتبى وافتتاحية بقلمه».

الفكر الدينى عند زكى مبارك بالاشتراك مع الكاتب عادل الشامى على نفقة السيد فيصل بن على بن فيصل آل سعيد وزير الثقافة العمانى وافتتاحية بقلم الأستاذ الدكتور مال الله بن على حبيب اللواتى ».

«من أقوال الدكتور «زكى مبارك» بالاشتراك مع الكاتب «عادل الشامى»

«راية الحرية الأدبية» بالاشتراك مع الكاتب «عادل الشامى» بافتتاحية بقلم الشاعر العربى السعودى الدكتور «عبد الله محمد باشراحيل» وعلى نفقته.

مختارات من مقالات البلاغ بقلم زكى مبارك: بالاشتراك مع الكاتب عادل الشامى

«زكى مبارك» سيرة ذاتية بالاشتراك مع الكاتب عادل الشامى

وأجمع الآن بعض المقالات لتصدر تحت عنوان:

- «زكى مبارك» رائد الشعر الحر.
- أدب المعاش بقلم «زكى مبارك».
- أدب الشواطئ بقلم «زكى مبارك».
- العروبة والإسلام بقلم «زكى مبارك».
- زكى مبارك عاشق مصر.

وفى مسيرتى الطويلة تلك طلب منى الكاتب الكبير العربى الجزائرى «حواش مصطفى بن بكير» أن أكتب مقدمة لكتابه الذى يحمل عنوان: «زكى مبارك. عروس الأدب العربى» وهو الكتاب الثانى للمؤلف عن «زكى مبارك».

فى المقدمة قلت ما معناه. إنى انتظرت طويلاً أن تكرمنى الدولة على كل مجهوداتى التى استطعت بها جمع ونشر العديد من كتب «زكى مبارك» والتى لم تكن قد صدرت من قبل وبذلك قمت بما كان يحتاج للجنة مؤلفة من باحثين ودارسين للقيام بما قمت به.

وجاءنى التكريم من الكاتب الكبير الأستاذ/ رجاء النقاش، جاءنى وسام على صدرى، فعلى صفحات جريدة الأهرام بتاريخ ٨/ ١٠/١٩٩٥قال الأستاذ رجاء النقاش: «قد كتبت عن «زكى مبارك» كثيرًا وأنا مضطر أن أعود إلى بعض ما كتبته عنه من قبل. وأستعين به من جديد. كما أننى أعتمد على ما كتبته ابنته «كريمة زكى مبارك» والتى تبذل منذ ما يقرب من ثلاثين سنة جهودًا خارقة لإحياء ذكرى والدها وجمع آثاره. وهى بذلك تستحق أن تكون من كبار الأوفياء فى هذا الزمان.

ولو كان لأدبائنا المعروفين أبناء وبنات فى وفاء «كريمة» وحماسها ووعيها لما ضاع حرف واحد من آثار هؤلاء الأدباء. والكثيرون من أدبائنا الكبار قد عاشوا حياة مضطربة ومزدحمة بالمشاغل والهموم والمشاكل والأحداث. فلم يستطيعوا فى حياتهم أن يجمعوا أعمالهم المتفرقة فى الصحف والمجلات.

وكما قال الأديب الناقد والشاعر الفنان فاروق شوشة تحت عنوان: «كل فتاة بأبيها معجبة» على صفحات جريدة الأهرام فى ٢٠٠٢/٥/١١:

لا أعرف أحد ينطبق عليه هذا القول العربى المأثور «كل فتاة بأبيها معجبة» كانطباقه على الإذاعية والأديبة الشاعرة كريمة زكى مبارك. التى جعلت من اهتمامها بتراث أبيها: الدكاترة «زكى مبارك» رسالة حياة.. فمنذ رحيله فى ٢٣ يناير عام ١٩٥٢ ـ قبل حريق القاهرة. وما تبعه من أحداث. شغلت الناس عن كل شىء بثلاثة أيام ـ وستائر النسيان تتسدل على آثاره وكتاباته يوما بعد يوم. حتى قيض الله له من ابنته كريمة ـ وليس من أبنائه الرجال ـ من قام بجمع مقالاته وآثاره المتناثرة فى عديد من الصحف والمجلات وتصنيفها فى عديد من الدواوين الشعرية والكتابات الأدبية والنقدية. فضلاً عن العمل بدأب وهمّة لا تعرف الكلل لإعادة نشر مؤلفاته ذائعة الصيت التى أصدرها فى حياته وأصبح الجمهور الأدبى والدارسون يفتقدونها.

وبعد حديث ممتع عن «زكى مبارك» قال الشاعر فاروق شوشة:

لقد كان دافعى إلى هذا الحديث الجديد عن «زكى مبارك» تقديرى للدور الذى قامت به ابنته «كريمة زكى مبارك» فى جمع تراثه الذى لم يسبق نشره فى كتب وإعادة نشر أعماله التى لم تعد متاحة لقراء هذا الزمان. فهى كما قلت تذكرنى بالقول المأثور: «كل فتاة بأبيها معجبة»

وعاد الشاعر الفنان فاروق شوشة فكتب على صفحات جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠/٤/٢٠٠٨ فقال: الأديبة الشاعرة كريمة زكى مبارك جعلت القيام على تراث أبيها والاهتمام بنشر مالم ينشر منه والتذكير به فى كل مناسبة رسالة حياة

ولقد كتب الكثيرون عن الجهود التى بذلتها فى جمع تراث زكى مبارك، ومن هؤلاء السادة الأساتذة:

الدكتور محمد بهى الدين سالم المدير العام بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية حيث قال:

فى بحث بعنوان: «طرق من حياة زكى مبارك» وذلك فى المؤتمر العلمى الأول عن الدكتور زكى مبارك والذى أقيم بفرع جامعة أسيوط بسوهاج فى الفترة من ٢٦ إلى ٢٩ مارس سنة ١٩٨٨:

... وقد قامت السيدة كريمة مبارك بعمل كبير حين جمعت ما تفرق من آثار الوالد الكريم فى أكثر من خمس مجموعات صدرت حتى الآن، تناولت أعماله على أبواب مختلفة منها الشعر ومنها النثر ومنها النقد، ومازالت توالى هذا العمل بهمة لا تعرف الملل فجزاها الله خيرا.

وقال الدكتور عبد العزيز نبوى فى المؤتمر نفسه:

... ومعنا اليوم الأستاذة الشاعرة كريمة زكى مبارك التى تبذل الجهد بعد الجهد لنشر تراث والدها العظيم.. وهى إذ تنهض بذلك وفاء له تقدم خدمة جليلة إلى الأدب العربى؛ إن لم نقدرها حق قدرها اليوم فسوف تقدرها الأجيال القادمة، وليت ما نهضت به - وتنهض - يكون تقليدا يترسم خطاه أبناء العلماء و الأدباء والشعراء، فيجمعون ثراث آبائهم ويعملون على نشره ويلقون الضوء على المواقف أو القضايا التى تعين المؤرخين على إنصاف الأديب أو العالم إحقاقا للحق وخدمة لتاريخ الآداب العربية.

وقالت الأديبة الشاعرة جميلة العلايلى فى المؤتمر نفسه:

أسست كريمة زكى مبارك جمعية أسمتها جمعية زكى مبارك الأدبية تجتمع من حين إلى حين كندوة أدبية يتبارى فيها الأدباء والشعراء، كما أنها تجمع من حين إلى آخر آثاره وتنشرها فى كتاب باسمه.

كما كتب الأديب الناقد الأستاذ الدكتور عبد العزيز نبوى الأستاذ المتفرغ بكلية التربية جامعة عين شمس فى افتتاحية لكتاب جمع وإعداد وتقديم كريمة زكى مبارك، بعنوان «مختارات من مقالات البلاغ للدكتور زكى مبارك» كتب يقول:

ها هى ابنته الصغرى الأستاذة كريمة زكى مبارك وسبطه الأستاذ عادل الشامى المحامى ينهضان بما ينوء بمثله العشرات، وقد صدق فيهما قول ابن دريد:

والناس ألف منهم بواحد   وواحد للألف إن أمر عنى

لقد تشهى زكى مبارك أن يكون له من صلبه ولد نجيب، فليهنأ فى جوار ربه فقد تحقق رجاؤه، إذ جمعت الأستاذة كريمة قبل ذلك ما شغل خمسة وعشرين كتابا يحمل كل منها عنوانا مختارا دالا على فحواه.

وقال الأديب الناقد الأستاذ الدكتور أحمد السيد عوضين: الأهرام فى ٢٠٠٤/٨/١٧

تحت عنوان: «راية الحرية الأدبية.. كتاب جديد لزكى مبارك»

أتابع بكل تقدير وإعجاب الجهد الدءوب الذى تبذله السيدة كريمة زكى مبارك فى جمع وتحقيق إبداعات الدكاترة زكى مبارك المتناثرة هنا وهناك، فتعيد تصنيفها وتسعى لنشرها، فما يمضى عام إلا وتتحفنا بكل ما هو جديد - بالنسبة لنا - من كتابات ذلك الكاتب العبقرى المجهولة لدينا.

ومن على صفحات كتاب : «زكى مبارك» من سلسلة «أعلام ومشاهير» والذى صدر سنة ٢٠٠٤ عن دار ومطابع المستقبل بإشراف الدكتور رءوف سلامة موسى نقرأ:

اهتمت ابنته البارة السيدة كريمة بإحياء وتجديد ذكرى والدها بطبع مؤلفاته المختلفة، وهذا أقصى ما يناله المؤلف من تكريم، فأعادت طبع ما طبع، وأضافت إليه من المخطوطات والمنشورات التى تركها.

وقال الكاتب الأستاذ وديع فلسطين على صفحات كتاب «من رسائل أدباء عصره» للكاتب العراقى الأستاذ عبد الخالق فريد صفحة ١٢٧ والذى صدر سنة ٢٠٠٥ عن مطبعة السعدون/ بغداد:

أختنا كريمة زكى مبارك ساهرة على تراث أبيها، تطبع ما نفد منه، وتنشر ما كان مخطوطا، وتقف كالديدبان أمام لصوص الكتب.

قال الدكتور محمد بهى الدين سالم المدير العام بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى كلمة ألقاها عن زكى مبارك فى جامعة سوهاج:

قامت السيدة كريمة زكى مبارك بعمل كبير حين جمعت ما تفرق من آثار الوالد الكريم فى أكثر من خمس مجموعات حديثة حتى الآن تناولت أعماله فى أبواب مختلفة منها الشعر ومنها النثر ومنها النقد ومازالت توالى هذا العمل بهمة لا تعرف الملل فجزاها الله خيرا.

وقال الدكتور أبو الحسن عبدالله الخطيب فى جامعة سوهاج:

إن لقاءنا اليوم هو ترجمة عملية لحديث الرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ الذى يقول: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له:

فهذه هى كريمته السيدة كريمة البنت الصالح، والذي فى مجيئى إلي سوهاج مع الصحبة الأخيار شرف كبير لنا وذكرى نعتز بها، فهنيئا لزكى مبارك فى الخالدين.

وقال الشاعر العربى السورى رائف المعرى:

بنت «المبارك» أحيت عصر والدها نثرا وشعرا فؤادى منه نشوان

والآن كلمة أخيرة أحب أن أقولها:

لو قامت مؤسسة لجمع تراث الدكتور زكى مبارك من على صفحات الجرائد والمجلات فربما ما استطاعت أن تقدم للقارئ بعض ما قدمت من كتب لزكى مبارك والتى ذكرت فى الصفحات السابقة:

لقد جمعت وأعددت وقدمت للدكتور زكى مبارك بعد رحيله إلى عالم البقاء ثلاثين مؤلفا ما بين نثر وشعر، وكلها لم تكن قد رأت النور من قبل؛ وقد جمعتها من على صفحات الجرائد والمجلات.

كما جمعت وأعددت وقدمت خمسة كتب لم تكن قد رأت النور من قبل، وهي الآن جاهزة للنشر في انتظار من يساعدنى على الطبع.

أيضا أعدت نشر بعض كتب زكى مبارك وهى تزيد عن العشرين كتابا من الكتب التي أصدرها الدكتور زكى مبارك في حياته ونفدت من المكتبة العربية حتي كاد ينساها أو يتناساها الأدباء والشعراء والنقاد.

والآن، ومع هذا فأنا لم آخذ حقى من التكريم؟

تكريم الدولة، أو الهيئات أو الجمعيات، أو مقدمى الجوائز لكل فنان أصيل، وتكريم الوفاء فى زمن انعدم فيه الوفاء أو كاد.. فأنا بشهادة «رجاء النقاش» من كبار الأوفياء فى هذا الزمان.

وبشهادة «فاروق شوشة» كان دافعه للحديث الجديد عن «زكى مبارك» تقديره كما قال. للدور الذى قامت به ابنته «كريمة زكى مبارك» فى جمع تراثه الذى لم يسبق نشره فى كتب. وإعادة نشر أعماله التى لم تعد متاحة لقراء هذا الزمان.

لقد أصدرت لـ «زكى مبارك» من دواوين الشعر، ومن الكتب، ما يقرب من الثلاثين مؤلفا من تراثه الذى لم يكن قد نشره فى كتاب.

وأعدت نشر ما يقرب من العشرين كتابًا من الكتب التى أصدرها «زكى مبارك» فى حياته والتى لم تكن متاحة لقراء هذا الزمان.

أليس من حقى أن أقول أين تكريم الدولة؟

إن تكريمى فضلا عن أنه سيسعدنى، ويحفزنى على تكملة المسيرة التى بدأتها منذ ما يقرب من أربعين سنة حين نشرت مقالة تحت عنوان «أبى زكى مبارك». على صفحات مجلة «الرسالة» الجديدة أيام الأستاذ «أحمد حسن الزيات».

فإنه فى الوقت نفسه سيشجع الأبناء على جمع تراث الذين رحلوا. وهذا مكسب للدولة، بل مكسب للإنسانية جمعاء.

ولنقل ونكرر مع «زكى مبارك» قوله: لكل وطن روح، وروح هذا الوطن هى رسالة القلم البليغ.

فمرحبا بكل من يجمع تراث العظماء الذين فاتهم جمع مقالاتهم فى الوطن العربى والإسلامى، فمن حق العظماء أن نخلد ذكراهم.

أو ليس من الوفاء أن ترد الأمة بعض الجميل لعظمائها الذين خلدوا بأعمالهم صفحات مجيدة فى حب الوطن؟

قال «زكى مبارك»(*) عندما سئل ماذا ستفعل عندما يوافيك الموت؟

---

* قال الأديب محمد الشافعي علي صفحات كتابه:

جوارح ومجاريح وتحت عنوان: زكى مبارك قلم جارح وقلب جريح قال: ظل زكى مبارك حتى بعد رحيله العنيد المتحدى حيث استطاعت كتبه ودراساته أن تسجل اسمه بأحرف من نور فى سجل الخلود.. ومن كتبه التى جمعتها ابنته كريمة بعد رحيله: زكى مبارك ناقدا، الحديث ذو شجون، حافظ إبراهيم، أحمد شوقى، بين آدم وحواء زكى مبارك ونقد الشعر، سيرة حياة زكى مبارك، الفكر التربوى عند زكى مبارك، كما أصدرت كريمة ثلاثة دواوين من شعر والدها وهى قصائد لها تاريخ، أطياف الخيال، شط اسكندرية.

فقال: سأقدم إلى الله مقالاتى وبها خدمت لغة القرآن.

«إن الطريقة لتخليد العظماء والتى يرضاها الإسلام. هى تخليدهم فى القلوب، وعلى الألسنة بما قدموا من خير وعمل. وما تركوا وراءهم من مآثر صالحات ليتناقلها الخلف عن السلف. والأبناء عن الآباء محفورة فى الأذهان. ومذكورة بالألسنة تعطر الندوات والمجالس، وتملأ العقول والقلوب:

كريمة زكى مبارك

* * *

الباب الخامس

على صفحات كتاب: «الأسلوب هو الرجل، شخصية زكى مبارك من خلال أسلوبه» يقول المؤلف:

إذا لم يكن أسلوب زكى مبارك متميزا فلا أظن أنه من الممكن أن يكون هناك أسلوب متميز لأى كاتب من الكتاب.

ولقد مات زكى مبارك منذ نحو خمسين سنة ولم يظهر حتى الآن أسلوب يشابه أسلوبه.

دكتور إبراهيم عوض

عود إلى حديث الحب..

بعد هذا الاستطراد الذى لانعتذر عنه؛ لأننا إنما نتحدث عمن كان شعاره أن الحديث ذا شجون

نعود لعاطفة الحب، نعود لـ «زكى مبارك» والعود أحمد.

نعود فنقول: إن «زكى مبارك» أمتعنا كثيرًا بنثره، وشعره الوجدانى، فنراه يقول إن الوطن لا يغلو إلا فى صدور أرباب القلوب، ولهذا يعتز «زكى مبارك» بما هتف به الضابط المصرى «عبد المنصف محمود» إذ قال فى نشيده العسكرى:

مـــين زيك عـــنـــدى يـــا خـــضـــره
فى الـــرقه يـــا غـــصـــن الـــبـــان
مـــا تجـــودى عـــلىَ بـــنـــظـــره
وانـــا رايـح ع المـــيـــدان

ويقول «زكى مبارك» أنا أدعو إلى الاهتمام بتربية العواطف؛ لأن إهمال العواطف ستكون له آثام أيسرها رياضة الشبان على رذيلة عدم الاكتراث، وهى أقبح الرذائل وأشدها تأثيرًا فى قتل حيوية الشعوب..

ثم نعود لنلتقى ببعض مقالات «زكى مبارك» عن عاطفة الحب.. فنقرأ له ونستمتع بما قال على صفحات مجلة «الرسالة» وأيضا جريدة «البلاغ».. فتحت عنوان «إلى الدكتور طه حسين»:

تشريح عاطفة الحب. كتب الدكتور «زكى مبارك» يقول: (الرسالة ١٩٤٠/٢/١٩)

أيها الأستاذ الجليل:

سألتنى يوم لقيتك بوزارة المعارف فى صباح اليوم الثامن من هذا الشهر عن سبب اهتمامى بالحديث عن الحب. وقد جرى ذكر كتاب: ليلى المريضة فى العراق.. وكانت الابتسامة التى شع ضوؤها فى ملامح وجهك. تحمل معنى التعجب من أن تسمح الدنيا بأن أعيش بقلب المحب المتيَّم المتبول!

فأجبتك بأن شواغلى فى الحياة قد تجعل الحب آخر ما يشغل قلبى. ولكن حديثى عن الحب صار مذهبًا أدبيًا أشرح به ما يتعرض له الناس فى ميادين النوازع والأهواء. وأنا أريد أن أخلق جوًا من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان!

فابتسمت ابتسامة لها معنى. وقلت: اخلق البشاشة فى الزمن إن استطعت!

ثم خضنا بعد ذلك فى شجون من الأحاديث سأرجع إليها بالتدوين بعد حين.

* * *

وبعد ذلك كتب يقول:

ويهمنى اليوم أن أشرح ما كان يجب أن أقول فى جواب سؤالك لو رأيتك منشرح الصدر لا تشكو تدخل بعض الناس فى شئون قد يجهلونها كل الجهل. أو يتحمسون لها بعقيدة مدخولة وإيمان مصنوع.

ونحن لم نبتكر الكلام عن الحب. فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود، وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب؟ ولأى غرض يحيا الناس إذا أصيبت أفئدتهم بالاعتلال فلم تحس ذلك الروح اللطيف؟

وهل ينصرف القلب عن الحب وهو فى عافية؟

إن المتوقرين والمتزمتين يتوهمون أنهم وجدوا الحجج الدوامغ حين استطاعوا أن يقولوا:

إن الدنيا فى حرب. وإن الظروف لا تسمح بالحديث عن الحب!

وأقول: إن ما هتفوا به لم يصدر إلا عن صدور مراض، فالحب لا يغزو إلا قلوب الأصحاء، وهو يساور قلوب الجند فى أصعب أوقات الحروب. وهل كان عنترة بن شداد ماجنًا حين قال:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمست كبارق ثغرك المبتسم

وما هتف به عنترة.. هتف به ضابط مصرى سمحت له لجنة الأناشيد العسكرية بأن يقول:

مين زيك عندى يا خضره ... فى الرقه يا غصن البان
ما تجودى علىّ بنظره ... وانا رايح ع الميدان

وهذا الضابط اسمه «عبد المنصف محمود» ولا أعرف كيف اهتدى إلى هذه الفكرة الطريفة وهو يعيش فى زمن مثقل بإصار التصنع والرياء.

لقد قيل إن هذا نشيد لا يصلح للجنود وهم يتأهبون للقتال.

وأقول إن هذا النشيد من شواهد العافية. فلكل جندى فى الجيش أوطار روحية. يحن إليها حنين الأصحاء، وتلك الأوطار الروحية هى الحافز الأعظم للاستبسال فى ميادين الشرف والوطنية. والجندى الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبدًا للاستشهاد فى سبيل الوطن الغالى لأن الوطن لا يغلو إلا فى صدور أرباب القلوب.

وأنا أنتظر أن يسود ذلك النشيد على سائر الأناشيد. فقد هتف به جندى سليم الجسد والروح، وهو أفضل من الأناشيد التى ينظمها شعراء لم يعرفوا الفرق بين السيف والرمح، ولم يسمعوا صوت المدفع إلا فى ليالى رمضان.

من الفضول أن أحدثك عن أهمية الحب، ولك فيه تاريخ. لكنى أحب أن أعرف كيف يندر أن نجد بين كتابنا من يهتم بتشريح عاطفة الحب؟ وكيف يرانا من سيدرسون آثارنا الأدبية بعد جيل أو أجيال حين يظهر لهم أننا كنا نحسب الحديث عن الحب فنا من فنون المزاح؟

الحب جده جد. وهزله جد. ولا يتجاهل هذه العاطفة إلا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيئ فى تلوين الوجود.

الحب جد صراح والاهتمام بدرسه يؤدى خدمات عظيمة لعلم النفس، فكيف نسكت على درسه وهو يواجه الناس فى جميع الميادين؟ كيف نسكت عن درسه وله قدرة قاهرة على الضر والنفع، وله تأثير شديد فى توجيه مصاير الرجال؟

وبأى حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب؟

وكيف يجوز أن يقهرنى العيش فى عصر التزمت على الدفاع عن كتاب «ليلى المريضة فى العراق» وهو كتاب أردت به خلق الحيوية الأدبية بين أبناء هذا الجيل؟

إن التوقر الذى يصطنعه بعض الناس قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية وقطع مابيننا وبين ماضينا المجيد يوم كان الشعراء لا يهتفون بغير أوطار القلوب.

وأين نحن من العصر الذى عاش فيه الشريف الرضى؟

وهل يمكن القول بأن الحاسة الدينية فى هذا العصر تفوق الحاسة الدينية فى أعصر أولئك الشعراء؟

لا يمكن القول بذلك، فنحن بشهادة رجال الدين أقل حرصًا على الواجبات الدينية من الرجال الذين عاصرهم أولئك الشعراء، والله يغفر لى ولك ولسائر أهل هذا الجيل!

الفرق بيننا وبين أسلافنا لا يحتاج إلى توضيح.

كان أسلافنا أصحاء. فكانت عصورهم تجمع بين أشرف صنوف الهداية وأعنف ضروب الضلال. وكان الرجل الديّان لا يتورع عن رواية أظرف قصائد الغزل والتشبيب، وكان هناك توازن بين حقوق القلوب وحقوق العقول. فكانت الحياة أشبه بالحديقة الغنية التى تجمع فى شعابها بين حياض الأزهار والرياحين ومسارب الأفاعى والضلال.

فى مساجدهم رويت طرائف الأشعار، ونوقشت مذاهب الزيغ بلا تحامل ولا إسراف، وفى بيوت أتقيائهم دونت أوهام القلوب والعقول، وعلى ألسنة أصفيائهم.

جرت أحاديث الشك والارتياب وبفضل ذوقهم الأدبى والفنى عاشت أضاليل لها صلات بحيوات الآداب والفنون.

أما عصرنا الذى أعرف وتعرف فهو عصر الرسوم والأشكال، وأخشى أن يمر بلا أثر ملحوظ فى خدمة العقل والقلب والذوق.

وإلا فأين الرجل الصالح الذى يقهرك روحه على التزام حدود العقل.

وأين الأديب الذى يحدثك عن نفسه فتشعر بأنه صادق كل الصدق؟

ومن أجل هذه الرخاوة الفكرية والأدبية والدينية فترت حماسة الناس للفكر والأدب والدين. وأصبحت القلوب فى مثل حال الشراب المقتول.

وهنا أجد الجواب عن سؤالك. أيها الأستاذ الجليل.

فأنا أتحدث عن الحب بصفة جدية. وأتعقب أخباره وآثاره فى كل ما أرى وما أسمع. وآية ذلك أنى لم أنته ولم أنزجر بعد أن رأيت غضبتك فى جريدة السياسة يوم ظهر كتاب «مدامع العشاق» وقد قلت إنه يحرض على الشهوات. سامحك الله وغفر لك!

وأنا أجدّ فى كل شىء . أجد فى الصداقة والعداوة وأجد فى الشك واليقين، وليس أمامى مجال للمزاح، وكيف يتسع وقتى للمزاح وما بقيت يومًا خاليًا من الشقاء بالدنيا والناس؟

فما أرضاك عنى فهو حق. وما نفّرك منى فهو حق. وما خصصتك بغضبى ورضاى إلا لأنى أعرف أنك تعاقر من فرح الحياة وحزن الحياة بعض ما أعانى. وأنا موقن بأنك تفهم عنى ما أريد لأنك تعرف من سيرتى مالا يعرف سواك.

فما رأيك فى الحب؟

ألا ترى أنه عاطفة تستحق أن نتأثر بها فى جميع المسالك؟

وإذا سكتنا عن تشريح عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن ندّعى النيابة عن الجمهور فى تشريح النوازع والأهواء؟

وهل يرضيك أن نسير إلى ما سار إليه من يختارون المحفوظات لتلاميذ المدارس، وقد تحاشوا جميع الأشعار التى تفسح عن أوطار القلوب.

لو كان جميع المعاصرين من «المارقين بالله» لخفّ الأمر وهان. ولكن معاصرينا من الأساتذة يسمعون حديث الحب من المذياع. ويرون آثاره على الشاشة البيضاء، وفيهم من يتمنى لو سارت أشعاره بين أغاريد أم كلثوم وعبد الوهاب!

يجب أن تعرف أنى أخاطب الدكتور طه حسين الذى نقل أروع أحاديث الحب عن أهل الغرب والذى يحاول أن يطبع الجمهور المصرى على تذوق الموسيقى الأوروبية. لأنها فى رأيه من أصلح الأدوات للتعبير عن العواطف والأهواء.

والأوروبيون الذين تعرفهم لا يرون الحب من المزاح. وإنما يرونه عاطفة أصيلة تنقل القلب من مكان إلى مكان. وتسبغ عليه أثواب الصحة والعافية. وتشريح عاطفة الحب هو عندى باب لتربية العواطف.

تربية العواطف؟

أعوذ بالله من الجهل بأخلاق زمانى ومن شناعة التعرض لسفاهة الأقاويل والأراجيف!

نعم، أنا أدعو إلى الاهتمام بتربية العواطف. وليقل ما شاء ماشاء.

كل شىء فى بلادنا موضع اهتمام إلا العواطف. وإهمال العواطف ستكون له آثام أيسرها رياضة الشبان على رذيلة عدم الاكترات وأشدها تأثيرًا فى قتل حيوية الشعوب.

وهل تستطيع القول بأن الرأى العام عندنا يحس هذه المعانى؟

وما الرأى العام «أليس صدى لآراء الباحثين والدارسين وهم عندنا قوم هيابون خوافون يرون الحديث عن العواطف من فضول القول؟

وخمود العواطف هو الذى قتل الشاعرية فى مصر. هو الذى جعل المصريين أقل الناس إحساسًا بمعانى الوجود. وإلا فحدثنى عما أقيم على شواطئ النيل من ملاعب. وما أقيم فوق عبابه من سهرات يغنى فيها الشعر ويرقص الخيال؟

هل عندك نبأ عن حدائق القناطر الخيرية؟ وهل سمعت أن إحساس المصريين بالحياة حمل بعض الشركات على أن تنشئ فندقًا هناك؟ ولمن تقام الفنادق فى تلك الناحية السحرية وليس فينا رجل يشوقه قضاء الليل وهو يسمع هدير النيل فى شهر آب؟

وهل عندك نبأ عن حديقة الأزبكية؟

ألم تسمع أن حديقة الأزبكية ليس فيها مكان تشرب فيه فنجانًا من القهوة أو الشاى إذا بدا لك أن تقضى فيها ساعة أو ساعتين لمحاسبة نفسك أو مداعبة خيالك؟

ويتحدث الناس فى هذه الأيام عن بحيرة قارون بمناسبة زيارة جلالة الملك لإقليم الفيوم. فهل تعرف أنه لايمكن قضاء ليلة بجوار تلك البحيرة إلا فى فندق أقامه هناك أحد الألمان؟

وهل سمعت أو سمع أحد من أصحابك أن شاعرًا مصريًا يقضى ليلة أو بعض ليلة وهو يداعب سمكات تلك البحيرة؟

وما رأيك فى (بحيرة التمساح)؟

هل سمعت لها خبرًا فى قصيدة أو رسالة أو كتاب لأديب من أهل هذه البلاد؟

وهل خطر لك أن تقضى ليلة بجوار تلك البحيرة عساك تعرف شيئا عن أخبار مدينة الإسماعيلية؟

ولا موجب لتذكيرك بالأقصر وأسوان: فالناس جميعًا يعرفون أن الأجانب هم الذين تشوقهم تلك المغانى. وإليهم يرجع الفضل فى إقامة أسواق الحياة بتلك المناسك. على أيامها ولياليها أطيب التحية وأزكى السلام!

ومالى أبعد بك فأنقلك إلى تلك البقاع النائية؟

هل أتفق أن تلقى درسا من دروسك بين الأشجار التى تحدق بكلية الآداب؟

وهل يفكر أستاذنا «لطفى باشا» فى محادثة طلبة الجامعة عن أرسططاليس تحت الدوح كما كان يصنع فلاسفة اليونان؟

ذلك يشهد بأن إحساسنا بالحياة يكاد يكون فى حكم المفقود، فما رأيك فى الدعوة إلى الطب لهذا المرض العضال؟

وكيف نطب لهذا المرض ونحن نرى الحديث عن الحب ضربًا من المزاح؟

كيف وقد تهيبت تقديم كتاب «ليلى المريضة فى الزمالك» أفصل به أسرار المجتمع وسرائر القلوب فى هذه البلاد بطريقة روائية تفيض على شبابنا روحًا من أرواح الوجدان، لكنى خشيت ملامة الفارغين من أشباه الأدباء.

فهل أرجو أن يصر قلمك بما تهيب منه قلمى؟

لقد وضعت لك الخطة بكتاب «ليلى المريضة فى العراق» فأرنى كيف تصنع وكيف تصور عصرك وزمانك كما صورت عصرى وزمانى. نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم، نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية والسياسية.

فهل أنت مستعد لاقتحام هذا الميدان؟

نحن نفكر فى خلق عصبية أدبية تعلو على العصبية الحزبية.

ولن نصل إلى ذلك إلا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات العقول، وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس. وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا إلى منازل الحكماء ويطمعنا فى الخلود.

ليتنى أستطيع مصارحتك بكل ما أريد فى خلق الحيوية الأدبية والفنية.

وكيف أستطيع وأنت كثير التلوم والتعتب. ولا يصل إليك الرأى الصريح إلا مشوبًا بتهمة التحامل عليك؟

أنت على كل حال من ذخائرنا الأدبية. وأنا أقبلك على علاتك كما تقبلنى على علاتى.

فهل يكون من الفضول أن أصارحك بأنك لا تقبل على حياة الوجدان إلا وأنت خائف. مع أنك قوى العبارة فى الإفصاح عن وساوس نفسك، ونوازع قلبك؟

وما خوفك وقد استقام لك أمر مصيرك الأدبى وصار اسمك من أظهر الأسماء؟ ما خوفك من الاعتراف بأن عاطفة الحب تستحق التشريح؟

وما الذى يدعوك إلى الاحتراس حين أقترح عليك تأليف كتاب عما أحس شعراء العرب من النوازع الوجدانية؟

أتخاف أهل الجمود؟

اطمئن. يا سيدى الدكتور فهم فى شغل عنا بمصايرهم الدنيوية. ولن يفرغوا لنا إلا بعد أن نفرغ من إعلام الناس بما نريد من شرح أوهام العقول والقلوب؟

أما بعد، فأنا أعلن عتبى عليك. لأنك ابتسمت ابتسامة فيها طيف من الاعتراض على اهتمامى بتشريح عاطفة الحب. وأصارحك بأن هذا مذهب أدبى سأحرص عليه مادمت أملك القدرة على تشريح العواطف والأحاسيس.

فافتح قلبك، يا سيدى الدكتور، لوحى الحياة والحب. واعلم أن الابتسام الصادق هو أثمن ما يملك الرجال.

وقد شاءت المقادير أن أستطيع مقابلتك فى كل يوم بعد أن صرت معنا فى وزارة المعارف، وسأحولك إلى حزبنا . حزب الإخوة الأدبية الذى يرى أقطار العربية جسمًا واحدًا إذا شكا منه عضو أسعدته سائر الأعضاء بالسهر والأنين.

وستريك الأيام بعد قليل أن الميزان الذى كنت احتكمت إليه فى تقدير العدوات والصداقات لم يكن أدق الموازين.. والله المسئول أن يديم عليك عافية القلب وشباب الروح.

زكى مبارك

١٩٤٠/٢/١٩

دمياط والمنصورة

الرسالة فى ١٩٤٠/٧/٢٢

وهتف سائل يقول: ما الذى أوجب أن نرى فى مؤلفاتك ومقالاتك إشارات رقيقة إلى دمياط.

وأجيب: بأنى لم أزر دمياط إلى اليوم. ولكنى موكل بالحديث عن البقاع الكريمة فى وطنى. فدمياط من ثغورنا البواسم وكان لها مقام محمود فى صد الغارات الصليبية. ولا تزال دمياط مرجع طوائف كثيرة من كرائم الأفئدة والقلوب ولن أنسى أبدًا طغيان البحر والنيل حول دمياط حيث غرق الروح الشفاف الذى أوحى إلى خاطرى بعض القصائد الجياد.

وأخونا الزيات يقيم اليوم بالمنصورة ليتقى الغارات الجوية. وأنا والله فى خوف عليه وما أخاف الميكروبات التى يخافها «أحمد أمين» وإنما أخاف على الزيات غارات العيون. العيون الفواتك التى تصاول الآمنين والغافلين. فتحول أرواحهم إلى أقباس أقسى وأعنف من طغيان السعير.

وكيف يذوق العذاب من ترحمه المقادير. فلا تدله على الطريق إلى المنصورة أو دمياط؟ ارجع إلينا يا «أحمد»[1] قبل أن تعضك سمكة من سمكات النهر الذى أعرف وتعرف. وإلا فانتظر قدومى إليك لأشاطرك النشوة بغناء الملاحين فى غفوات الليل.

ولكن هل عندكم ملامح تذكر أغاريده بأغاريد الملاح الذى سمعته مرة وهو يصدح فوق متن النيل فى الأقصر بهذا النشيد:

فـــايت عــلــى جــســـر الــنــيل قــابــلــونى اتــنــين حــلــوين

آخـد مـين واسـيب مـين يـا بـوى؟؟

وحدثتنا الجرائد بأن النيل يهدر بعنف فى أعالى السودان. فانتظرنى عندك لأرى معك بعد شهر واحد كيف يسهل صيد السمك فوق ذلك الشط بأيسر عناء..

أتخاف الحرب؟ لا تخف فأعمار الأشقياء باقية..

ارجع إلينا يا «أحمد» قبل أن تعضك السمكات بشط المنصورة. فقد عرفت بالتجرية أنها أفتك من سمكات شط العرب حرسك الله وحماك.

امن الإثم هــتــافى بــالجــمــال فى بلاد كل مــا فــيـهـا جــمــيل
لــو بــعــينى نــظــر اللامى وجــال لــرأى الــفــتــنــة فى كل ســبــيل

أكحلوا عين الزمان بمرود الحياة:

أنتم تسمعون أن الدنيا كلها فى حرب. أليس كذلك؟

بلى لكن الحياة لها مطالب روحية وعقلية تنسى الناس أحيانًا مخاطر الحرب . الرجل الضعيف هو الذى تقهره الظروف على أن يكون فى مهب الخطوب.. أما الرجل القوى فتصطدم به المتاعب كما تصطدم الموجة العالية بالصخرة العاتية.

لقد قذيت عين الزمان فأكحلوها بمرود الحياة..

كونوا أحياء فى كل وقت. واحذروا أقوال المرجفين الذين يزعمون أن الدنيا لم يبق فيها مجال لطرب الأفئدة وجموح القلوب.

لا تصدقوا الأستاذ «فكرى أباظة» حين يحدثكم فى المذياع عن عجبه من أن تعجز أعوام الحرب عن قتل تغريدة يا عين. ياليل.. فهذا الأستاذ نفسه لم ينقطع عن الغناء وصوته «أرخم» الأصوات.

هذه الحرب التى تعانون بلاءها عن قرب أو من بعد هى أيضا شهوة إنسانية أو حيوانية كسائر الشهوات. والمحرومون من حب الدنيا ومن الهيام بما فيها من نعيم لا يصلحون أبدا للتشهد فى ميادين القتال.

يجب أن تبقى حواسكم كلها سليمة حتى حاسة الذوق. وحاسة الجمال. لأن هذه الحواس هى الجوارح «التى تصولون بها فى ميادين الوجود» وهل يصلح إنسان للتفكير فى المنافع القومية حين يشغل تفكيره فى المنافع الذاتية؟

الجندى لا يصلح أبدا لاستماتته فى الدفاع إلا إذا كانت له فيه مآرب وأهواء.. أما الجندى الفارغ الرأس والقلب من المطالب الذاتية. فهو أداة عاطلة لا نفع فيها وعناء.

زادكم الأول هو مطامعكم وزادكم الثانى مطامعكم. وزادكم الثالث مطامعكم. وازوادكم الأصلية والفرعية هى مطامعكم فلا تعيشوا فى دنياكم بلا أطماع لئلا تتعدم قدرتكم على الجهاد.

لا تصدقوا الذين ينهوكم عن الابتسام للدنيا والوجود.

لا تصدقوا من يزعمون أن صرح النفوس فى أيام الحرب من نذر الفناء. الدنيا لكم ولسائر المزودين بالحيوية والأريحية والجذل والابتهاج. فما سكوت الشعراء وما سكوت المغنين عن التغريد فوق أفنان الجمال. وما الموجب للدعوة الأثيمة التى تريد أن تحول دنيانا إلى ملاطم ومناحات.

عزائمكم وأرواحكم وقلوبكم هى الذخائر الباقية.. وهى أسلحتكم فى مقارعة الخطوب. فلا تضعفوها باستماع الأراجيف، ولا توهنوها بالخضوع لخداع الأباطيل..

ود أعداؤكم لو تنقلبون إلى أشباح بلا عواطف، ولا أحساسيس.. فاحذروا الفتنة. فتنة الدعوة إلى تسريح الأمانى والآمال وأعلموا أن الرجل الحق هو الذى يعيش فى كل وقت بعواطف الأقطاب من الأحياء.

***

خطاب ضائع

الرسالة فى ١٩٤٠/٨/٥

كان صديقنا الأستاذ «صادق عنبر» ـ طيب الله ثراه ـ قد نشر فى مجلة «النهضة النسائية» سنة ١٩٢٧ خطابات غرامية قال: «إنه وجدها ملقاة فى الطريق. وصح عندى يومئذ أنه ابتدع تلك الخطابات. فكتبت إليه من باريس أهنئه على ذلك البدع الطريف.. فأجاب بأنه لم يبتدع تلك الخطابات. وإنما وجدها مصادفة فى شارع الدواوين وهو ذاهب إلى جريدة الأهرام» ولم أصدقه فيما ادعاه فى جريدة «البلاغ» بمقال لاذع بدد ما كان بينى وبينه من وداد.

ثم تشاء الأقدار أن تصحح رأيى فى ذلك الصديق المظلوم فقد وجدت أنا أيضا خطابا ضائعا.. وجدته فى شارع فؤاد وأنا ذاهب للسمر مع الأستاذ «وحيد بك الأيوبى» فى قهوة السلام بميدان إبراهيم. وأطلعت عليه جماعة من الفضلاء الذين صادفتهم هناك.

وإلى القارئ فقرات من ذلك الخطاب الضائع: ستر الله كاتبه وهداه؟

«تعاتبين؟ تعاتبين؟ وما الموجب للعتاب وقد صد قلب عن قلب. وزهد روح فى روح؟

ومن تعاتبين. يا شقية وقد انتهى عهد العتاب. ولم يبق من الذكريات غير أطلال؟

لا أراك الآن إلا حجرًا أصم أبكم. لا يسمع ولايتكلم وإن كنت تحسنين زخرف القول حين تكتبين إلى من حين إلى حين..

وتقترحين أن أزورك فى مدينة.. فهل تظنين أنى أطرب لزيارة مدائن الأموات؟

تلك غمزة من غمزات الكرب. عانيتها حين توهمتك إنسانة لها وعى وإحساس. ثم لطف الله فأفقت. وما كنت أحسبنى أفيق. كان غرامى نزوة من نزوات الطيش. وقد عقلت. والحمد لله على نعمة العقل؟

أمثلك يزار بوحى من القلب. وأنت رسم من الرسوم الهوامد. وقد انتهى عهد البكاء على الرسوم والطلول؟

ما أبكى عليك. يا شقية. وإنما أبكى على النعيم الذى ذهب منذ اليوم الذى انزاحت فيه الغشاوة عن قلبى.

كنت توهمت أنى عشقت. وكانت الدنيا لا تسعنى كلما خطر فى البال أنى أملك قلب امرأة لها فى دولة الحسن تاريخ.

ثم انجابت ظلمات الغواية فرأيتك مخلوقة من خزف. مخلوقة غبية بليدة حرمتها الأقدار نعمة الفهم لسرائر الأرواح والقلوب.

خرجت من هواك كما دخلت. فما أمدنى هواك بقصيدة رشيقة ولا مقال بليغ.. والأديب لا يعشق ليقال إنه عشق. وإنما يعشق الأديب ليطلع على الآفاق المجهولة من ضمائر الوجود. وأنت أنت. أنت الأنثى الغبية البليدة التى لا ينتفع الأديب من صحبتها بشىء. إلا أن يصير اسمه إعلانًا عن جمالها المظنون. وأنت والله جميلة. ولكن جمالك لا يزيد عن جمال التماثيل؟

إنما أبكى على نفسى. فقد كنت أحسبنى أهلاً لغرام أقوى وأعنف من الغرام الذى عانيت. ثم عرفت مع الأسف الموجع أننى شغلت قلبى بإنسانة ضعيفة لا تقدر على نقل القلب من مكان إلى مكان. فمتى تزحزح من مكانك يا قلبى؟ ومتى تعرف أن الهدى ليس أكرم عنصرًا من الضلال؟

لا تكتبى إلىّ بعد اليوم.. يا شقية. فقلبك أصغر من قلبى. ولم تكونى إلا طفلة نضجت قبل الأوان فتوهمت أنها قادرة على مساورة الرجال.

تلك فقرات من ذلك الخطاب الضائع، الخطاب الذى وجدته فى شارع فؤاد..

فهل رأيتم أسخف من كاتب هذا الخطاب.

الدنيا فى حرب وشقاء وبلاء. فكيف يجوز أن يكون فيها من يعشق ويلتاع؟

وفى قهوة بالميرا بمصر الجديدة صادفت الدكتور «مشرفة بك» عميد كلية العلوم فعرضت عليه هذا الخطاب على أنه نموذج من السفاهة والحمق.. فابتسم. وقال: العواطف من القوى الأساسية فى حياة الإنسان، ولابد لتلك القوى من غذاء. واستطرد فحدثنى أنه طرب حين رجع إلى معاهد الطفولة بدمياط. يوم كان يتقرب إلى الله بتقبيل ضريح الشيخ مظلوم؟

العواطف تحتاج إلى غذاء. كما تحتاج العقول.

* * *

(واضح أن الخطاب بقلم زكى مبارك. فهذا هو أسلوبه)

سجينة الزهرية

كلمة تفصل ألوانًا من أوهام وأحلام القلوب..

للدكتور «زكى مبارك»

الزهرية: إناء صغير مختلف الأشكال، فيكون حينًا لحفظ الزهيرات أيامًا بتغذية الطين. وباختلاف ما يحفظ يختلف شكله بعض الاختلاف. (مجلة الرسالة فى ١٩٤٢/٨/٣).

حديث اليوم عن شجيرة حفظت فى زهرية، فظلت كيومها الأول فى النمو والنضارة بضع سنين. مع أن أختها المنقولة إلى وعثاء الأرض فى الريف بلغت مبلغ الدوحة الباسقة فى أقصر زمن وبأيسر عناء.

هل كان يغيب عنى السبب فى تفاوت الحظ والمصير عند هاتين الأختين؟ لا.. و إنما أردت أن أعرف من أحوال «سجينة الزهرية» أكثر مما أعرف. فدار بينى وبينها الحوار الآتى ذات صباح:

- كيف حالك. أيتها الشجيرة الغالية.

- حال من يعيش تحت حماية القوانين!

- أنت إذًا سعيدة؟

ـ سعيدة جدًا ألا ترى أن وجهى لم يتغير منذ التعارف الأول؟!

ـ وإلى أى عهد يرجع ذلك التعارف السعيد؟

ـ أنت تعرف التاريخ، فقد كنت أنا وأختى هديتين لك من حديقة الصديق (..)، ثم كانت السعادة من نصيب أختى. وكانت الشقاوة من نصيبى!

ـ ألم تقولى: إنك سعيدة؟

ـ حسبتك فهمت مرادى حين أخبرتك أن وجهى لم يتغير منذ التعارف الأول!

وهل تكون السعادة فى غير الثبات على نضارة الشباب؟

ـ أهذا هو فهمك للسعادة. أيها الآدمى الحصيف؟

ـ وما فهمك أنت للسعادة، أيتها الشجيرة الحمقاء؟

ـ أخرجنى من سجن القانون لأملك الرد عليك!

ـ أى قانون؟

ـ قانون الزهرية.

ـ وما عيب قانون الزهرية؟

ـ أنه يحبسنى فى تربة قصيرة المجال.

ـ لكنه لا يحبسك عن السماء، وهى أرق من الأرض وأنفس!

ـ السماء للفروع، والأرض للجذور، ولا فروع لشجرة لم يثبت أصلها فى الأرض. فأمكن جذورى من الأرض. لأطاول السماء بفروعى. كما صنعت مع أختى.

ـ لست مسئولا عن تدليل الأخوات!

ـ ولست مسئولة عن إمتاعك بدوحة تصد الهجير عن دارك.

ـ أفصحى، أيتها الشجيرة. عما تريدين.

ـ أنت فرقت بينى وبين أختى، ثم أنصفتها وظلمتنى!

ـ قولى غير هذا القول، فقد حفظتك بدارى فى مصر الجديدة، وأرسلتها إلى دارى فى سنتريس، ودارى هنا تنال من رعايتى أكثر مما تنال دارى هناك، فما شكواك. أيتها البلهاء؟

ـ شكواى من القانون!

ـ أى قانون؟

ـ قانون الزهرية.

ـ وما عيب قانون الزهرية؟

ـ أنك تتجاهل تجاهل العارف.

ـ ولعلنى أتعالم تعالم الجاهل!

ـ حوشيت من تعالم الجاهلين! وهداك الله إلى إخراجى من سجن القوانين!

ـ أوضحى يا بنيتى.

اخلع نعليك أوضح لك!

ـ يا سفيهة!

ـ لست بسفيهة، وإنما أحب أن تحدثنى عن السبب فى طول قدميك.

ـ كان ذلك لأنى كنت فى طفولتى وحداثتى من الشياطين، والشياطين لا يلبسون النعال. فطالت قدماى!

ـ وهذا الشرح لقول العرب «فلان ثابت القدم» فالقدم لا تثبت إلا بعد اتصافها بالعرض والطول.

ـ تلك عبارة مجازية.

ـ العبارة المجازية فرع عن العبارة الحقيقية. فالقدم لا تطول إلا بفضل التحرر من القيد، والنعل قيد وإن زعموا أنه يقى القدمين متاعب الجفاء. وهو يصنع بالأقدام بعض ما تصنع الزهريات بالشجيرات.

- أوضحى يا حمقاء!

- الزهرية حفظت علىّ شكلى الأول، فأنا كما عهدت منذ سنين، والمخلوق الذى لا يتغير شكله ميت ميت. لأن الحياة تجدد وتغير وتبدل. وذلك حظ أختى التى حررت من قانون الزهرية فألقيت فى أحضان الأرض البراح بسهول سنتريس..

- أوضحى، ثم أوضحى!

- التحرر من سجن الزهرية يكون من حق الشجرة أن تساور ما فى الأرض من زادٍ طيب أو خبيث، فتكون لها طعوم مختلفات، ويكون لها فى كل يوم لون أو ألوان، وكأنها الأديب الذى يقرأ فى لغات مختلفة لحكماء مختلفى الأفكار والأذواق.

- أوضحى، أوضحى!

- خلّصنى أولاً من سجن القانون.

- أى قانون؟

- قانون الزهرية.

- ولكن هذا القانون هو الذى حماك من التغير والتلون، وحفظ عليك هذا الشكل الجميل!

- الجمال الذى لا يتغير ولا يتلون هو جمال التماثيل، وأنا شجرة لا تمثال.

- أيجوز أن أساعدك على التغير والتلون والتقلب؟

- ليكون من حقك أن تقول إنك أبدعتنى.

- أنا أبدع التلون والتغير والتقلب؟

ليكون من حقك أن تقول إنك تتأدب بأدب الله. وهو عز شأنه قد افتن أعظم الافتتان فى إبداع الألوف والملايين والبلايين من الملامح المختلفات فى اللغات والطباع والأحاسيس، وإذا كان رقم الديشيليون صورة وهمية فهو فى أفعال الله صورة تقريبية، لأنه قد يعرض الفرد الواحد من عبادة لآراء وأهواء تفوق الدشالين.

ـ وتريدين أيتها الشجيرة أن تكونى كذلك؟

ـ خلصنى أولا من سجن القانون.

ـ أى قانون؟

ـ قانون الزهرية!

ـ يظهر أننا لن ننتهى من هذا الحوار السخيف!

ـ أمن السخف أن أطالب بحقى فى الحرية؟

ـ أية حرية؟

ـ حرية الجذور فى اعتصار أمواه الأرض.

ـ وفى تلك الأمواه ما هو خبيث.

ـ الحياة لا تعرف الفروق التى يعرفها الآدميون فى تقسيم الأشياء.

ـ ماذا تقولين؟

ـ أقول إن الحياة مزاج من الحلو والمر. والطيب والخبيث. وهى نفسها لا تلتفت إلى هذه التقاسيم، ولعلها تجهل الفرق بين الريح الصرصر والنسيم العليل..

ـ وإذن؟

ـ وإذن لا يكون الخير كل الخير لشجيرة مثلى أن تكتفى بشرب الماء المقطر، وأن تعيش فى تربة ضيقة الحدود. وإن كانت غاية فى النقاء. ولا ينفعنى بشىء أن تتلطف فتحيينى فى غدوك ورواحك مرة بالعربية ومرة بالفرنسية. كأننى إحدى بنات الجيران!

ـ لم يثمر فيك الجميل يا شقية!

ـ أىّ جميل؟ خلصنى من سجن الزهرية لأمتص ما فى الأرض من عذوبة وملوحة. ولأصاول ما فيها من أسباب النعيم والشقاء، فما تضخم شجرة. ولا تستفحل فكرة. ولا يستحاد عقل. إلا بمكابدة ما فى الوجود من أطايب وصعاب.

- وما جزائى على الصنيع المنشود؟

- هل تجهل أنى سأصير دوحة تصد الهجير عن دارك؟

- لا أجهل. لكنى أخاف عليك عواقب الطول والإيراق.

- ما تلك العواقب؟

- أنت اليوم فى أمان لأنك صغيرة محبوبة. فإذا ضخمت وطلت وعظمت، فقد صار من حق كل سفيه أن يرجمك بالحصيات الغلاظ لتجودى عليه بشهى الثمار، أو لينتفع بأوراقك فى تغذية الدواب.

- الشجرة الكريمة تجود بالثمر والورق، قبل السؤال.

- هذا كلام فى كلام!

- خلصنى من سجن الزهرية، ثم اختبر أخلاقى فى البخل والجود.

- أنا أعرف أنك من سلالة بخيلة.

- البخل عن إرادة باب من أبواب العقل. ومهما بخلت فلن أبخل عليك. فلن يغيب عنى أنك تملك إروائى وإظمائى. وأنك قد تصيرنى حطبا حين تريد. فأنا مقهورة مقهورة على مسايرة هواك.

- ما أنت شجرة. إن أنت إلا روح جريح.

- نعم، فقد تقدم أترابى وتخلفت. بفضل الحياة تحت حماية القوانين.

- قولى كلاما غير هذا، فبفضل قانون الزهرية عشت فى أمان، من الغربان.

- لأنى بقيت صغيرة محبوبة أتلقى التحيات الآدمية فى الصباح والمساء؟

- هو ذلك!

- أنت إذن تجهل فرح الدوحة العظيمة بأن يكون عرقها غذاء للنمال، وبأن تكون أعاليها ملاذا لكل خائف. وبأن تكون ثمارها منية كل جائع. وبأن تكون عرضة فى كل وقت لتطاول الأوباش والسفهاء.

- وما الموجب لهذه المتاعب؟

- العظمة فى جميع الخلائق من جماد ونبات وحيوان وإنسان لا يتصورها الوهم أو الحس أو العقل إلا محفوفة بالمكاره والصعاب، وليست السعادة بالميزان الذى نعرف به الأقدار الصحيحة لمختلف الخلائق. وإنما الميزان الحق هو الشقاء بالخلق وقد سمعت أنه أشرف ما ظفر به الأنبياء.

- إن كان الشقاء هو ما تبتغين فقاسمينى حظى، يا شجيرتى الغالية.

- أنا أطلب الاستقلال.

- حتى فى الشقاء؟

حتى فى الشقاء. لأشعر بقوة الذاتية.

- وهل تضعف الذاتية حين يتساقى المحبون كأس العذاب. شفة إلى شفة. وقلبًا إلى قلب.

- أنت تحبنى؟

- وأى حب؟ ألا تذكرين أننى سقيتك مرات كثيرة من دموعى؟

- متى كان ذلك؟

- إن ذلك يقع فى كل يوم، وفى غفلة الجنان، فأنت وليدة الحب والدمع، لا سليلة الماء والطين.

- وكيف خصصتنى بهذا البر النفيس؟

- جمع بيننا اليتم القاسى، فأنت يتيمة فى صحراء مصر الجديدة. وأنا يتيم فى بيداء الوجود. ولن تظمأى ولن تجوعى وأنت فى ضيافة قلبى وروحى. وما حبستك فى سجن الزهرية إلا رغبة فى أن يطول نعيمك بالطفولة الغافية. أيتها اليتيمة العصماء.. خذى حياتك أيتها الشجيرة من عطفى وحنانى. فما لك بعدى أبا ولا أخا ولا صديقًا. أنا نصيبك من دنياك كما كنت نصيبى من دنياى، وضلوعى هى زادك من القوت إن عزت الأقوات.

ـ أكنت حقا نصيبك من دنياك؟

ـ أنت الصديق الذى لم يتغير فى مدى سبع سنين. فأوراقك أوراقك. ومرآك مرآك. بفضل القانون.

ـ أى قانون؟

ـ قانون الزهرية، يا بلهاء. فهو الذى حفظ عليك نعمة الشباب.

ـ ولا يوصف باليتم غير الأطفال، فإن أبحتك ملوحة الأرض فلن تظفرى بعد اليوم بملوحة دمى. لأن الأرض ستصيرك بعد قليل امرأة شمطاء.

ـ سعادة القاصرين لا تقاس إلى شقاوة الراشدين.

ـ أوضحى يا حمقاء.

ـ قد أوضحت، ثم أوضحت، فأتمم جميلك وامنحنى الحرية والاستقلال.

ـ منحتك الحرية والاستقلال.

ـ كنت بالأمس راعيا. وأنت اليوم صديق. وما أبعد الفرق بين الراعى والصديق.

زكى مبارك

دار الهوى فى عيد القمر

أخى الأستاذ الزيات:

هل تذكر أنى وجهت إليك مقالاً من بغداد عن «القلب الغريب فى ليلة عيد» منذ نحو أربع سنين؟.. وهل تذكر أنى تشوقت إلى دار تحب العيد وتحن إليه لأنها ترانى مع العيد؟

ذلك مقال قبسته من نار قلبى. وأخذت مداده من دمى. وأرسلته تحية إلى دار عظمت ديونها على قلمى.

وإنما وجهت إليك ذلك المقال لأثير فى روحك التشوف إلى تعليل ما تعانى الأرواح من متاعب ليس لها فى الظاهر سناد من مطالب المجد فى هذا الوجود.

فهل فكرت فى تعليل هذا المعنى؟

وهل حاولت الدفاع عن الأعمال التى تضيع فى تشريح نوازع الوجدان؟

أنا أطالبك بالرجوع إلى الوجدانيات. بجانب ما أقبلت عليه من الاجتماعيات. فقد كاد الأدب يخلو من الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب، ولا قيمة للأدب إن أغفل الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب!

وإليك القصة الآتية:

فى حفلة من إحدى حفلات الطوائف المسيحية تسابق الحاضرون لتقبيل يد البطريرك. فرأيته ينهض بقوة ليعانق من يسارعون إلى التسليم عليه. مع أنه فيما سمعت قد جاوز التسعين.

وعندئذ غلبنى الفكر الفلسفى فقلت لجارى فى المحفل: إن راحة رجال الدين من هموم الحياة تمنحهم طول الصحة والعافية.

فقال جارى بتحمس: كيف ترى ذلك وغبطة البطريرك يحمل هموم الطائفة كلها ويعنى نفسه بالدقائق الخفية لجميع البيوت؟

فقلت: المتاعب الفردية أعنف من المتاعب العمومية فالرجل الذى يحمل هموم بيت يعد أهله بالآحاد أشقى من الرجل الذى يحمل هموم طائفة يعد أباؤها بالألوف أو الملايين. وهل يحزن وزير المعارف لسوء نتائج الامتحانات العمومية بقدر ما يحزن لو رسب ابنه فى الامتحان؟

إحساسنا الصادق يصدر عن متاعبنا الذاتية أولا وقبل كل شىء. ثم يتفرع فيتصل بالمجتمع القريب أو البعيد. وهل بكى النبى محمد لوفاة أى طفل كما بكى لوفاة ابنه إبراهيم؟

وإذن يكون من حقى أن أقول إن الأدب الذى يصور الذاتيات هو أصدق الآداب. وهو الآية الباقية على الصدق الأصيل. فمن الجناية على الأدب أن نشغل أقلامنا بهموم خارجية قبل أن نستوفى التعبير عن همومنا الداخلية.

للمجتمع حقوق على القلم البليغ. يوم يتأثر الكاتب بتلك الحقوق. ويوم يرى أنه عن تأييدها مسئول أمام الضمير الأدبى لا أمام الناس.

وأنت ذلك الكاتب. يا صديقى. فاتجاهاتك الاجتماعية تشهد بأنك تحس آلام المجتمع أصدق إحساس. وسيكون لك فى هذا الميدان مكان يحفظه التاريخ.

وأنا أرتضى لنفسى ما أرتضى لك. لولا تلك الدار التى أسرت قلبى عدداً من السنين. ولم أستطع التحرر من أسرها بأى جهاد.

إن تاب الله علىّ من الهيام بتلك الدار. فسأجاريك فى ميدانك. وسيطول بينى وبينك السجال. لكنى أرى الله أكرم من أن يجود بذلك المتاب؛ لأن نعمته علىّ فى هذه الضلالة أعظم من نعمته بالهداية على من يغضون أبصارهم عن سحر الجمال.

وهل كان من العبث أن يتفضل الله فينوّع الخلائق بهذا الوجود؟

إنه نوع الخلائق لينوع العواطف.

هل تذكر ما تصنع النسائم بالسحاب والرمال؟

رأيت بالأمس عجبًا من العجب: رأيت سحبًا مطرزة بسماء «مصر الجديدة» على أظرف ما يكون التطريز. وبدا لى أن أجوب الصحراء فى ذلك الوقت فرأيت النسائم صنعت بالرمال ذلك الصنيع.

أيعجز قلم الكاتب الصوّال عما يقدر عليه النسيم الجوّال؟

النسيم يعبث. وما وصف النسيم بغير العبث. ثم تكون له القدرة على هذا الافتتان. فكيف نعجز فى الجد عما استطاعه النسيم فى الهزل؟

الدار التى أهوى تضلنى وتغل عقلى بأوثق الأغلال.

الدار التى أهوى تصنع بقلبى فوق ما تصنع النسائم العوابث بالسحائب والرمال.

الدار التى أهوى حرمت أضواء المصابيح أكثر من شهرين. وإلى معاد، أو غير معاد. فما أدرى ما تضمر الأقدار لمصاير ذلك الهوى النبيل، ولا أعرف متى نلتقى طائعين أو كارهين.

كل يوم لنا عتاب جديد، ينقضى دهرنا ونحن غضاب.

إن تلاقينا - ومتى التلاقى - فستكون لنا شئون وشجون.

إن عادت الدار إلى العهد الذى أعرف فسأكون من الحجاج فى العام المقبل. وسأنفق جميع أموالى على الفقراء والمساكين.

ثم ماذا؟

ثم أقص على الأستاذ الزيّات هذا الحديث:

فى صباح اليوم وأنا فى طريقى إلى الواجب. قرأت فى إحدى الجرائد أن المحكمة الشرعية أعلنت أن شهر ذى الحجة يبتدئ بيوم الأربعاء. فعرفت أننى

حرمت رؤية الهلال ثلاث ليال. ثم خف حزنى حين تذكرت أن القمر غاب عن تلك الدار أكثر من شهرين.

ما هذه اللجاجة فى الحب؟

وما الطمع فى كرم الزمان البخيل؟

ارجعوا إلى الدار. دار الهوى قبل أن تسمعوا من نذير الأقدار مالا تحبون.

ارجعوا إلى دار الهوى فى عيد القمر غير مأمورين.

ارجعوا، فللدار التى شهدت مولد هوانا حقوق.

ارجعوا، فالفضيحة فى غرامى تكريم وتشريف. لأنى قيثارة الغرام فى ألحان الخلود.

عيد القمر آتٍ بعد ليال، فهل أراكم فى غرة الليالى؟

القمر يفى. فهل تفون؟

القمر يساير الفصول من شتاء وربيع وصيف وخريف، فهل تسايرون أحوالى من نزق وطيش وفرار ووجود؟

أنا أنا، فهل أنتم أنتم؟

لقد صبرت وصابرت لتشهد أحجار تلك الدار أن لها بقايا من الوفاء التى تدخره كرام القلوب.

سينطق الحجر قبل أن تنطقوا. ولقد نطق فحيانى ألوف المرات وأنتم فى غاية العقوق.

وماذا تنتظر منى تلك الأحجار؟

إنها ترجو منى ما أرجو منكم. ترجو سلامًا من عابر سبيل، وأنتم هددتم وتوعدتم بأن لا لقاء فى غير الفضاء.

عودوا إلى الدار، دار الهوى، عودوا إليها سالمين غانمين، فإنى أعد لكم قتالاً ألطف وأرفق من السلام.

عودوا إلى الدار فى عيد القمر، وهو آت بعد ليال.

عودوا إلىّ فما قلبى بمصطبر	على نواكم ولا فى العمر متسع
إن مت قبل لقاكم أو فقدتكم	قبل الممات فحظى عاثر ظلع

أنا فى انتظار القمر بعيد القمر. فهل يعود مع العيد؟ وهل أشهد كلف جبينه وهو غضبان؟

عودوا إلى الدار لا إلىّ، فقد كادت أحجارها تذوب فى نار الاشتياق.

يا غاضبين علينا كيف حالكمُ	وكيف دارٌ بها للروح مرتبع
دار جلونا بها حينًا سرائرنا	كان أيامها فى صفوها جمع
لم يغدق الله فضلاً فاق نعمته	بوصل روحى بكم والشمل مجتمع

أما بعد. فما رأى صديقى الزيات فى هذا الحديث؟ وهل يرانى فى ضلال و أنا أناجيه بما لا يريد بعد أن هجر صديقه مرتين؟

حال العين حال القلب، وللعيون والقلوب أحوال.

ولقد أشار طبيبى بنظارة تمنع التشرد من أضواء عينى، فمتى يشير طبيبى بنظارة تمنع التشرد منّ أضواء قلبى ؟

لن يكون لقلبى حدود. لن تكون تلك الحدود ولن تكون. وسيعجز الطب عن جمع الأشعة من أنوار القلوب.

متى نلتقى يا دار هواى؟ متى؟

عيد القمر آتٍ بعد ليال، فهل نتقابل بعد ليال؟

زكى مبارك

الرسالة فى ١٩٤٢/١٢/٢١

معادن الأرواح والعيون

لكل روح معدن أو جوهر أو عنصر، إلى آخر الألفاظ التى تعبر عن الأصول، والأرواح توحى بأساليب لا تعرفها العيون. وهل كانت العيون إلا وسائل الأرواح فى الإيحاء؟ استغفر الحب. فقد قلت من قبل إن للعين وجودًا ذاتيًا يستقل عن الروح بعض الاستقلال فى بعض الأحيان.

وما سر العيون على التحقيق؟

هل يعرف أحد كيف كونت تلك الخلائق اللطيفة بهذا الوضع اللطيف؟ الوجود كله مدين للعيون، فهى التى شهدت بما فيه من جمال وجلال. وهى التى قالت إنه وجود.

وما هذا الصنع العجيب، صنع الله فى إبداع العيون؟

ينقضى الدهر ولا ينقضى العجب من القدرة المطوية فى سريرة مخلوق رقيق اسمه العين وستمر أزمان قبل أن يعرف سر هذه الجارحة الظلوم.

وما قدرة الطب فى تعليل هذه القوة الصمدانية؟

هل يعرف كيف تنظر حتى يعرف كيف توحى. وهى أعجوبة الأعاجيب فى النظر والإيحاء؟

ومع هذا فقدرة الأرواح أعجب وأغرب. فهى ترسل السهام من إقليم إلى إقليم وقد تصادق وتعادى وأصحابها أموات فى عرف الناس.

ذلك المفكر الذى يعبر الآفاق لغزو العقول بعد أن تمر على موته آلاف السنين ما سر قوته الروحية؟ ما سره وقد اجتاز أسوار روما بعد ألفى سنة ليقبل أحد تلاميذه بالقاهرة؟

وذلك الشاعر الذى قال:

إذا نشرت ذوائبه عليه	حسبت الماء رف عليه ظل

هل كان يتوهم أن المطربة فتحية أحمد ستنقل خياله بالمذياع إلى جميع الأقطار العربية بعد أن نسيه القاهريون؟ سمعت هذا البيت مع الأستاذ سعد كامل. فعجبنا من قدرة الأرواح على اختراق الأزمان.

وقال الشريف الرضى:

سهم أصاب وراميه بذى سلم	من بالعراق لقد أبعدت مرماك

فهل كان يخطر ببال الشريف أن هذا المعنى سيكون حقيقة لا مجازًا فيما سيخلف عصره بأجيال طوال؟

وقال شاعر قديم:

غنت سليمى بالحجاز	فاطربت من فى العراق

فهل كان ينتظر الشاعر أن تصح نبوءته فأسمع من القاهرة صوتًا يغزو روحى وأنا فى سهرة بمدينة النجف؟

لقد قضى ذلك الصوت بأن تكون ليلتى ليلاء.. وأن أعود إلى بغداد وأنا مفطور الفؤاد.

وما معنى قول البهاء زهير شاعر الفطرة المصرية:

إن حالى لعجيب	ما يرى أعجب منه
كل أرض لى فيها	غائب اسأل عنه

أليس شاهدًا على استعباد الأرواح بالقلوب. وإن تباعدت البلاد؟

أما بعد. فهذه الكلمة تحية للروح التى يئست من وفائى؛ الروح التى ضننت عليها بإعلان حبى. لتعيش فى أمان من سفاهة الرقباء.

يا مصدر الوحى، على البعد واليأس، ويا روحًا هى الروح، ويا تحفة فنية صاغها الفنان المعبود ويامن لا أسمى ولو سئلت يوم الحساب فى حضرة صاحب الجبروت سلام عليك وألف سلام.

أنت أمامى حيثما توجهت وغضبك علىَّ أعذب من الرضوان يا مهاة لا تخطر إلا فى البال.

ثم أما بعد، فأنا مؤمن باختلاف المعادن فى الأرواح والقلوب. وروحك يا شقية هى الروح. وسبحان من لو شاء لجعلنى من عينيك فى أمان. متى نلتقى على الشط بالرمل. لأقول مع الشريف:

ولو قال لى الغادرون ما أنت مشته   غداة جزعنا «الرمل» قلت أعود

قال بديع الزمان فى المقامات على لسان الفتح الإسكندرى:

إسكندرية دارى   لو قر فيها قرارى

ويرى الأستاذ إسعاف النشاشيبى أنها إسكندرية مصر فى مقال نشره بالرسالة وهو يحيى الشواربى باشا. ويرى الشيخ محمد عبده فى شرح مقامات البديع أنها بلد بالأندلس. ورأيت بعينى وقلبى أن إسكندرية أبى الفتح بلد بالعراق.

فمتى نلتقى فى إحدى الإسكندريات الثلاث، بغض النظر عن اختلاف الأقوال؟ إن رمل الإسكندرية هو «الرمل» الذى عناه الشريف. وسنلتقى هناك بعد أسابيع.

الرسالة: ١٩٤٣/٦/٢٨

القلب الغريب

فى ليلة العيد

أخى الأستاذ الزيات:

هل تذكر ما حدثتنى به منذ سنين؟ هل تذكر أنك تشهيت مرة أن توجّه إلىّ خطابًا على صفحات «البلاغ» عنوانه: «من غريب إلى غريب» وكنتَ فى بغداد، وكنتُ الغريب فى باريس؟ (مجلة الرسالة ـ يوليو ـ ١٩٤٣)

ولم تحدثنى عما أوحى إليك أن تفكر فى إنشاء ذلك الخطاب. فهل أستطيع أن أرجح أن ذلك كان بعد أن نشرت أنا رسالة «من غربة إلى غربة بين القاهرة وباريس».. تلك الرسالة التى فضحت بها مكتوم صدرى ومكنون هواى؟

على أننى لن أكتب مثل تلك الرسالة مرة ثانية. فقد انتهى عهد الغربة بالقاهرة. وقضى الحب أن أشهد كيف تنهمر دموع الملاح يوم رحيلى إلى العراق.

انتهى عهد الغربة بالقاهرة. وحلّ عهد الاغتراب عن القاهرة. فمن يردّنى إليها ليلة أو ليلتين لأقضى حق التحية تحية المعانى الأهلة التى كانت تتشوف إلى العيد. لترانى مع العيد!

ليتك يا صديقى تعرف نعمة الله عليك فى بلد لك فيه أهل وأحباب. ولا أراك الله حسرتى وعذابى وأنا أتجرع كأس الغربة فى ليلة العيد!

ولكن هل من السياسة أن أعلن غربتى فى بغداد. وقد لقيت فيها أهلاً بأهل. وجيرانًا بجيران؟

إن قيل ذلك فأنا أعلن أنى لا أعانى غربة العقل. وإنما أعانى غربة القلب.

وكيف أعانى غربة العقل ومحاضراتى يشهدها المئات من عشاق العلم والبيان. ولا أخطو خطوة إلا وأنا محوط بالعطف والإعجاب، ولا أدخل ناديًا إلا تلقانى أهله وسامروه بالترحيب والتبجيل؟

ولكن هل يكتفى مثلى بحياة العقل وياضيعة العمر إن كتب علينا ألا نظفر بغير الثناء من عقلاء الرجال! وما أضيق العيش إن كانت لا تلمع بروقه إلا من صرير القلم وسواد المداد!

إن الحياة العلمية ليست إلا خدعة يتلهى بها أرباب القلوب. وهل يخفى عليك ما يعانيه رجل مثلى حين يعود وحيدًا إلى منزله بلا أنيس ولا رفيق؟ هل يعزيه حينذاك أن يتذكر أنه كان منذ لحظات يعاقر الفكر والرأى وهو يلقى محاضراته على جمهور من العلماء والأدباء؟

ليتك ترانى وأنا أدخل إلى غرفتى شارد اللب فأزيح الستائر عن النوافذ ثم أطفئ المصباح لأقف وجهًا إلى وجه مع ظلام بغداد. ويا رحمة الله من ظلام بغداد فى لياليها الطوال!

ولكن ما الذى يدعونى إلى معانقة الظلام فى بغداد؟

لا أعرف، ولكن يخيل إلىّ أن الظلام يؤنسنى بعض الإيناس لأنه يوهمنى أنى فى فترة من الزمن تأنس فيها القلوب بالقلوب. وتسكن الأرواح إلى الأرواح. وربما كان الظلام فى غرفتى فرصة طيبة أتبين فيها بصيص النور فى منزل قريب أو بعيد فأتمثل أخيلة النجوى والعتاب، وأتوهم ضجيج المرح فى ليالى الوصال.

* * *

أما بعد، فهذا غروب اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان.. وهذا مكانى على المائدة فى المطعم الذى تخيرته بشارع الرشيد - وهذه أطياف ترد على

القلب. من أحباب القلب، أطياف من مصر الجديدة والزمالك. تلك البقاع التى لم تر فيها النجوم قلبًا مثل قلبى. ولم تسدل ستائرها على هوى أعنف من هواى.. وليقل من شاء ما شاء!

وأسأل جارى على المائدة: هل ثبتت الرؤيا؟

فيجيب: سنعرف ذلك بعد ساعة أو ساعتين.

وأخرج فأتصفح الوجوه فى شارع الرشيد بلا نفع ولا عناء. ثم أميل على الشرطى أسأله: هل ثبتت الرؤيا؟

فيجيب: لم تثبت، ولكن المحكمة تنتظر برقية من النجف.

فأدمدم: برقية من النجف؟ وهل يسر من فى النجف أن يفطر من فى بغداد؟ إن كان الأمر لعلماء النجف فسيضيفون إلى الصوم يومين. ولولا أن يفضحهم الهلال لزادوا الصوم أسبوعين.

وأذهب إلى نادى المعارف لأسمر لحظات مع الزملاء من المدرسين. فيفرحون بلقائى ويسألون: كيف غبت أمس فأقول غبت أمس وحضرت اليوم. ولكن حدثونى هل عندكم أخبار عن الهلال؟ فيجيبون : سنعرف ذلك بعد الساعة العاشرة: فأقول والشمس تغرب فى الخامسة. فهل يمكن أن يكون بين الخامسة والعاشرة مجال لرؤية الهلال؟

وبعد لحظة تحول إبرة المذياع إلى مصر فأسمع فتاة تباغم المستمعين فتقول: سادتى وسيداتى. هذا آخر العهد برمضان!

فأقول: يا إخوانى. يا حضرات الأساتذة يا مسلمين يا أولاد الحلال. هذه فى مصر ليلة العيد.

فيجيب أحدهم وهو يبتسم: علمت شيئًا وغابت عنك أشياء. ألم تعلم أننا صمنا يوم الجمعة وصام المصريون يوم الخميس. فهم حتمًا يسبقوننا إلى العيد؟

فأقول: من هنا تعلمون أن مصر تقدمت فى كل شىء. فلها السبق فى الصوم ولها السبق فى العيد. وأنصرف محزون الفؤاد.

* * *

هذه غرفتى موحشة لا يؤنسنى فيها غير أرواح الموتى من المؤلفين، وسيكون الغد يوم عمل؛ لأن يوم الوقفة لا عطلة فيه فى بغداد. وإذن فسأعطى غدًا درسًا فى التفسير. وهو درس متعب لأنه فى الكشاف. وفى آية يختلف فيها أهل السنة مع أئمة الاعتزال.

وكيف أعدّ الدرس. يا رباه. وأنا أعرف أنها ليلة عيد فى مصر الجديدة والزمالك! وغضبة الله على من تمر بباله خاطرة ملام وأنا أردد أسماء تلك المغانى. حرسها الله. وأدام لأهلها نضرة النعيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

«يأيها الذى آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون».

قال جار الله الزمخشرى..

هذه طلقة مدفع!

وقال ابن حجر فى الردّ عليه..

وهذه طلقة مدفع! وكيف نوفق بين القولين؟

وهذه طلقة ثالثة!

ولكن ما الساعة الآن؟

الساعة العاشرة. إذن ليست هذه مدافع السحور ولا مدافع الرفع. وإنما هى مدافع العيد.

وأطفأت المصباح. وتلفت إلى النافذة لأرى ظلام بغداد. وقلت: هذه ليلة عيد بالإجماع. فلأرح نفسى من الكشاف. ولجاجة صاحب الكشاف ولأقبل على قلبى أتبين ما فيه من فطور وندوب.

وتذكرت أننى كنت أكتب رسالة وجدانية فى كل ليلة عيد. ثم انقطعت رسائلى بعد أن مات أبى يرحمه الله. لأننى أنفت أن أبكى بعده على غرض مضيّع أو هوىً مفقود.

ثم بدا لى فى هذه الليلة أن أبى لا يسره فى قبره أن تعيش مهجتى بلا لوعة، ومقلتى بلا دمعة. وكان يرحمه الله جذوة من الوجدان.

وعدت إلى الظلام أستلهمه وأستوجبه فلم أجد من أحاوره غير الرجل الحزين الذى اسمه أحمد حسن الزيات..

صديقى:

هل تذكر فكاهتك الطريفة إذ تحدث إخوانك أنك عرفتنى أول مرة عن طريق البوليس؟

هل تذكر أن البوليس دعاك مرة إلى زيارة المحافظ فتوجست خيفة. ثم رأيت أن الخطب هين لأنك دعيت لتتسلم رسالة من الشيخ «زكى مبارك» الذى اعتقلته السلطة العسكرية أيام الثورة المصرية؟

ألا فلتعلم أن الحظ قضى عليك ألا تتلقى منى رسالة إلا فى ظروف تحيط بها شبهات. فإن كانت الرسالة الأولى فى عهد ثورة فهذه أيضا فى عهد ثورة. وربما كانت هذه أعنف وأفظع لأنها تحدثك عن صديق حزين يناضل الأرق والسهاد فى ليلة عيد.

صديقى!

لا تعجب من رجل يضنيه الحزن والابتئاس مع أنه ينهض بأثقل الأعباء. فدنيا القلب غير دنيا العقل. والشواغل الجسام لا تلهى الرجل عما يساوره من لواذع الإحساس. وأنا رجل يؤمن بأن القلب أدق ميزانًا من العقل. وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ هدايته من الفطرة. على حين لا يهتدى العقل إلا بالبراهين، وهى فى الأغلب تقوم على مقدمات لا تخلو من تضليل.

صديقى!

هذه الساعة الأولى بعد منتصف الليل. وستقرأ هذه الرسالة فتذكر أنك أرقت فى ليلة العيد بلا سبب معروف. فلتفهم حين تقرأ هذه الرسالة أن ذلك الأرق إنما كان هدية أرسلها إليك الغريب فى بغداد: الغريب الذى يوحى الحزن إلى الأشقياء الغرباء.

والآن أطفئ المصباح لأعانق الظلام فى المدينة السحرية التى شقى بلياليها ملايين الرجال. فلا أرى غير بصيص ضئيل لمصباح أقامته الحكومة على شاطئ دجلة، فأفهم أننى أخاطب الأموات لأن مصابيح الحكومة لا تدل على شىء. ولا يهتدى بها غير لصوص الجيوب.

الآن تهدأ بغداد بعد أن تسدل أستارها على الغافين من السعداء والبائسين. ويبقى المسهد الغريب الذى لا يعرف ربيع القلب. ولا نعيم الجفون.

فى هذه الليلة تهدأ جنوب. وتقلق جنوب، وجنبى هو الجنب الحائر تحت سماء بغداد.

فى هذه الليلة تتلفت عيون فلا ترانى، عيون كنت لها أمتع من إغفاءة الفجر، وأنضر من بياض الصباح فى هذه الليلة تشتاقنى أكباد رقاق علمتها كيف تطيب ليالى الأعياد.

ولكن لا بأس، فسنعيش حتى نرد ديون الهوى، وسيعلم من أبكاهم الفراق أن الدمع لا ينفع وسنرجو أن لا يسمحوا لنا بعد هذه المرة بالتعرف إلى محطة باب الحديد.

أخى الأستاذ الزيات..

لا أنتظر منك دمعة عند قراءة هذا الخطاب. ولكن لى إليك رجاء. فاحفظ عهد أخيك ولا تمش فى شوارع القاهرة إلا مشية الخاشعين. فليس فى تلك المدينة بقعة إلا ولى فيها صبوات وليس فيها شارع ولا مشرب ولا ناد إلا ولى فيه أحباب وخلان..

ولو شئت لكلفتك تبليغ التحية إلى أصفياء القلب فى مصر الجديدة. وفى الزمالك، ولكن مثلك وأسفاه لا يؤتمن على نقل التحية إلى أسراب الملاح. فلتكن (الرسالة) رسولى إلى من أذالوا غاليات الدموع يوم رحيلى إلى العراق، والسلام عليكم وعليك من الغريب الحزين.

زكى مبارك

الزواج بعد العشق

فى أحوال كثيرة ينتهى الزواج بعد العشق إلى الانفصال ثم إلى العداء. بحيث لا يحب أحد الزوجين المنفصلين أن يسمع خبرًا عن صاحبه فى أى معرض من معارض الحديث.. فما تعليل هذه الظاهرة وهى من الغرابة بمكان؟

كان المنتظر أن يكون الزواج المتبعث عن العشق أقوى وأمتن وأبقى من سائر أنواع الزواج. ولكن النتيجة تخالف ما انتظرناه. وتشهد بأن العشق يكون أحيانًا من أسباب الطلاق.. فما تعليل هذه الظاهرة. وقد قلت إنها من الغرابة بمكان؟

يجب أولا أن نعرف موجبات العشق. لنرى كيف يمكن أن يصبح من منغصات الزواج. فى أكثر الأحايين. فما تلك الموجبات؟

يخطئ من يقول إن العشق اتصال روح بروح. بغض النظر عما يساور حياة العاشقين من الاختلاف الطارئ. وهو الاختلاف الذى تخلقه ظروف المعاش. وهى ظروف تتجدد فى كل يوم بأشكال وألوان.

أساس العشق أن يكون المعشوق صورة مثالية، صورة يراها العاشق نهاية النهايات فى الجمال والجلال. صورة منزهة عن كل ما يغض من نضارة الجسم وحلاوة الروح.

ونحن نعرف أن العاشق لا يرى معشوقته ولا تراه إلا بعد تأهب وتهيؤ واستعداد، فيكون كل لقاء شبيهًا باللقاء المنشود فى ليلة العرس. وتكون الأنفاس فى حرارة محرقة لا يخمدها التلاقى. وتلاقى العشاق أقصر من طيف الخيال.

وهذا البناء ينهدم حين يصبح العاشقان زوجين. ينهدم بسرعة؛ لأن المرأة لا تتجمل للزوج كما تتجمل للعاشق، ولأن الرجل لا يغازل الزوجة كما يغازل المعشوقة. وبهذا يضيع ما كان ينتظر الزوجان من سعادة الحياة: حياة العشق الذى لا يكدره فضول الرقباء. وهما لا يدريان أنهما بعد الزواج ينوبان عن الرقباء فى التجسس والسخافة والفضول؟

العاشق لا يغفو أبدًا. والمعشوقة لا تغفو أبدًا. فأيسر انحراف من أحد الزوجين العاشقين يخلق متاعب لا تداوى بغير الفراق.

أيكون معنى هذا الكلام أن ننهى عن الزواج بعد العشق؟

لا، فإننا نرجو أن يكون العشق من وسائل الزواج. وإنما ندعو إلى التصحيح للحياة الزوجية. وهى تختلف عن حياة العشق بعض الاختلاف أو كل الاختلاف.

إذا تزاوج العاشقان فقد وجب أن ينتهيا عن دلال الحياة الغرامية. وأن يعرفا أنهما مقبلان على تكاليف ثقال يوجبها نظام البيت ونظام المعاش.

الزوج الذى يصابح زوجته ويماسيها لا يطالب بما يطالب به العاشق الذى يلقى معشوقته من أسبوع إلى أسبوع. الزوجة فى الأصل سكن للزوج. ومزية السكن أنه مأوى صاحبه فى أوقات الفرح والترح. ولحظات التفتح والذبول. فمن واجب الزوجة أن تفهم أن الزوج لا يصلح فى كل وقت للمطارحات الوجدانية. ولا يستطيع أن يبتسم فى جميع الأحوال.

إذا فهمت الزوجة المعشوقة هذه الحقيقة أمكنها أن تستريح من متاعب كثيرة، متاعب تخلقها الغيرة السخيفة. فقد ثبت أن الزوجة لا ترد سكوت الزوج عن الملاطفة إلى أسباب من اشتغاله بمتاعب الحياة. وإنما تردها إلى أسباب من اشتغاله بغيرها من النساء. والمرأة لا تدرك أن للرجال متاعب غير الاشتغال بالنساء.

وأنا لا أبتدع هذا الرأى، فقد التفت إليه أقطاب القصص الفرنسى. وعندهم عبارة يضيفونها إلى الزوجة عند معاتبة الزوج فى أتفه الشئون. وهى عبارة: «لست تحبنى».

وهى عبارة تعاد بحروفها فى أكثر الأقاصيص. بحيث جنى عليها التكرار فلم تعد تثير الإحساس. برغم ما يصحبها من التوجع والأنين!

والظاهر أن المرأة تخلفت عن موكب الحياة. فهى لا تزال تنظر إلى النعيم بالعين الحيوانية. ولم تدرك أن النعيم صارت له ألوان من التطلع والتوثب والتسامى. تلك مراتب لا تخطر للحيوان فى بال.

والحق أن الرقى العقلى والروحى والأدبى والمدنى. الرقى الذى نقل الإنسانية من حال إلى أحوال بصورة تفوق أحلام القدماء بمراحل طوال. هذا الرقى من صنع الرجل. وليس به للمرأة نصيب. وستظل فى تأخر إلى الأبد. مادامت تؤمن بأن النعيم فى الحياة الزوجية هو نعيم الحيوان.

ضعوا المرأة حيث وضعتها الطبيعة. ولا تدللوها أكثر مما فعلتم. يا أغبياء لتتعلم الحديث!

من هذه المحامية الحسناء؟

خصصت مجلة «الشعلة» صفحة لمقال دبجته إحدى المحاميات فى تنفير الفتاة من الزواج فما حجج تلك المحامية؟

لا حجج ولا براهين، وإنما هو دلال فتاة وجدت فرصة التنويه بأنها ردت جماعات من الخاطبين، لتنعم بحياة الاستقلال. كأن الزواج عبودية لا ترضى بها غير الفتاة العاجزة عن الاستقلال.

نحن نعرف من سنن الحياة أكثر مما تعرف تلك المتمردة. نحن نعرف أن الفتاة لا تزهد فى الزواج إلا إذا كان بها نقص فى الحيوية. وهذا النقص يعترى بعض النساء وبعض الرجال. وهو السبب فى شيوع العزوبة عند فريق من هذا الجنس أو ذاك. فلا موجب للتباهى بغنى هو أقبح من الإملاق.

إن احتياج المرأة إلى الرجل دليل على كمال الأنوثة. كما أن احتياج الرجل إلى المرأة دليل على كمال الرجولة. وتباهى المرأة بزهدها فى الرجل لا يقل قبحا عن تباهى الرجل بزهده فى المرأة. وإذا جاز للفتاة الجاهلة أن تقع فى مثل هذا

التباهى الأحمق. فصدوره عن الفتاة المثقفة إثم فظيع فى نظر الطبيعة. والطبيعة تبغض الانحراف.

وهنالك بدعة جديدة تمضغها بعض الفتيات. بدعة القول بأن الزواج يحكم على الزوجة بالتبعية للزوج. ونحن فى عصر المطالبة بالتحرر والاستقلال؟

وهذا كلام فى غاية من الضعف؛ لأن تبعية المرأة للرجل تبعية طبيعية. وهى مجردة كل التجرد من معانى الاستعباد. وسيادة الرجل على المرأة تشريف. لا سيادة تكليف. وخضوع المرأة للرجل يزيدها جمالاً إلى جمال. ويؤيد رسالتها فى تعمير الوجود.

كنت ظننت أن تلك المحامية شخصية خرافية. ولكن محرر الشعلة أكد لى أنها شخصية حقيقية. وأنى لو رأيتها لفتنتنى بجمالها الوهاج.

وأقول إن الفتاة التى تنفر أترابها من الزواج لا تفتن أحدًا. ولو كانت فى جمال أفروديت. لأن سحر المرأة يرجع إلى الحيوية فى الطبيعة الأنثوية. ولا قيمة للجاه المجلوب. جاه العلم والمال والجمال.

جمال المرأة أنها امرأة. وجمال الرجل أنه رجل. فاتركوا هذه الحذلقة. وتجنبوا الجدال فى شئون يفسدها الجدال.

الرسالة ١٩٤٣/١١/١

من ليالى الفردوس

مجلة الرسالة . العدد ٥٤٠ بتاريخ ١٩٤٣/١١/٨

لم يكن أول حب. فما مرت ساعة من نهار أو من ليل بلا وجد يعصف بقلبى فيزلزل وجودى. إنما كان أخطر حب؛ لأنه صادف قلبين كتب عليهما الشقاء بالهوى لأول لقاء.

ولم يكن لهذا الحب مقدمات. على نحو ما تصنع الطبيعة فى إرسال البشير بالغيث. أو النذير بالويل. وإنما صب علينا نعيمه وشقاؤه بلا وعد ولا وعيد. فأصاب قلبينا برجفة عاتية ستبقى لها ندوب. إن قدر من بلواها الخلاص. ولا خلاص!

كنت أعرف أنها ملك يمينى أصرفها كما أريد. فأنقلها من الغرب إلى الشرق. ومن الشمال إلى الجنوب. وكانت تعرف أنها ملأت قلبى بلا خوف من تغرضه لهوى جديد. ولو ساقته المقادير على يد جنية من جنيات باريس أو بغداد أو بيروت.

وطاب لنا فى بداية الهوى أن نتكتم. فقد كنا شببنا عن الطوق. وكانت لنا تجاريب تجعل البوح من أخلاق الأطفال. وكيف تأمن جانبى وقد «وصلتها أخبار» تشهد بأنى لا أقيم على عهد وأنى أتخذ الحب وسيلة لدرس خلائق الملاح؟

وكان أمرى فى الهوى كما قدرت تلك البغوم. فما نظرت نظرة جارحة إلا لأقبس من أنوار الخدود شعاعًا ألون به مداد قلمى. ولا تعرضت لمكاره الغواية إلا لآخذ من جحيم الفتك جمرةً أذكى بها بيانى.

ثم كان حالى حال رائض الحيات فى مدينة الأقصر. فما تاريخ ذلك الرائض؟

هو رائض تطايرت أخباره إلى «لورد كرومر» فأحب ذلك اللورد أن «يتخير» تلك الأخبار ليكون من أمرها على يقين. فقاده «الحاوى» إلى حية كان حبسها تحت حجر من الأحجار فى رحاب «وادى الملوك». وكانت تلك الحية تفهم عن «الحاوى» ما يريد، فتصحو أو تنام وفقًا لما علمها من الإرشادات.

ورفع الحاوى الحجر فثارت من تحته حية لم يرها من قبل. حية لم تتلق عليه درسًا من الدروس. ولا تفهم أنه فى صحبة رجل كلفته الدولة البريطانية حراسة منافعها فى مصر مفتاح الشرق!

وخاف الحاوى على حياته فلاذ بالفرار، ثم عظمت دهشته حين رأى لورد كرومر أقدر منه على الجرى فى طلب النجاة. مع أن فى منطقته مسدسين. ومع أنه يمثل دولة لها فى البر جيوش وفى البحر أساطيل!

كان حالى حال ذلك الرائض. كنت ألهو وألعب بالملاح كما كان يلهو ويلعب بالحيات. فكيف صار وكيف صرت؟

لقد هرب فنجا. أما أنا فثبت فى مكانى لأصرع الحية أو تصرعنى. وهل كانت حياتى إلا حومة نضال وصيال وقتال؟

وفهمت الحية وفهمت أننا لم نكن إلا أرقمين يتساوران، ثم كانت الحرب بيننا سجالاً فلم أنج منها ولم تنج منى.

هل هى اطمأنت إلى أنها سيطرت على القلب الذى استطاب العبث بقلوب الملاح. وأنا رضيت بأن تكون تلك الحية من مرضاى. وهل من القليل أن تخضع الحية لحبك؟ الحية النضناض التى تقتل من تشاء بأيسر نظرة وأهون فحيح؟

كانت أنياب الحية أشهى إلى فمى من «فرط الرمان». كما يعبر أهل سنتريس. وكنا نرضى ونغضب بلا اقتصاد ولا احتراس. فكانت لنا فى كل لحظة شأن أو

شئون. وكان وجهها يريد فى وجهى من وقت إلى وقت. كما تصنع السماء مع المحيط ، كانت ترضى فأظنها صارت ملكى إلى الأبد. وكانت تغضب فأتوهمها ضاعت من يدى إلى آخر الزمان.

ولكن الشقية فى جميع أحوالها جميلة فتانة إلى أبعد حدود الجمال والفتون، وكانت تعرف أن هواها أقسى وأعنف من القدر المكتوب. وكانت فوق هذا وذاك تتفهم أنى أول وآخر من يعرف خفايا الأسرار لحسنها المكنون. وكانت تفهم أنى أدرك من أخطارها ما لا يدرك المصريون من أخطار قناة السويس. وكان يروعها أن ترانى مبهوتًا أمام جسمها الفينان كما يبهت عابد الشمس وقد تجلت بطلعتها البهية عند الشروق.

هل كان جمال هذه الشقية وهمًا خلقه القلب الذى يطيب له التغريد فوق أفنان الجمال؟

وكيف وقد زاحمنى إلى قلبها المتمرد مئات الفحول. فكنت بحمد الهوى أول سابق لا أول مسبوق. ومن زعم أن له ذراعين أقوى من ذراعى. فقد اعتصم بحبل الزور والبهتان.

كانت نخلة لا يميلها غير العواطف التى تثور عن وجدانى. كانت امرأة وقورًا لا يستخفها غير الغزل الذى يصدر عن بيانى.

كانت فى رزانة الجبال التى رأيتها فعرفتنى. وكنت قطعة من ثلوج الشمال إلى يوم البلوى بروحها المقبوس من عذاب السعير. فكيف صار الحب جدا من أعنف ضروب الجد. وكان مزاحًا من ألطف فنون المزاح؟

أنت يا شقية سبب شقائى. وأنت السر فى بلواى بالدنيا وبالوجود.

ولكنك مع ذلك أشبه الأشياء بنقط المداد الذى يتساقط حين أخلو إلى قلمى. فمن قطرات المداد الأسود دونت أدبى. ومن زفرات روحك الأهوج صفت روحى. وبين الأدب والروح نسب وثيق.

أنا القمر. وأنت السحابة فى ليلة من ليالى دمياط والنصر للنور ولو بعد حين.

* * *

مالى ولهذا الحديث؟ أنا أريد وصف ليلة من ليالى الفردوس مع تلك الحورية السمراء. فكيف كانت تلك الليلة الفردوسية.

يجب أولا أن أقول كلمة وجيزة أبين بها بعض خصائص المرأة الجميلة حين تصبح على جانب من التهذيب والتثقيف. وحين يصبح فى مقدورها أن تخوض بلباقة وبراعة فى شجون من الأحاديث، فهذه المرأة تخلع على موضوع الحديث عطرا رقيقا يسرى أريجه إلى عقل المحدث فيزيده حيوية إلى حيوية. وهى تضيف إلى الحديث ألوانا لطيفة من الدعابة والدلال. وإن كانت لا تقصد إلى الدعابة والدلال. فالمرأة رقيقة بالفطرة والطبع وقد تبلغ نهاية الرقة حين تساجل رجلاً تميل إليه بالقلب والوجدان.

وهنالك ظاهرة نفسية تستحق التسجيل. فالمرأة تحاول الظهور باسم العقل. ويسرها أن تجد من يقول بأن النساء أعقل من الرجال.

وهل قلنا بغير ذلك يا ناس؟

المرأة أعقل من الرجال. بلا جدال. فتطلب من المناصب ما تريد!

وصاحبة الليلة الفردوسية من هذا الصنف. فهى لا تكف عن المطالبة بمساواة النساء للرجال فى جميع الميادين.

ولكنى أعارض . أعارض لأسمع صوتها البغوم وهى تحاول وتناضل.. أعارض لأرى كيف يتلون وجهها الجميل حين تنفعل وحين تصرخ. ولاغنى للمرأة عن الانفعال والصراخ.

ما أجمل هذه الشقية حين تثور مطالبة بحقوق النساء!

إنها ترفع ذراعيها، وتلوى وجهها. ثم تحدث فى لأقتنع!

وهل أقتنع إلا بعد أن أتمتع بهذه المجادلات ساعات وساعات؟ لن أقتنع أبدًا. فلتحبسنى فى دارها لأسمع تلك الخطب اللطاف. إلى أن أمل من النعيم فأقتنع، ولن أمل ولن أقتنع!

إن كان من الخيانة للحق أن نساعد النساء على الطغيان. فأنا بإذن الهوى أول الخائنين!

ومن حسن الحظ أن خيانتى هينة الخطب؛ لأن المرأة بعيدة عن عملى. ولو تعرضت لى فى عملى لدستها بقدمى. فللرجولة وثبات تزلزل الجبال.

إذا جد الجد فلن أخضع لهذه الجنيّة ولو كانت من جنيّات الأورمان.

وما الجدُّ وما الحق بجانب سحر الجمال؟

آمنت بك يا ربى، وآمنت ثم آمنت. فلولا لطفك لردتنى هذه الجنيّة إلى أهواء يعجز عن تصورها الخيال.

أنا أحبها لأنها أصدق منى.. تعرضت للموت فى حبها. فتعرضت للفضيحة فى حبى. والفضيحة أفظع من الموت.

ما أجملها حيث تثور فى المطالبة بمساواة النساء للرجال!

ولو كان الأمر للهوى لمنحتها ما تريد. ولكن العقل يساجلنى من وقت إلى وقت فأثور على مطالب النساء.

ما أنت بها أيها العقل؟ ومتى أنجو من شرك؟

* * *

مالى ولهذا الحديث؟ ألم أقل إنى أريد وصف الليلة الفردوسية؟ طال الجدال حول حقوق المرأة فاقتنعت لأنى شبعت من مجادلة الجنية السمراء. ولأنى رغبت فى تلوين الأحاديث فدعوتها للمهادنة إلى حين.

عند ذلك وقفت وقد احتضنت الكمنجة لتداعبها بأناملها اللطاف. وهى أجمل ما تكون حين تقف؛ لأن جمالها يرتكز فى قامتها السمهرية:

انا والله هالك	آيس من سلامتى
أو أرى القامة التى	قد أقامت قيامتى

ـ ماذا تحب أن تسمع؟

ـ أنا أحب أن أرى!

ـ أنت تعرف أنى أبغض المزاح الثقيل.

ـ وأنت تعرفين أنى أبغض الجد اللطيف.

ـ يظهر أننا أطفال.

ـ نحن أطفال كبار. والطفل الكبير هو الطفل اللوذعى؟ لأن مطالبه مطالب رجال لا مطالب أطفال.

ـ وما تطلب أيها الطفل اللوذعى؟

ـ أطلب تغريدة تعبر بها الكمنجة عما أريد.

ـ ولكن الشقية رمت الكمنجة. ومدت يدها إلى المكتبة. فأخرجت كتاب «ليلى المريضة فى العراق».

ـ تصفح الكتاب، ثم اقرأ ما طوق بعلامة الخطر. وهى التأشيرة الحمراء.

ـ اقرئى أنت.

ـ أنا أحب أن أسمع صوت المؤلف. لأتفوق على من يتباهون بأنهم رأوا المؤلف.

ـ كتاب ليلى لا يقرأ. وإنما يرتل. وصوتك أندى فى الترتيل.

ـ أنا أحب أن أسمع صوتك فى مواقف الصبوات.

عند ذلك تمثل ماضى الجميل. ماضى فى ضيافة ليلى وظمياء. ماضى الذى لم يظفر بمثله أى عاشق فى أى زمان.

وعند ذلك تمثل شقائى فى بغداد. وأى شقاء؟

كنت أرجع من دروسى بدار المعلمين العالية أو محاضراتى بكلية الحقوق فأرى العربات محملة بأقوام يمضون إلى سهرات المساء ضاحكين حالمين. وأرانى أمضى إلى دارى لأقضى الليل بين الورق والمداد.

هل أنسى أنى استهديت أحد أصدقائى عشاء فى داره لأقول إنى ذقت طعاما فى أحد بيوت العراق؟

البيوت العراقية مفتحة الأبواب لكل زائر. ولكنى لم أهتد إلى هذه الحقيقة إلا بعد أن طال عذابى بالوحشة والانفراد فى ليالى بغداد.

وفى تلك الأزمات القاسية سطرت كتاب «ليلى المريضة فى العراق».

تمثلت هذه المتاعب لخاطرى وأنا أرتل كتابى. فانقلب الترتيل إلى نشيج ثم رفعت بصرى فرأيت دموعا تجاوب دموعى. وهى الدموع الأبية العصية. دموع الخريدة التى قهرها الحب على البكاء . بعد طول التأبى والعصيان.

- من صاحبة هذا الوحى إليك؟

- هى ليلى.

- غريمتى فى العراق؟

- عند القلب علم الغيب.

وماذا يقول قلبك؟

- يقول: «قلبى مات. قلبى مات».

- ولقلبك قلب؟

- ولدموعى دموع!

- وما نصيبى عندك؟

- هو أعظم نصيب. وهو أخطر من أن ينصب له ميزان. فذخائر الوجود لا تساوى قطرة واحدة من دموعك الغالية.

- يفتنك بكائى؟

- الدموع فوق الخدود أجمل من الأنداد فوق الورود.

- ستنشر هذا الحديث فى مجلة الرسالة؟

- وفى جميع المجلات.

- وماذا يقول الناس؟

- وأين الناس؟

- أنت تخاطر بمركزك فى المجتمع.

ـ وأين المجتمع يا طفلتى الغالية؟ لقد حاربت ألوفا من الخلائق وحاربونى. فهل هزمونى؟.. أنا لا أخاف غير الله. وهو خوف منبعث عن الأدب. وليس له أية صلة بالخوف الذى يفهمه عامة الناس. ولو شئت لقلت إنى آمن جانب الله فلا أتخوف منه أى عقاب.

ـ هات السند من الكتب الدينية.

ـ حياتى هى السند فقد تفردت بين أهل زمانى بالثورة على الناس. ثم بقيت سيدا لا يمن عليه مخلوق.

ـ ولكنك فقير. بالقياس إلى المرائين.

ـ كيف أكون فقيرًا وأنت فى حيازتى. أيتها الجنية السمراء؟

ـ هل تبيعنى لتغتنى؟

ـ وأين أجد المشترى؟

ـ أنت تكايدنى!

ـ المكايدة لغة جنية الأورمان. عليها غضبة الحب إلى آخر الزمان!

ـ ومن تلك الجنية؟

ـ هى روح لطيف. وإن لم أتمتع برؤية وجهها الجميل.

ـ أتكون أجمل منى؟

ـ جمالها فى الصوت. وبصوتها فى الهتاف نقلت قلبى من مكان إلى مكان.

هى إذًا غريمة جديدة؟

ـ إن آذتك الغيرة فلن تظفرى منى بأى نصيب؛ لأن الغيرة تفسد ما بين المرأة والرجل فسادًا لا يرجى له صلاح.

ـ كنت أحسب أن الغيرة دليل على قوة الحب. وأنها منة تطوق بها قلب الحبيب.

ـ غيرة المرأة أثرة وأنانية وتحكم وطغيان.

ـ وغيرة الرجل؟

ـ غيرة الرجل رفق وحراسة ومروءة وإيمان.

ـ أوضح ثم أوضح؛ لأن هذا الكلام يحتاج إلى إيضاح وإيضاح.

ـ اسمعى يا طفلتى الغالية. إن الرجل يستطيع أن يصاهر من يشاء. ولو شهد ماضيه بأنه كان من أهل العبث والمجون. ولا كذلك المرأة؛ فإنها لا تجد خاطبًا إلا إن شهد ماضيها وحاضرها بأنها من أهل التصون والعفاف.

ـ هذا هو الظلم المبين.

ـ هو ظلم يا طفلتى الغالية. ولكنه ظلم لن يرفع عن المرأة فى أى زمان.

ـ الفجور الصريح لايؤذيكم. فكيف تؤذينا كواذب الشبهات؟

ـ كان الأمر كذلك. وسيكون لأننا أقوياء. وحق الأقوياء هو الأفضل. ألم تقرئى قول لافونتين La raison du plus fort est toujours la meilleure

ـ وأنتم أقوى منا؟

ـ الجواب حاضر. فبينى وبينك فى السن عشرون سنة. وأنت مع هذا تعجزين عن مصارعتى. وأنا أشتهى أن تصارعينى.

ـ ذوق هذا العصر لا يعترف بالقوة الجسدية.

ـ القوة الجسدية هى الأساس فى جميع العصور.

ـ وهل حصنتكم القوة الجسدية من الضعف؟

ـ أى ضعف؟

– الضعف أمام رقة المرأة.

ـ هذا الضعف من شواهد قوة الرجل. كما أن ضعف المرأة أمام فحولة الرجل من شواهد قوة المرأة.

- أنت إذًا أضعف منى؛ لأن خضوعك لى أقل من خضوعى لك.

- خضوع الرجل للمرأة خدعة من خدع الحرب. وأنا منتصر. والمنتصر لا يحتاج إلى الخداع.

- والنتيجة؟

- النتيجة معروفة. وهى أن النساء لا يصلحن لمساواة الرجال.

- أنت تعرف أنى لا أرى هذا الرأى.

- وأنت تعرفين أنى أنكر على المرأة جميع الحقوق.

- جميع الحقوق؟

- حتى حق الحب!

- إذن نفترق.

- إن طاب لك الافتراق.

- ولا نتلاقى أبدًا؟

- أبدًا أبدًا.

- ولكنى أرى هذه المعضلات تحتاج إلى الحلول. فهل نلتقى فى الأسبوع المقبل. على شرط أن نظل متخاصمين فى الرأى؟

- ثم انصرفت وأنا من تلك العيون على ميعاد. للمجادلة والاختلاف وسنجادل ونختلف. ونجادل ونختلف. لأرى كيف ترفع ذراعها وتلوى وجهها. ثم تحدق فى لأقتنع.

آمنت بالحب والجمال. آمنت آمنت. فزدنى اللهم إيمانًا إلى إيمانى.

زكى مبارك

لقد هان هذا الخطب!(*)

(مجلة الرسالة - العدد ٥٥٦ - ١٩٤٤/٢/٢٨)

للكاتب المجهول(*)

* (الكاتب المجهول والشاعر المجهول هو زكى مبارك، وهذه المقالة بقلم الدكتور «زكى مبارك»)

لقد هان هذا الخطب، وما كنت أنتظر أن يهون، ولكن الدنيا بصروفها الغرائب تهون الخطوب، وكان من شيمتها أن تجسّم الخطوب.

هان خطب القطيعة، هان ثم هان، واستشعرت روح الخلاص، وكنت أبغض الخلاص، فيا عجبًا لزمن يحمل بعدى عنكم شهوة يطمح إليها فؤادى!

مابكيت على نفسى حين ودعتكم، وإنما بكيت عليكم، وبكيت على دولة الحسن التى ذهبت إلى غير معاد، وبكيت على اللطف الذى حرمتموه كما تحرم الزهرة من المطر بعد الذبول.

ماتمثلت أيامكن إلا تعجبت مما تصنع الدنيا بأهلها، فما كانت لكم نظائر فى الحسن واللطف، ولاكانت لكم أشباه فى سماحة النفس وصفاء الروح.

وبكيت على نفسى، فهذا ملك ضاع من يدى، ملك أضاعه الدهر الغادر الذى لايبقى على شىء، والذى يستمد سطوته من قدرته على إزالة دولة اللطف والجمال.

حرمت بقطيعتكم آخر أمل يرجوه من يقف على المقادير ليؤدى التحية إلى أموات الفقراء يحسبهم أحياء يتلقون تسليمات الأحياء.

المقابر تسمع ولاتجيب وأنتم تجيبون ولاتسمعون بدليل أنكم تخطئون فى الجواب.

لو أننى كنت البادئ بهذا الحب لرأيت لكم عذرًا فى الصدوف عنى، فما يتصدق الأغنياء على الفقراء فى كل وقت، وإنما كنتم البادئين، وهذا فضل لن أنساه إلى آخر الزمان، فكيف تهدمون مابنيتم، وكان غاية فى متانة البناء؟

هل تعود ليالينا؟ هل تعود؟

لن تعود ليالىَّ معكم ياغادرين، لأنكم لم تعودوا صالحين لإدراك مايشتجر فى قلبى، ولأن هواكم قد مات، وماكنت أحسب أنه مما يجوز عليه الموت، وقد كذبت على نفسى حين توهمت أن الهوى لايموت.

وأنا مع هذا فرح جذلان، لأنى واثق بأنكم لاتعانون من آصار القطيعة بعض الذى أعانى، ومن هواى أن تكونوا فى عافية من ثورة الوجدان، لتعيشوا فى سلام.

هل كان حبنا مزاحًا جد به الزمن فانهزم؟

أنا كنت أجد، وماخطر فى بالى أنكم هازلون، وجدّ الهوى جدّ، وهزله جد، لو كنتم تعقلون.

هل كنت حين أناجيكم أناجى وثنًا بلا روح؟

لو ناجيت الصخر لأنطقته بألطف المعانى، فكيف عجزت عن رياضتكم على الوفاء؟

ما أشد حزنى على ماشيعت من ليالى وأيامى!

لم نكن نعرف ما النهار وما الليل.

ايـــــــــام لا ادرى وإن ســـــــــالت
مــــــا الـــــفرق بـــين جـــمـــعـه وســـبت

ولم نكن نعرف أن الدنيا غدرات ينبو فيها جنب عن جنب، وقلب عن قلب، فترحلون عن مصر الجديدة إلى حلوان، وهى بهجركم أبعد من أسوان.

لو كنت أعرف أن فيكم خيرًا لجعلت داركم دارى، ولو سكنتم فى مقبرة تشرف على عالم الفناء، ولكن القدر أراد ما أراد فانتزع حبكم من فؤادى، فأنا اليوم بلا حب وبلا فؤاد.

إن إقامة صرح فوق اثباج البحر أبقى وأثبت من الحب الذى أقمته فوق روحكم، والروح من الروح وهو النسيم، وليس للنسيم ثبات.

انقضى عهد الحب، انقضى بالرغم منى، فما فارقتكم إلا بعد أن صح عندى أن هواكم لم يكن إلا أسطورة لفقها الخيال.

أينقضى غرامنا بمثل هذه النهاية فلا أسأل عنكم ولاتسألون عنى؟

وهل كان البهاء زهير ملهمًا حين عبر عما أريد فقال :

ملكتمونى رخيصًا
فانحط قدرى لديكم

فأغلق الله بابًا
دخلت منه إليكم

حتى ولا كيف أنتم
ولا السلام عليكم

لن نتصافح إذا التقينا مصادفة فى شارع فؤاد، فالمصافحة من الصفح ، ولن أصفح عنكم أبدًا، ولو ضمنتم أن تعود معكم أيامى السوالف وليالى الخوالى.

أنا فرح بما صرتم إليه، فقد أنجاكم الله مما ابتلانى.

ولكنى حزين مما صرتم إليه، فلن تعانوا اشتجار العواطف بعد فراقى، واشتجار العواطف هو أثمن ما تتغذى به القلوب.

وإنى لأشكر لكم صنيعكم، فقد رحمتمونى من هاوية كنت سأتردى فيها إن طال حبى لكم، وكان ثورة وجدانية تزلزل أقطار السماء.

انتهينا من العتاب، أليس الأمر كذلك؟

وانتهينا من ليالى مصر الجديدة وليالى حلوان، وانتهينا من الظهريات الجميلة بحديقة الشاى فى حدائق الحيوان.... هل تذكرون ياغادرين؟

وانتهينا من جمع كسارات الكأس المصدوع فى تلك الليلة، وهى ليلة لن تعود، ويا ليتها تعود، فلو صرتم رمة بالية لرجوت أن أستروح منكم روح العطر النفيس.

لا تسألوا عنى بعد اليوم، فقد تبت توبة نهائية عن الغرام بالتماثيل، وهى أبدان بلا أرواح.

أنا أحسنت الظن بمن لم يكونوا لحسن الظن بأهل، فلتعاقبنى المقادير بما تشاء وعدل الله كل ماصنع، كما قال أستاذنا العباس بن الأحنف، عليه رحمة الحب!

كانت غايتكم أن تستأثروا بقلبى، وقد حاولت النجاة بقلبى فلم أفلح، ثم كانت العاقبة أن نصير إلى ماصرنا إليه، وما أفظع ماصرنا إليه!

الغدر مسخكم فأحالكم صورة ميتة برقشتها ريشة رسام جهول.

هل تذكرون تأريخ العيون الكحيلة، وكانت أجمل ما رأت العيون؟

استفتوا المرآه، ثم حاسبوا ضمائركم، إن كانت لكن ضمائر، لتعرفوا أن سواد عيونكم لم يكن إلا منحة خلعها عليكم سواد قلبى، وهو قلب يمنح الرهبة والسحر لسواد الليالىَ وسواد الخيلان.

وقد استرددت تلك المنحة بعد أن أيقنت أنى خلعتها على من يكفر بالجميل، ولست أغنى من الله وهو مع غناه عن الثناء يؤدب من ينعم عليهم فيطالبهم بالثناء تخطروا إن شئتم فى شارع فؤاد، وانظروا هل تلتفت إليكم عين أو يخفق لكم قلب؟

أنا أبدعتكم إبداعًا لانظير له ولامثيل، وغاب عنكم جميلى فجحدتم جميلى، وغضبة الله والحب على من يجحد الجميل.

لن أبكى عليكم، ولكنى سأبكى على أخلاقى، وهى جديرة بالبكاء.

كنت أعتقد أنى من رجال الأخلاق، ثم ظهر أن فى صدرى غريزة وحشية تشتهى الاقتتال والافتراس، وإلا فما الذى يمنع من أن أنتصر على كبريائى

فأسعى إلى داركم لأسأل عنكم ولأخلع عليكم بياض الوجوه وسواد العيون؟

كنت أبدع البشاشة فى أرواح الملاح ثم صرت المنتقم الفاتك بأرواح الملاح، فما أفظع جرمى، وما أسوأ صنيعى!

سأقتحم داركم بعد أيام أو أسابيع، فما أدرى متى أنتصر على كبريائى.

انتظرونى، انتظرونى، لتعرفوا أن خطب الفراق لم يهن ولن يهون.

سأصافحكم بيدى، ألم أحدثكم أن المصافحة مشتقة من الصفح؟

غفرت ذنوبكم، غفرت، ثم غفرت، وأنا أول من يغفر ذنوب الجمال.

عربيد الحسن بكم فأسأتمونى والحسن عربيد، ومن واجبى أن أغفر ذنوب العرابيد.

كان لى منك تاريخ هو أجمل التواريخ، وكان رزقًا ساقه الله إلىّ، والله حين يتفضل يمنح بلا حساب.

أنا لا أعرف متى نتصافح؛ لأن هذا لن يكون إلا بعد أن أتنازل عن كبريائى، وهذا أمل بعيد المنال.

سلام عليكم يا أحبابًا وفوا ثم خانوا.

أنا عبدالجمال، على شرط أن يعرف الجمال حقوق الوفاء.

لن أزور داركم أبدًا، ولن أراكم ولن ترونى، فقد حل عليكم غضبى وغضب العاشق الصادق نقمة تنزل من السماء.

شرقوا وغربوا فى طلب المستحيل، فصفحى عنكم هو المستحيل.

سأبدع بدائع جديدة، وسأخلق فى دنيا الحب مالا تعلمون، فتناسوا عهدى، لتعيشوا فى أمان، من جزع الوجدان.

لن تستطيعوا الفرار من انتقامى، ولن تتخطروا بعد اليوم فى شارع فؤاد، ولن تكونوا نهبة لأعين الحاسدين، وألسن العاذلين، ومن حق من يخلق أن يميت.

سلام على الهوى وسلام عليه، وألف سلام.

* * *

أنتم تمردتم على سجن الحب، فتمتعوا بالحرية التى اشتهيتموها جاهلين بالعواقب، فما يتمرد على سجن الحب غير الصائرين إلى الفناء...

كانت كلمتكم فى ساعة التمرد : Vous disposez de moi

وهذا صحيح، فقد كان من حق الهوى أن أتصرف تصرف المالك بالمملوك.

لاتظنوا أنكم خرجتم من يدى، ولايخطر لكم فى بال أنى سأترك واجبى فى دفن حسنكم الذاهب إلى غيابات الفناء.

هان خطبكم، ثم هان، وما كنت أحسب أنه سيهون، ألم أقل إن الدنيا تصنع الغرائب؟

أنا واثق بأنكم ترجعون إلىّ قبل أن أرجع إليكم، الشعر عندى والجمال عندكم، والشعر أفتن من الجمال.

أما بعد فمن أنتم؟

أنا أعرفكم بأكثر مما تعرفون أنفسكم، فقد كنتم الغاية لما تشتهى الأرواح والقلوب، وما اشتهت عيناى أفضل مما اشتهت منك، يانهاية النهايات فى سحر العيون.

أنا بنيتكم بيدى، ولن أهدمكم بيدى، والبانى لايكون من الهدامين.

سلام عليكم، فما ألقاكم إلا إن تنازلت عن كبريائى.

احرسينى ياليلى، احرسينى قبل أن أقول : «عليك منى السلام».

الكاتب المجهول

* * *

رسالة وجدانية

● لو استطعت أن أعيش بدون عواطف لاسترحت، ولكنها راحة تشبه الموت.

(*) - جريدة البلاغ فى ١٩٤٩/٤/١٨).

● ونحن يامحبوبتى نتلاقى بالروح ولو كان قلبك فى وقدة قلبى لهان الخطب، فعند ذلك يكثر سؤالك عنى.

● من لحظة إلى لحظة أشعر أننا معًا روحًا إلى روح وأنا مكتف بهذا القليل من طيف الخيال.

وأنا أستعيد الماضى بالفكر لأحيا به وأبدد الظلام الذى يساور وجودى.

أنا أصبحت أعيش فى صحراء ليس فيها نبات ولا ماء، ولكنى مع ذلك غير يائس، فقد تجودين بالتفاتة تزيد من ظمأ الروح.

كانت رسائلك الجميلة ترد فى أغلفة وردية وفيها عطر يتمثل فى العطف والحنان.

وأبحث عن سبب لهذه القطعية فلا أجد، إلا أن يكون توهج هيامى هو إجرامى.

أنت أوحيت قصائد وهذا يكفى والجمال الموحى هو الجمال.

كان قلبى يثب ونحن نتلاحظ بالعيون.... وكنت أطبع على خديك قبلات وأنت لاتشعرين.

لن أذكر كيف تلاقينا ياشقية، ولن أذكر ليالينا بالإسكندرية ونحن نحاول عبور البحر إلى ذلك الشاطئ البعيد.

وقد بدا لك أن تسألينى عن الساعات التى أحب أن أكتب فيها مقالة أو أنظم قصيدة.

إنها الساعات التى أراك فيها بروحى يانور عيونى.

وأنا أكاد أتذكر أننى عشقتك، وأننى قرأت معك قصائد عربية وفرنسية، وأننا سبحنا معًا فى بحر الخيال.

كنت تقولين إن أسلوبى مشرق فى نثرى وشعرى، وهذا حق، فمن صباحة وجهك وصل النور إلى بيانى.

فى هذه اللحظة أسمع أذان الفجر.. فكيف سهرت إلى الصبح؟

تنامين عن ليلى وأسهره وحدى؟

والحب طفل غرير لاينام، وكيف أنام وأنت فى بالى؟

كنا نتعاتب ونحن على وفاق فكيف يكون التعاتب ونحن على خلاف؟

أتصوره جيدًا وهو أننى..

سنتلاقى فى محطة الرمل ياشقية وأمرك إلى الله، أما أنا فأمرى إلى الهوى، والهوى إله معبود.

هل ننزل البحر معًا ياشقية، وفى هذا الشتاء؟

ننزل ونغرق فالنار التى تتأجج فى قلبى لايطفئها غير الغرق!

أنت جديدة فى حياتى، ولكنى أرى أنك تنسخين كل ماسلف من غرامياتى.

لا أدرى كيف كانت حياتى بهذه الصورة.... أدخل فرنسا فى يوم عيد، وأخرج منها فى يوم عيد، وأدخل العراق فى يوم عيد، وأخرج منه فى يوم عيد.. فالغربة تلازم حياتى، والفرح ماسمعت به إلا من كلام الشعراء.

فى «نورماندى» شهدت أزهار التفاح سنة ١٩٢١، ولكن الحظ لم يساعد على الإقامة إلى أن آكل من ذلك التفاح.

ثم رجعت إلى باريس وأنا حزين، فنظمت قصيدة «غريب فى باريس»... وفى مقدمة ديوان «ألحان الخلود» تجدين شرحًا وافيًا لآلامى.

إن له حكمة فيما صنع فلو خلت حياتى من الحزن لأصبحت فقراء.

هذه الحياة المظلمة تلمع فيها نجمة هى أنت ياروح روحى.

ولكن المشكلة هى مشكلة هذا القلب المفطور على الحب... من حق الأيام أن تصنع ماتريد، إن الأيام تقدر على كل شىء، ولكنها تعجز عن شىء واحد هو أن أنساك يامحبوبتى الغالية.

أنا أفرح بالصبح لتراك عيونى، وأفرح بالليل لأراك فى خيالى.

كل ما أعرفه أننى محرر الصفحة الأدبية بجريدة البلاغ، ولكنى يامحبوبتى أتذكر قول أحد الشعراء :

إن عـــيـــنـــى تـــعــودت كــحـل هـــنــد

جــمـعـت كــفــهــا مع الــرفق لــيــنــا

وأنا مسافر حتما إلى الإسكندرية لأسبح فى البحر وأغرق فيه أشجانى أو لأقرأ معك هذا الخطاب فى البلاغ.

فى عصرية الأمس قابلت القاضى شفيق أحمد بك وهو من جيرانى ومن قرائى سألنى عنك بلهفة وشوق وسأل عما فى مقالاتى من رموز وتلاميح، ما شأن القضاة بقضية العشق؟

ماذا أصنع؟ أستفتيه عن قول الشاعر :

ياقاضى العشق أنا لى مسألة عندك.

عشق الجمالات حرام ولا حلال عندك.

رمى الكتاب من يمينه والتفت قال لى :

عشق الجمال غندرة اليوم وقبل اليوم.

وإن طالت يدك حبيبك سكنه عندك.

* * *

أنا مسافر لأراك بوهمى يامحبوبتى الغالية.

مسافر على فين؟ لا أدرى!

فى الليلة الماضية شعرت بزلزال فى جسمى بسبب وقدة البرد، فقضيت الليل فى أحلام مزعجات، لأنى تصورت اقتراب الموت.

والموت فى ذاته ليس خطرًا عظيمًا، وإنما الخطر هو الفراق الأبدى وهو فراق ليس بعده لقاء.

وموعدنا فى الجنة بعيد، لأن يوم القيامة بعيد.

ولست أخاف سؤال الملكين يامحبوبتى الغالية، فذنوبى خفيفة، وهى أننى عشقتك إلى أن افتضحت، والفضيحة أفظع من الموت.

لست أعرف مصيرى فى الجنة من الوجهة الأدبية، فليس فى الجنة جرائد ولا مجلات ولا مطبوعات مع أنها أعرض من الأرض والسموات.

كيف أعيش بدون ورق وبدون حب؟!

أنا أتعزى حين أتذكر أننا سنصدر جريدة البلاغ فى الجنة بدون استئذان وزارة الداخلية.

سنحرر الجريدة معًا يامحبوبتى الغالية وسنكتب فيها كل مانريد أن نقول :

وسنسبح معًا فى نهر الكوثر

ونعبره من الشمال إلى الجنوب

إن المرء يامحبوبتى يظهر ضعفه فى ثلاثة مواطن : حين يمرض، وحين يعشق، وحين يغضب.

عند المرض يشعر الإنسان أنه لاشىء، وعند العشق يضعف عن مقاومة سحر العيون، وعند الغضب يقع فى أغلاط ينكرها العقلاء..

ولكن هذه الأمور مختلفة من الوجهة النفسية.

فالعشق أنس للروح، والغضب يظهر القوة حتى فى أسوأ الفروض.

أما المرض فهو أخطر الأشياء... وسهر الليل ثقيل على المريض، وأنا من أعوام طويلة أفرح بالصبح كما تفرح اليمامة، وكما يفرح العصفور، وكما تفرحين حين أخطر فى بالك.

حين تقرأين خطابى هذا أكون فى الإسكندرية لأبتسم مع الشعر الجميل.... اقرئى الخطاب يامحبوبتى واذكرينى... اذكرى العاشق الذى صار من هواك خيالاً فى خيال!

قال ابن الفارض :

إن كـــان مـــنـــزلــتى فى الحب عـــنـــدكـــمـــو
مـــا قـــد رايت فـــقـــد ضـــيـــعت ايـــامى

وأنا غير مستريح إلى ماصرنا إليه، فقد افترقنا بالأبدان وسنفترق بالأرواح.

هل عنانى الشاعر الذى قال:

لـــقـــد صـــددنـــا كـــمـــا صـــددتم
فـــهـل نـــدمـــتم كـــمـــا نـــدمـــنـــا

أنا يامحبوبتى أتذكر قول المتنبى :

وعـــذلت اهل الـــعـــشق حـــتى ذقـــتـــه
فـــعـــجـــبت كـــيـف يمـــوت من لايـــعـــشق؟

أنا مسافر إلى الإسكندرية لأراك بالوهم هناك... أظننا سننزل إلى البحر ونسبح معًا، ونغوص فى أعماق المحيط لنطفئ الجذوة التى تحرق من قلبينا ماتريد.

ثم نخرج فنلعب التنس معًا على الشاطئ ساعة أو ساعتين، ثم نعود لنرتمى فوق الأمواج ونلعب معًا أيتها اللعوب.

الأقدار تصنع المستحيل.... ولى نصيب من هواك يامحبوبتى الغالية، والشاعر الذى قال :

انـــــا لـم ارزق مـــــودتـــــكـم

إنـمـــا لـــلـــعـــبـــد مـــا رزقـــا

وقد رزقنى الله مودتكم يامحبوبتى الغالية...

أنا لا أفهم كيف تتوقد النار فى قلبى حين أرى وجهك الوهاج....

أنا مسافر إلى الإسكندرية بالقول وبالفعل لأراك هناك.

* * *

دار الهوى

لا أدرى كيف أمليت الكلمة الآتية على أحد أبنائى فكتبها بخط واضح وإن لم يكن فى وضوح خطى، والكلمة تصور عهداً من عهود حياتى فوجب تسجيلها فى البلاغ (*).

(*) على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٩٥١/٩/٥.

وقد بكيت حين قرأتها وتذكرت قول «خالد» «الكاتب»:

بكى عازلى عن رحمة فرحمته
وكم مسعد لى فى الهوى ومعين

ورقت دموع العين حتى كأنها
دموع دموعى لا دموع جفونى

وهو نفسه الذى قال :

وبكى العازل لى من رحمة
فبكائى لبكاء العازل

كان آخر العهد بدار الهوى فى أيلول ١٩٣٧ قبل الهجرة إلى العراق، وفى تسعة أشهر صنع الدهر بها ماصنع، فلم أجدها حين رجعت فى آخر حزيران سنة ١٩٣٨ إلا أطلالاً باكيات، لا أطلالاً باليات، فما يجوز البلى على دار هواى ولو صنعت بها المعاول مايصنع اليأس بالقلوب.

لم تهدم دار الهوى لأن أهلها تعرضوا لمكاره الرحيل، كما كانت تهدم المعاول مايصنع اليأس بالقلوب.

لم تهدم دار الهوى لأن أهلها تعرضوا لمكاره الرحيل، كما كانت تهدم دور الهوى لعهد صاحب ليلى وصاحب عفراء، وإنما هدمت دار الهوى لأن أهلها المنعمين أرادوا أن يحولوها إلى بناية عظيمة تدر عليهم الألوف والملايين!

وسألت عن أهل الدار - دار الهوى - فعرفت أنهم مضوا بعد هدمها إلى مصر

الجديدة والجيزة والمعادى وحلوان، مضوا متفرقين متبددين متشتتين؛ لأنهم لم يجدوا دارًا تسعهم جميعًا فى ترفق وتلطف كعهدهم يوم كانوا فى دار الهوى على عهدها السلام.

ومضيت إليهم وأنا متعتب متغضب، مضيت أسأل عن الأسباب التى أوجبت أن يصنع المعول بدار الهوى مايصنع اللطم بالخد الأسيل، فلم أجد جوابًا شافيًا عند الحلول بمصر الجديدة والجيزة وحلوان، وهل يشفينى أن يقولوا إن «المتر» فى تلك الدار يساوى عشرين دينارًا وأن من العقل أن تحول «الدار» إلى مركز استغلال..!!»

وأين القوة التى تقنع الشاعر بأن الجيب أفضل من القلب.

أهى دار تهدمت؟ لا.. لم تكن دارًا وإنما كانت ملاعب صبابة ومدارج فتون.

كانت رحيبة الحجرات والغرفات كأنها طيف من أطياف الفردوس. وكانت جدرانها مزدانة بتصاوير وتهاويل لاتقل روعة عن ازدحام مواكب الآمال فى لفائف القلوب.

وكانت حديقتها الغناء مألف أرواح ومسبح أذواق.

وكان لى فى تلك الدار مقام أعز من مقام الأهل.

كنت أدخل بعيد الغروب ولا أخرج إلا قبيل الشروق، وكانت كلمة واحدة من كلماتى تفض النزاع الذى يثور بين أرواحها من حين إلى حين.

لم تكن دارًا وإنما كانت كناس غزلان، ومن الكناس جاء الكنيس فى لغة بنى إسرائيل، فما كانت دار هواى إلا محراب تصون وعفاف.

والله المسئول أن يعفو عنى إن كنت فى هذا الحديث من الكاذبين.

هدمت الدار، هدمت، هدمت، ولم يبق من معالمها الأصيلة غير صراخ الذكريات، ذكريات الهوى النبيل الذى رفرف عليها بجناحيه الطاهرين عددًا من السنين هى فى حكم الهوى لحظات أقصر من غفوة الرقيب.

أفى الحق يادار الهوى إنى لن أرك إلا يوم تصبحين وأنت رمز لحزمة غليظة من أوراق البنكنوت؟

أفى الحق أن الرقباء فى شارع.... قد استراحوا من تعقب خطواتى فى أعقاب الليل؟

أفى الحق يادار الهوى أن هذا آخر العهد؟

***

ثم قضى ربك أن يخلف ظنون فلانه وفلان وارتفعت أسعار مواد البناء ولم تتسع الطاقة المالية لغير نقل الخشب والحجر والطوب، ولو سميت الأشياء بأسمائها لقلت إنهم لم ينقلوا غير ألفاظ الدار، ثم عجزوا كل العجز عن نقل المبانى.

الدار باقية لأن ذكرياتها باقيات.

الدار باقية لأنى أطوف بها فى كل يوم، وأتمثل هيامى بأرجائها فى كل لحظة، و أسوق إليها بتحياتى وتأوهاتى مواكب باقيات.

هدمت الدار، هدمت، هدمت، فابك ماطاب لك البكاء يا أليف الديار الباكيات البلى أعجز وأضعف من أن ينالك بسوء يادار هواى..

والدنيا كلها فداء لماضيك المحبوب يوم كنت مرقص أحلام وملعب آمال.

نقل الخشب والحجر والطوب ولم يبق غير التراب... فمن ذا الذى يقرض القلب قرضًا حسنًا.. فيعيننى على شراء ذلك التراب لأنقله إلى دارى وأقضى فوقه الصلوات.؟

ولو استوهبت ذلك التراب من أهل تلك الدار لارتابوا فى عقلى، وهم هدموها لأنهم عقلاء يعرفون من قيمة المال مالا يعرف مجنون ليلاهم الغالية، والحب وحده يعلم أن تراب تلك الدار هو الكحل الذى تكتحل به عينى يوم يحكم الدمع بأن تحتاج عيونى إلى دواء.

لم تهدم المعاول غرفات وحجرات، وإنما حطمت أرواحًا وذكريات.

أين المال؟ أين، أين؟

أين المال لأشترى قطعة من تلك الدار أدفن فيها يوم أموت.

سيكون ذلك يوم تعرف مصر أن من حق الشاعر عليها أن يدفن حيث يشتهي روحه الجريح.

كيف صبرت أيتها الدار على كيد الليالى؟

كيف صبرت أيتها الدار على فراق أولئك الأهل وفيهم تلك الظبية العصماء؟

كيف صبرت أيتها الدار على فراقى يوم هاجرت إلى بغداد؟

أنت صبرتى على فراقى؟

معاذ الهوى، فقد كنت شغل القلب فى يقظتى ومنامى، وكان رسمك مسطوراً فوق امواج دجلة والفرات.

وهل أنسى أنك صاحبة الوحى لمحبوبك الغالى يوم كان ضيف باريس؟

أنت دنياى يادار الهوى، وطلولك الفقرات أعز على من مؤلفاتى وأشعارى.

وقد استراح فريق من السفهاء حين رأوك رسوماً هامدات، فهل يعرف السفهاء أن حظك فى البؤس لن يكون أقل من حظك فى النعيم؟

وهل يعرفون أنى سأفرض عليهم عد زياراتى وأنت أطلال؟

لقد وجدت يادار الهوى من يتوجع لجراحك الداميات.. فأين من يتفجع لآلامى؟

وأين من يتحزن لكوارثى وهمومى وقد سقطت شرفاتك الغاليات؟

لكل فاجعة مأتم تسكب فيه الدموع ليلة أو ليلتين، ثم يطيب للباكين فيضحكون بعد بكاء، وفجيعتى فيك يادار الهوى فجيعة أبدية لاتعرف الصبر الجميل. رقمت صورتك الغالية بأصباغ من نور وخلود فوق سواد قلبى. فلا خوف عليك من الفناء، وعفا الحب من استغلوا غيبتى فى بغداد فحولوها إلى أطلال باكيات!.

يادار الهوى : أنت برغم الدهر الجائر أقدر منه على الظفر بنعيم الخلود لأنك دار هواء.

يادار هواى عليك من قلبى التحية وأزكى السلام.

«زكى مبارك»

الباب السادس

أزعم أننا لن يكون بوسعنا أن نرسم أبعاد شخصيه زكى مبارك؛ هذه الشخصية التى تركت بصماتهما بوضوح فى تاريخ أدبنا العربى.

دكتور سعيد اللاوندى

مقتطفات وجدانية

«قضيت ماقضيت من حياتى فى دراسة الجمال حيثما كان الجمال، فأنا لا أضيف حرفًا إلى حرف إلا بميزان»...

«زكى مبارك»

عزيزى القارئ..

ما رأيك بعد أن استمتعنا ببعض المقالات العاطفية التى ضمتها مجلة الرسالة وجريدة البلاغ.. أن نستمتع ببعض المقتطفات والفقرات العاطفية والتى ننقلها من على صفحات جريدة البلاغ، ومجلة الرسالة، ومرتبة حسب تاريخ النشر؟..

* * *

رسالة وجدانية (*)

(مجلة الرسالة - العدد ٥٠٠ - فى أول فبراير سنة ١٩٤٢)

(١)

ألوان وألوان (**)

** (كان زكى مبارك ينشر فى مجلة الرسالة فى بعض الأحيان بإمضاء :

الكاتب المجهول والشاعر المجهول والكاتب الكبير)

مولاتى!

كان الظن أن ينتهى مابيننا بعد الحال التى ثارت فى الليلة الماضية، أو السنة الماضية فما أدرى متى التقينا آخر مرة، وكيف أدرى واللحظة القصيرة من الفراق تتمثل لقلبى وكأنها أجيال وتواريخ؟

كان الظن أن ينتهى مابيننا فلا تعود أحلامه ولا أهواله، ولاترجع أيامه ولا لياليه، ولا يمر بالخاطر فى لحظة من زمان.

كان الظن أن نفترق، بعد أن تشهينا أن نفترق، ومعاقرة الكأس توحى بصدع الكأس، فكيف أراجع هواك ياظلوم، بعد أن نويت المتاب، على أعظم حال من الشوق إلى المتاب؟! قد تشهينا أن نفترق، فمتى نفترق؟ ومتى نذوق طعم الأمان من عدوان الأشجان؟

كان اللقاء الأخير بلية من البلايا المواحق، فقد تناظرنا بشراهة تفوق إننا لا نواجه بيداء نريد أن نلتهم مابقى من زاد الحب، وأن نتزود للأعوام البواقى، وأن نقول إننا لا نواجه بيداء الصدود بغير زاد.

لقد أخطأنا فيما صنعنا، والمحبون أطفال كبار لايدرون عواقب مايصنعون من مرارة الافتراق، وهو غير الفراق!

لن ينقضى مابيننا أبدًا، ولن تبيد تلك الألوان، ألوان الأثواب وألوان القلوب.

كنت تلتقينى فى كل مرة بثوب جديد، وكنت ألقاك فى كل مرة بقلب جديد. وما أبعد الفروق بين ألوان الأثواب وألوان القلوب!

لن ينقضى مابيننا أبدًا وبالرغم منى لن يكون ما بيننا أوثق مما بين العين والضياء فلك بدوات تجعل الإيمان بحنانك أضعف من الإيمان بأمانة المحتالين.

لم تكن لى بد فيما صرنا إليه فقد فررت من هواك ألف مرة، وانتقلت من محلة إلى محلة ومن إقليم إلى إقليم، لأنجو بنفسى، فهل نجوت؟

إن الشمس تلاحقنى حيثما توجهت، فأين الفرار من وهج الشمس؟

لا المتاعب الشخصية تشغلنى، ولا الحوادث الدولية تشغلنى، ولاشئ فى الدنيا يصرفنى عن التفكير فيما صرت إليه بعد الافتراق، يا أجمل ريحانة فى روض الوجود.

ألوان أثوابك لاتفوق ألوان قلبى، إلا أن يقال إن المصنوع أجمل من المطبوع.

ألوان أثوابك لها أمثال، وليس لقلبى أمثال، وأنت تعرفين ثم تعرفين.

اذهبى إلى أبعد الآفاق، واعرفى جميع الخلائق، فلن تكونى لغيرى أبداً، ولن يكون للغواية سبيل إلى المليحة التى وسمت جبينها بغرامى.

لن أجود عليك يوماً بنعمة الحرية، وستظلين فى إسارى إلى آخر الزمان.

جربى التحرر.. جربيه، إن كانت لك بالتحرر من وثائقى بد، إن دنياك بعدى بئر مسمومة فانظرى ماتصنعين.

لن ينقضى مابيننا أبداً، ولن يكون لنا غير ماخط فى صحيفة الخلود، وهيهات ثم هيهات أن يمحى سطر خطته الأقدار فى صحيفة الخلود!

مافى كل يوم، ولا كل عام ولا كل جيل، ينعطف قلب إلى قلب كما ينعطف قلبك إلى قلبى، فنحن الغاية المنشودة من الوفاق الصحيح بين الأرواح والقلوب.

دنيانا التى أعرف وتعرفين أصبحت قفراء، فمتى نلتقى لتعود زهراء؟

خبرينى متى نلتقى؟ ومتى نعلن الانتصار على عوادى الزمان؟

لطف الله بك ياظلوم، وحفظ عليك نعمة الوجه الوهاج!

متى نلتقى؟ وهل افترقنا؟ أنت بين يدى وإن حجبتك عنى فياف وسهول.

«الكاتب المجهول»

(٢)

غناء وغناء (*)

* (الرسالة - العدد ٥٢٠ بتاريخ ٢١/٦/١٩٤٣)

فى مكان يستبق إليه ضياء الشمس، ونور القمر، وهدير الأمواج، وقفت أنتظر وفاء بميعاد هو الميعاد.

وأقبلت الروح الملائكية فى سمة إنسانية، كما يطيب للملائكة أن تتشكل بصور الناس فى بعض الأحيان.

ودار حديث أعذب من رنين الكؤوس، وأرق من وسوسة الحلى، فى لحظات الصفاء.

ثم دار عتاب كعتاب القلوب للعيون، فماذا قلت، وماذا قالت تلك الروح، وقد أصغى البحر واستمع الوجود؟

لو تجمع ما أثار البحر من عواطف على اختلاف الأجيال ولو اعتصرت الحياة من يجرى فى أعوادها من رحيق الحب لكان هذا وذاك دون ما أضفينا على الكون من بهجة النعيم... ولو دعينا لأداء الزكاة عن تلك اللحظات لكان من القليل أن نقضى العمر فى شكران من قضت حكمته أن يجعل الحب سيطرة روح على روح، وانجذاب روح إلى روح.

كان ضجيج المدينة أضعف من أن يحجب شرار القلوب، وكان القمر بفضل عليائه أشف من أن ينم عن خلوة حبيب بمحبوب.

فى شهر يونية تقوم غمامة تحجب القمر فى لحظة لا تنتظر ظلال السحاب، فنفهم أن للحب والشعر آلهة، كما تقول أساطير القدماء.

كانت الدنيا كلها فى يدى، وكان هواى هو الهوى، وزمانى هو الزمان، وكانت لغة الوجد فوق الأصوات والحروف، وهل يعرف أحد ما لغة الأنفاس الحرار؟ وكيف وما كانت اللغات إلا تعابير عما يجوز البوح به من سرائر الأرواح.

وأين اللغة التى تعبر عن فرحنا بالحب فى تلك اللحظة الوجدانية؟

أين أين... وهى لحظة ما ظفر بمثلها عاشق فى قديم ولاحديث؟

هى زاد العمر كله، فليتمرد الهجر كيف شاء بعد ذلك الوصال.

لو مرت تلك اللحظة بالناس فى ماضيهم البعيد لظفرت اللغات بألفاظ وتعابير تفوق الوصف، ولكان من السهل أن أشرح مايوحى به ذرع «الرمل» على نغمات الموج فى صمت الليل.

ثم نفترق وقد تحيرنا بين النور الأحمر والأزرق، وهذه إشارة لايفهمها غير أسارى هذين النورين فى «دار الوجد والمجد»، عليها أطيب التسليمات!

فمن فاته أن يعرف سر هيامى بوطنى، فليقرأ هذه السطور بروحانية وإخلاص.

الإسكندرية هى المثال المصور لسرائر النعماء، ومن لم يزر الإسكندرية فليس من حقه أن يزعم أنه عاش لحظة من زمان.

ولى فى الإسكندرية دار تشكو جفائى، ولم أكن من الجافين، دار أساورها بلا استئذان حين أريد، كأنها دار الهوى فى سنتريس أو بغداد أو باريس.

* * *

(٣)

عتاب (*)

(*) مجلة الرسالة ١٢ يوليو سنة ١٩٤٢

هو عتاب الطبيب الذى يذكر عند المرض وينسى عند العافية..

هو عتاب الصديق الذى يذكر فى البأساء وينسى فى النعماء...

هو عتاب النهر الذى تشتاقه الأرض فى الصيف وتنساه فى الخريف.

هو عتاب من لم يبق له منكم غير العتاب..

وكيف أعتب على من يستغنى عن نور القمر بشعاع السراج؟؟

جربوا حياة العقوق، جربوها بعد أن جربتم حياة الوفاء لتعرفوا ماطعم الشهد وماطعم الصاب.

إن كان غركم الصفح فلا صفح، وإن كان غركم الدمع فلا دمع، فقد صيغ قلبى من ضمائر الجبال... تلك أيام خلت وأنا أضن عليها أن تضاف إلى تواريخ، ولن أعترف بأنكم أسرتم روحى لحظة من زمان.

فإن راعكم وفائى لدار الهوى بالمرور عليها فى الغدو والرواح، فلاتعجبوا ولاتظنوا، إنى أستهديكم تحية يجاد بها على عابر الطريق، وإنما هى لفتة أريد بها أن تفهم الحجارة إنى لم أكن فى هواى من العابثين.

إن دار الهوى لن تعرفكم بعد اليوم، ولن تراكم إلا أبدانًا بلا أرواح، ولن تجود عليكم بالسعادة والصفاء ياجيرة آذاهم حفظ الجميل.

سيصنع الدهر مايصنع وسيفعل الغدر مايشاء، وستفترون علىّ بقدر ما عندكم من كيد وجحود، ثم يبقى وفائى لكم ولدار الهوى... ياجيرة أطغاهم الجمال فتاهوا فى صحراوات الدلال.

لن تضيعوا من يدى ولو فررتم إلى آفاق المريخ فارجعوا طائعين قبل أن ترجعوا كارهين، فسرعة الظبى فى الجرى تنبهر حين يلمح وجه الأسد الصوال..

زكى مبارك

(٤)

(أيام الشباب) (*)

يتحدث «زكى مبارك» عن ذكرياته أيام الشباب، فيقول :

(*) جريدة البلاغ فى ١٩٤٩/١٢/٦

تطوف بى من حين إلى حين لفتات إلى الأيام الخوالى من شبابى، فأذكر الشاعر الذى قال:

ماكنت أوفى شبابى كنه قيمته

حتى مضى فإذا الدنيا له تبع

أتذكر أولا أيام سنتريس، وفيها نشأت كما ينشأ الأمل فى قلب اليائس، واليائس هو أبى.

وأتذكر غرامياتى فى «سنتريس» والقلب يتفتح تفتح الزهر قبل انبلاج الصبح، ثم أسرى إلى «باريس» وقد اتصلت بها نحو سبع سنين وذرعت فضاءها من الشرق إلى الغرب إلى أن سبحت فى بحر المانش، ثم أثب فأرانى فى «بغداد» (وطن ليلى المريضة فى العراق)، وهناك ألقيت قلبى فأغرقته فى أمواه دجلة والفرات، على أيامها ألف سلام.

ومع هذا، فلى آمال جديدة فى الغرام الجديد، وهو غرام حضر على غير ميعاد فتفجر منه الحب فى القلب كما يتفجر الماء من الصخر الجلمود.

عهود بعيدات تعود لخاطرى

فأحيا بها بالرغم من ذلك البعد

تذكرت أياما مضينا ولم تعد

بها كان طعم الصاب أحلى من الشهد

قضيت بها مالا احب إذكاره

فمالى إلى النسيان ياقلب من بد

تذكرت عهداً للشبيبة عشته

فقل ما يشاء الحزن من ذلك العهد

وكان لنا من وعد هند ذخيرة

من الأمل المصبوب فى أكؤس الوعد

فضاعت أمانى الحب لمحًا كما ترى

ذهاب بريق البرق فى أثر الرعد

وليس إلى باريس رجع تناله

فما لليلى السين ياقلب من ود

وإن ذكرت بغداد فى الراد فاستمع

حديثًا رواه القلب عن تلكم الخود

فيا دار ليلى أخبرينى بما جرى

لعينى ففيها ما «يرام» من السهد

ويا بائعين الصد بالحب أسرعوا

وجودوا على قلبى بشىء من الصد

أريد لأنسى ذكرى ليلى وأهلها

وأقتل ما فى القلب من ذلك الورد

ظمئت فهل لى نحو دجلة رجعة

لأطفئ نار القلب من ذلك الورد

عفا الله عن ليلى وقد ارتضت

لعشاقها غير المتاب من الرشد

امثلى وخمر الحسن طاف برأسه

فصير فيه الشيب كالسيف فى الغمد

امــشــلــى يــــرضى من عـــنول نـــصـــيـــحــة

لـــكل عـــزول فى الـــهـــوى كـــفن الـــلـــحـــد

لـــكم ظـــلـــمـــة من غـــيـــكم وضلالـــكم

فـــعـــنـــد أفـــول الـــبـــدر بـــالحـــسن اســـتـــهـــدى

زكى مبارك

● الراد : يقصد الراديو

(٥)

إلى جمال الجمال (*)

ويتحدث «زكى مبارك» إلى جمال الجمال فيقول :

(*) جريدة البلاغ بتاريخ ١٩٤٩/١٢/٦

تلقيت رسالتك يامحبوبتى الغالية، وفيها أن غرامنا دام سبع سنوات طوال، وإنك تخافين عليه من الخمود.

وجوابى أن الهوى لايموت فى قلبى يا شقية، ولن يموت.

إن ليالينا فى إسكندرية كانت أزهارًا تشرق فى الليل، أما ليالينا بمصر الجديدة فكانت أضواء من أحلام الأمانى.

كنا نختصم لحظة ثم نصطلح بعد لحظة كالأطفال.

١٨ يوليو سيعود، وكان يوم تلاقينا بمصر الجديدة على غير ميعاد.

لايوجد بمصر الجديدة مكان خلا من تناجينا فى الليل، وقد خططنا سطورًا فوق الرمال كالسطور التى خططناها فوق «الرمل» فى الإسكندرية الغالية يوم كنت سمكة أصطادها فى البحر وهو يضرب أمواج بأمواج.

من جدائل شعرك أخذت خصلة معطرة ضممتها إلى الخصلة التى أهدتها ليلى المريضة فى باريس، والخصلة التى أهدتها ليلى فى العراق، ولاموجب للحديث عن القبلة التى نهبتها من ليلى المريضة فى الزمالك فى ليلة عيد :

يـالـيـلـة الـعـيـد مـاذا انت صـانـعـة

إنى أخـاف الجـوى يـالـيـلـة الـعـيـد

وفى هذه الليلة تلاقينا بعد يأس من التلاقى، وطال العتاب على هجر اسمك فى مقالاتى كأنه يجب أن أفتضح بالحب أكثر مما افتضحت.

لابد من السفر إلى إسكندرية لنحترق بماء البحر.

إننى قرأت رسالتك يامحبوبتى الغالية خمسين مرة، وحمدت الله على أن يكون لى فى قلبك هذه المكانة السامية، وأن تكونى من قرائى.

أما صحتى فهى مضعضعة، ولعل هواء البحر ينعشنى حين أسير فى أماكن تلاقينا فيها قلبًا إلى قلب، وروحًا إلى روح.

* * *

وجه من النور لو تبدى (*)

يقدم لنا الشاعر «زكى مبارك» قصيدة

(*) القصيدة طويلة وهى على صفحات ديوان : «أطياف الخيال» وهى بتاريخ ١٩٥٠/٩/٥، وقد نشرت من قبل على صفحات جريدة البلاغ. ويقول فى مقدمتها:

أقدم قصيدة جيدة... وإن كان مادح نفسه يقرئك السلام... فعلى قراء البلاغ أن يقدموا السلام إلى شاعر البلاغ:

هوى جديد اشد فتكًا
من كل ما مر من غرامى

لقيته أمس دون وعد
كأنه الحلم فى المنام

شربت من وجهه رحيقًا
جعلته فى الهوى مدامى

وجه من النور لو تبدى
بالليل لم ندر ما الظلام

ياعاذلى لا تطل ملامى
عز فؤادى عن الملام

ولا تحاول صلاح قلب
فى عشقه تبعد المرام

لم يمض يومًا بغير حب
ولا صراع مع الهيام

عمر وهبناه للغرام
ولذعة القلب بالضرام

مـــــا عـــــلـــــمـــــتـــــنى الـــــلـــــيـــــالى

يـــــــــــوماً ولا الأيـــــــــــام

إنى ســـــقـــــيت الـــــلـــــيـــــالى

مـن هـــــــــذه الأوهـــــــــام

صـــــبـــــابـــــة الـــــكـــــأس تـــــدمى

فـــــلـــــتـــــشـــــرب الأيـــــام

***

زكى مبارك

ويتحدث زكى مبارك عن لقائه فى مساء اليوم فيبدأ بقوله (*)

(*) جريدة البلاغ فى ١٩٥٠/١٠/٣١

ولكن أين؟ ومع من؟

مع الروح الموحية لأشعارى بعيونها السود وشعرها الفاحم وشفتيها اللمياء... إنها تشترى البلاغ لتقرأ بصوتها البغوم على مسمعى... ولكنها لا تجد مقالى لأنه لا يظهر إلا فى يوم الثلاثاء مراعاة لغرام يوم الثلاثاء وهو :

غرام قضيناه وللدهر غفوة

فيارب هب لى دائمًا غفوة الدهر

* * *

(٧)

الليلة الحمراء (*)

يكتب «زكى مبارك» عن الليلة الحمراء فيقول:

(*) جريدة البلاغ : ١٩٥٠/١١/٢٨

الحديث ذو شجون يضعه «البلاغ» بالحبر الأحمر، كأنه يعرف إننى أعيش فى الليالى «الحمرا»!

ليلة الأمس جديدة، فقد قضيتها مع روح لطيفة فى مصر الجديدة، روح لها عيون كحيلة وخد أحمر فى لون الورد.

تلك الروح نقلت قلبى من مكان إلى مكان.. أويت إلى فراشى وقلبى مزلزل أعنف زلزال، فقد طار صوابى، فلم أعرف يمينى من شمالى، ثم صحوت وفى فمى بقية من ثغر تلك الروح، وهو ثغر فيه دنان من الرحيق.

المهم هو وصف الليلة الحمراء :

لـيـلـتـنـا بـالأمس عـودى فـإننى

إلى وردك المـعـسـول ظـمـآن ظـمـآن

ففيك قضيت الليل فى لهو فتنة

اداعب روحًا وجهها الحلو فتان

وتنشدنى شعرى فأمسى بلطفها

جحيما له فى القلب نار ونيران

ولم أدر كيف الليل والصبح بعدها

فقلبى بخمر الحسن نشوان نشوان

تسائل عن قلبى وأين مكانه

وأين فؤاد بالملاحة سكران

أجب يافؤاد عنده الوحى كله

فأنت بوصف الحسن ياروح فنان

ودع كل أمرى للهوى وجحيمه

فمالى بعد الموت فى الحب رجعان

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فربحك فى شرع الغواية خسران

* * *

الغرام الجديد (*)

يتحدث الشاعر زكى مبارك عن غرامه الجديد فيقول:

(*) جريدة «البلاغ» فى ١٩٥١/١/٢٣

وآها ثم آها من غرام الكهول، ولمحبوبتى مزية جميلة، وهى توحى بعيونها معانى لا أجدها فى عيون غير عيونها، وإنها تسمعنى مقالاتى بصوتها البغوم، ونثرى مثل شعرى يقوم على الغناء، فحرف يلتقى بحرف قبلة على خد، أو ضم قد إلى قد، أو سقوط النحل على الورد.

اقترحت الشقية أن أنظم قصيدة، فنظمت القصيدة الآتية :

رايـــتـك بـــالأمس يـــافـــتـــنـــتـى

وانت بـــألحـــاظك الـــســـاحـــرات

عـــلى الـــشط ســـرنـــا بـــوادى الـــهـــيـــام

لأشـــرب من فـــيـك راح الـــغـــرام

وريـــقـك يـــاروح فـــيـه المـــدام

تـــضـىء فـــتـــبـــعـــد عـــنـه الـــظلام

* * *

عـــلى الـــشط مـــا الـــشط لا أعـــرف

فـــوجـــدى بك الـــيـــوم لايـــوصف

جـــريح... جـــريح.... مـــتى تـــســـعف؟

اجـــيـــبى : مـــتى أيـــهـــا الـــقـــرقف(*)

(*) القرقف : الخمر أو الماء الصافى

بـــوجـــهـك يـــاروح قـــد احـــلـف

بـــأنك انت الـــذى أعـــشق

متى نلتقي؟ أين هذا المساء

واكحل عيني بذاك البهاء

واشرب من فيك راح الصفاء

وانسى شجوني وأنسى البكاء

* * *

الباب السابع

هاجم زكى مبارك دعاة حضارة الشرق أوسطية؟

وقد عادوا الآن مرة أخرى مما يجعلنا فى أشد الحاجة لإعادة اكتشاف زكى مبارك

محمد الشافعى

من على صفحات كتابه

جوارح ومجاريح

حديث الحب

اهتم الدكتور زكى مبارك بالحديث عن الحب من سنوات وسنوات، فأول كتاب أصدره كان عن حب ابن أبى ربيعة وشعره سنة ١٩١٩، وكان الكتاب الثانى تحت عنوان «البدائع» سنة ١٩٢١ وضم أيضًا الكثير من حديث الحب.

(كان ثالث كتاب لزكى مبارك عن مدامع العشاق وصدر سنة ١٩٢٣، وكان من قبل مقالات تنشر على صفحات مجلة الصباح سنة ١٩٢٢).

من هنا نرى أن زكى مبارك اهتم بالحديث عن الحب من بداية حياته الأدبية.

يقول الأديب الناقد الدكتور زكى مبارك لقد أكثر شعراء العرب من الحديث عن الحب وعن الحسن وتنوعت مذاهبهم فى وصف مايشقى به المحب وما ينعم به المحبوب وفى الصفحات التالية نعيش مع بعض ماسطره قلم زكى مبارك على صفحات مجلة الصباح سنة ١٩٢٢، وصدر فى كتاب يحمل عنوان: «مدامع العشاق» سنة ١٩٢٣ وطبع فى المكتبة التجارية الكبرى.

يقول زكى مبارك تحت عنوان :

ميزان الحب

ميزان الحب فيما يرى جميل أن يهب المحب لمحبوبه دمه وماله، وانظر كيف يقول:

لحا الله من لاينفع الود عنده

ومن حَبْلَهُ إن مدَّ غير متين

ومن هو ذو لونين ليس بدائم

على ثقة خوان كل آمين

فلو أرسلت يومًا بثينة تبتغى

يمينى ولو عزت على يمينى

سلينى مالى يابثين فإنما

يُبيَّنُ عند المال كل ضنين

فما لك لما خبَّر الناس أننى

أسأت بظهر الغيب لم تسلينى

فأبلى عذرًا أو أجىء بشاهد

من الناس عدل أنهم ظلمونى

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمى

وهموا بقتلى يابثين لقونى

إذا ما رأونى طالعًا من بثين

يقولون من هذا؟ وقد عرفونى!

***

وتتوالى بعد ذلك مقالات زكى مبارك عن الحب

***

سلطان الحب

قال زكى مبارك عن المحب اهو مضطر او مختار :

سألنا حضرة الشيخ محمد على الخالدى عن الحب: اختيارى هو أم اضطرارى وهل المحب مضطرًا أم مختار؟ وقد اختلف الناس من قبل فى هذه المسألة. وأوضحها ابن أبى حجلة فى كتاب «ديوان الصبابة» وأنا ناقل هنا نبذة من ذلك الكتاب الذى انتهى منه مؤلفه فى منتصف القرن الثامن الهجرى. لأنه يمثل لنا رأى علماء ذلك العصر فى مثل هذه الشئون. قال ابن أبى حجلة فى سذاجة غريبة مانصه:

«هذا فصل عقدناه لما تقدم ذكره. وأسفر كالصباح أمره. إذ للناس فيه كلام من الطرفين، وتبختر من الصفين. فقائل بأنه اضطرارى. وقائل بأنه اختيارى. ولكل من القولين وجه مليح. وقد رجيح. ونحن نذكر من ذلك ما يعم به الانتفاع. ونتكلم فى طوله وعرضه بالباع والذراع(!!) فمن ذلك ما قاله القاضى أبو عمر النونانى فى كتابه تحفة الظراف: العشاق معذورون على كل حال. مغفور لهم فى جميع الأقوال والأفعال إذ العشق إنما دعاهم على غير اختيار. بل اعتراهم على جبر واضطرار. والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور. لا فى المقضى عليه والمقدور. وقد جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الحامل كانت ترى يوسف عليه السلام فتضع حملها. فكيف تراها وضعته؟ أباختيار منها كان ذلك أم باضطرار؟. بل باضطرار، وفقد اقتدار وهذا مما لا يشك فيه ذولّب. ولا يختلج خلافة فى قلب».

ثم نقل عن الفضيل بن عياض أنه قال: لو رزقنى الله دعوة مجابة لدعوت الله بها أن يغفر للعشاق لأن حركاتهم اضطرارية. ونقل عن أبى محمد بن حزم أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين إنى رأيت إمرأة فعشقتها. فقال عمر: ذلك مما لا يملك «قال وما أحسن قول بعض بنى عذرة وقد قال له بعض العرب: ما لأحدكم يموت عشقًا فى هوى امرأة يألفها؟ إنما ذلك ضعف نفس، ورقة، وخور، تجدونه فيكم يا بنى عذرة. فقال: أما والله لو رأيتم الحواجب الزج، فوق النواظر الدعج. تحتها المباسم الفلج، لا تخذتموها اللات والعزى»!.

ثم قال بعد كلام طويل «إن العشق يختلف بإختلاف بنى آدم وما جبلوا عليه من اللطافة ورقة الحاشية، وغلظ الكبد، وقساوة القلب، ونفور الطباع، وغير ذلك. فمنهم من إذا رأى الصورة الحسنة مات من شدة ما يرد على قلبه من الدهش ومنهم من إذا رأى المليح سقط من قامته، ولم يعرف نعله من عمامته» - العاقبة عندكم يا شيخ محمد! - ثم قال «فهذا وأمثاله عشقه اضطرارى، والمخالفة فيه مكابرة فى المحسوس».

والذى أراده أن المحب مضطر غير مختار، وما ذكرت هذه التفاصيل إلا ترويجًا للنفس أما الشعر فى سلطان الحب فكثير. فمن الشعراء من يجعله سحرًا كالطغرائى حين يقول:

إن لم يكن سحراً هواك فإنه ... والسحر قداً من أديم واحد

مازلت أزهد فى مودة راغب ... حتى ابتليت برغبة فى زاهد

ولربما نال المراد مرفّه ... لم يسع فيه وخاب سعى الجاهد

هذا هو الداء الذى ضاقت به ... حيل الطبيب وطال يأس العائد

ومنهم من يذكر أنه قتل نفسه غير متعمد كقول مهيار:

وعنفنى سعد على فرط ما رأى ... فقلت أتعنيف ولم تك مسعدى

وماذاك إلا أن عجلت بنظرة ... قتلت بها نفس ولم أتعمد

ومنهم من يرى الحب يصب على القلب كالقضاء المحتوم لا مرد له كقول المتبى :

أيدرى الربع أى دم أراقا ... رأى قلوب هذا الركب شاقا

لنا ولأهله أبداً قلوب ... تلاقى فى جسوم ما تلاقى

فليت هوى الأحبه كان عدلاً ... فحمل كل قلب ما اطاقا

ومنهم من يجعله قضاءً من الله. كقول عمرو بن ربيعة الرقاشى:

تضيق جفون العين عن عبراتها ... فتسفحها بعد التجلد والصبر

وغصة صدر أظهرتها فرفهت ... حزازة حر فى الجوانح والصدر

الا ا& حب المالكية فاصطبر ... يلام الفتى فيما استطاع من الأمر

ويدخل فى هذا الباب خلود الحب. فمن الشعراء من يجعل سببه خلود المحاسن فى الحبيب، كقول ابن الرومى:

هل الملالة إلا منقضى وطر　　　من متعة يطبَى من غيرها وطر

وفيك احسن ما تسمو النفوس له　　　فأين يرغب عنك السمع والبصر

وكما قال ابن عنين:

خبروها بأنه ما تصدى　　　لسلو عنها ولو مات صدا

واسالوها فى زروة من خيال　　　إن تكن لم تجد من الهجر بدا

ظبية تخجل الغزالة وجهًا　　　وبهاءً وتفضح الغصن قدا

وكما قال أبو الأسود الدؤلى:

ابى القلب إلا أم عمرو وحبها　　　عجوزًا من يحبب عجوزًا يفند

كبرد اليمانى قد تقادم عهده　　　ورقعته ما شئت فى العين واليد

وهو رأى منتقد: فكل زهر إلى ذبول، وكل جمر إلى خمود، وكل حسن إلى فناء، ولا خلود للحب إذا كان داعيه الحسن الفانى والجمال الزائل.

ومنهم من يجعل السبب فى خلود الحب كثرة دواعيه، كقول صرّدر:

ولقد عرضت على السلو جوانحى الـ　　　ـحرى فلم يرهن دار مقام

كيف السلو وليس يسلك مسمعى　　　إلا حنين او بكاء حمام

وكما قال ابن الزيات:

لم يزدنى العذل إلا ولعا　　　ضرنى أكثر مما نفعا

ذهبت بالقلب عين نظرت　　　ليتها كانت وإياه معا

كل يوم لى منها آفة　　　تركتنى للهوى متبعا

مثال الحبيب

وكتب زكى مبارك:

ومن العشاق من يرى مثال حبيبته كلما هبَ من نومه، أو أوى إلى فراشه كالذى يقول:

آآخر شىء انت فى كل هجمه　　　واول شىء انت عند هبوبى

مزيدك عندى ان اقليك من الردى　　　وود كماء المزن غير مشوبِ

والمنى تمثل الحبيب فى قول راشد بن أرشد:

تحـيـرت فى امـرى وانى لـواقف	اجيل وجوه الـراى فـيك ومـا ادرى
أأعـزم عـزم الـيـأس فـالمـوت راحـة	او اقـنـع بـالإعـراض والـنـظـر الـشـزر
وانى وان أعـرضت عـنـك لمـنـطـو	عـلـى حـرق بـين الجـوانب والـصـدر
إذا هـاج شـوقى مـثـلـتك لى المنى	فألـقـاك مـا بـينى وبـينك فى الـسر
فمن ذاك لم اصبـر ولى فيك حيـلة	ولكن دعـانى اليأس منك إلى الصبر
تـصـبـرت مـغـلـوبًـا وانى لمـوجع	كما يصبر الظمآن فى البلد القفر

وراشد بن أرشد هذا هو الذى يقول:

ضحكت ولو تدرين مـا بى من الـهوى	بـكـيت لمحـزون الـفـؤاد كـئـيب
لمن لم تُـرحْ عـيـنـاك من فـيض عـبـرة	ولا قـلـبـه من زفـرة ونـحـيب
لمسـتـأنس بـالـهم فى دار وحـشـة	غـريب الـهـوى بـاكٍ لـكل غـريب
الا يـأبى الـعـيش الـذى بـان وانـقـضى	ومـا كـان من حـسن هـنـاك وطـيب
وتـرداد مـسـتـور الأحـاديث بـيـنـنـا	عـلـى غـفـلـة من كـاشح ورقـيب
لـيالى يـدعـونـا الـصـبـا فـنجـيبه	ونـأخـذ من لـذتـه بـنـصـيب
إلى أن جرى صرف الحوادث فى الهوى	فـبـدل مـنـا مـشـهـدٌ بمـغـيب

وقد ضاع شعر هذا الشاعر المجيد، وحرمنا منه صاحب زهر الآداب حين قال: «وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره، وصنت الكتاب عن ذكره» وبهذه الصيانه فقدت الآداب شعر هذا الشاعر، وكم نتمنى أن لا يختلط المؤلفون بين الأدب والأخلاق!

وأجود ما قيل فى مثال الحبيب قول كثير:

اريـد لأنس ذكـرهـا فـكـأنمـا	تـمـثـل لى لـيـلـى بـكل سـبـيل

بكاء الشباب

وعن انصرام الشاب يقول الدكتور زكى مبارك:

ولعل أشجى ما يمر بخاطر المرء أن يهجره الغيد بعيد انصرام الشباب، والشباب هو شفيع الفتى إلى قلوب الحسان، فإذا مضى فقد أصبح بلا شفيع، والويل للمفرد المغلوب!.

من أجل ذلك تفنن الشعراء، فى بكاء الشباب، والتنكر للمشيب، فمنهم من تبيضُ فى رأسه شعرة واحدة، فلا يراها قليلة، لأن قذى العين غير قليل، كما قال ابن الرومى:

طرفت عيون الغانيات وربما ... أمالت إلىَّ الطرف كلّ مميل

وما شبت إلا شيبة غير أنه ... قليل قذاه العن غير قليل

وابن الرومى يكثر البكاء على شبابه، ويعلل نفسه أحيانًا بأن الشيب فى الرأس كالنور على الغصن، ويأسى كثيرًا لاحتياجه إلى الخضاب، الذى يراه أشبه بسواد الحداد، ويكاد يصرخ من خروجه إلى الحسان فى شعر ميّت، وقلب حى، والمحب يتفجر قلبه دائمًا بالحياة! وانظر كيف يقول:

شاب راسى ولات حين مشيب ... وعجيب الزمان غير عجيب

قد يشيب الفتى وليس عجيبًا ... أن يُرى النوْر فى القضيب الرطيب

ساءها ان رات حبيبًا إليها ... ضاحك الرأس عن مفارق شيب

يا حليف الخضاب لا تخدع النف ... س فما انت للصبى بنسب

ليس يُجدى الخضاب شيئًا من النف ... ع سوى أنه حدادُ كئيب

لهفَ نفسى على القناع الذى مَحَ ... واعقبت منه شرْ عقيب

منع العين ان تقرَ وقرّتْ ... عين واش بنا وعين رقيب

شعرُ ميتُ لذى وطرٍ حىَ ... كنار الحريق ذات اللهيب

ظلمتنى الخطوب حتى كأنى ... ليس بينى وبينها من حسيب

وما أروع قوله السُخر من الخضاب:

رايت خضاب المرء عند مشيبه ... حداداً على شرخ الشبيبة يُلبسُ

وإلا فـمـا يـغـزو امـرءُ بـخـضـابه ... أيـطـمـع أن يـخـفـى شـبـابُ مُـدلّسُ

وهــبهُ يــوارى شــيــبهُ أين مــاؤهُ ... وأيت أديمُ لــلــشــبــيــبـة أمْـلسُ

وقال أشجع السلمى يوصى بانتهاب اللذات، قبل أن يقف فى سبيلها الهرَم والمشيب:

ومـالى لا أعـطى الـشـبـاب نـصـيبه ... وغـصـنـاه يـهـتـزّان فى عـوده الـرطب

رأيت الـلـيـالى يـنـتـهـبن شـبـيـبتى ... فـأسـرعت بـالـلـذات فى ذلك الـنـهْب

رأيت بـنـات الـدهـر يـخـلـسن لـذتى ... لقـد حزن سلمى وانـتهـين إلى حربى

وقـد حـولت حـالى الـلـيـالى واسرجت ... على الرأس أمثال الفتيل من العطب

ومـوت الـفـتى خـيـر له من حـيـاته ... إذا كـان ذا حـالـين يـصـبو ولا يُـصبى

وقال آخر فى صدوف النساء عن صرعى المشيب:

هل الأدم كـالآرام والـدهـر كـالـدمى ... مـعـاودتى أيـامـهنَّ الـصـوالحُ

زمـان سلاحى بـيـنـهن شـبـيـبـتى ... لـهـا سـائقُ من حـسـنـهنَ ورامح

وأقـسـمن لا يـسـقـيـنـنى قـطر مـذنه ... لـشـيـبى ولـو سـالت بـهنَّ الأبـاطح

وكان استاذنا المرحوم فقيد اللغة والأدب الشيخ محمد المهدى بك كثير الإعجاب بقول أبى منصور النميرى فى الجزع على شبابه المفقود:

مـا تـنـقـضى حـسـرهُ مـنى ولا جـزعُ ... إذا ذكـرت شـبـابًـا لـيس يـرتـجعُ

بـان الـشـبـاب ونـابـتـنى بـفـرقـته ... خُـطـوب دهـر وأيـام لـهـا خـدَع

مـا كـنت أوفى شـبـابى كـنه قـيـمـته ... حتى انـقـضى فـإذا الـدنـيـا له تـبع

تـعـجـبت أن رأت أسـراب دمـعـته ... فى حـلـبـة الـخـد أجـراهـا حـشًا وجع

أصبحت لم تطعمى ثكل الشاب ولم ... تـشـجىْ بـغـصـته والـعـذر لا يـقع

لا الحـين فـتـاتى غـيـر كـاذبـةٍ ... عـين الـكـذوب فـمـا فى ودكم طـمعُ

مـا بـالـشـبـيـة من وان وإن رفـعت ... إلا لـهـا نـبـوهُ عـنه ومـرتـدعُ

إنى لمـعـتـرفُ مـا فى من أربٍ ... عند الحسان فما فى النفس منخَدع

قد كدت تقضى على فوت الشباب أسى ... لـولا أعـزيك إن الأمـر مـنـقـطع

ويذكرون أن الرشيد سمع هذا الشعر، وبكى له وأنشد:

أتـأمل رجـعـة الـدنـيـا سـفـاهًـا ... وقـد صـار الـشـبـاب إلى ذهـابِ

فـلـيت الـبـاكـيـات بـكل أرضَ ... جُـمعنَ لـنـا فـنـحن عـلى الـشـبـاب

ظلم الحبيب

ويقول زكى مبارك:

وفى الحب وحده يحلو الظلم، حتى لتحكم عُليَّة بنت المهدى بأن الحب بُنى عليه، وتقول:

وضُح الحبُّ على الجَور فلو أنصف المعشوق فيه لسمُجْ
ليس يستحسن فى شرع الهوى عاشقٌ يحسن تأليف الحجج

وقال النميرى:

راحتى فى مقالة العُدَّل وشفائى فى قليلهم بعد قال
لا يطيب الهوى ولا يحسن الح ب لصبٍ الا بخمس خصال
بسماع الأذى وعذل نصيح وعتابٍ وهجرةٍ وتَقال

ويعلل بعضهم جمال الظلم فى الحب بقوله:

لولا اطراد أخو الحياة وماله فتطاردى لى فى الوصال قليلاً
هذا الشراب أخو الحياة وماله من لذة حتى يصيبَ غليلاً

ومثله قول الآخر:

دع الصبَّ يصلى بالأذى من حبيبه فإن الأذى ممن تحب سرورُ
غبار قطيع الشاة فى عين ذئبها إذا ما تلا آثارهنَّ ذرور

وأنشد الأصمعى:

لا خير فى الحب وقفًا لا تحركه عوامل اليأس أو يقتاده الطمعُ
لو كان لى صبرها أو عندها جزعى لكنت أملك ما آتى وما أدع
إذا دعا باسمها داع ليحزننى كادت له شعبهُ من معجتى تقع
لا احمل اللوم فيها والغرام بها ما كلف ا& نفسًا فوق ما تسع

ومن جيّد الشعر فى ظلم الحبيب قول أبى حية النميرى:

رمتنى وستر الله بينى وبينها ونحن بأكناف الحجاز رميم
رميم التى قالت لجارات بيتها ضمنت لكم أن لا يزال يهيمُ
ألا ربَّ يوم لو رمتنى رميتها ولكنَّ عهدى بالنضال قديم
فيا عجبًا من قاتل لى أودُّه أشاط دمى شخص علىَّ كريم

يرى الناس أنى قد سلوت وإننى لمدنف أحشاء الضلوع سقيم

وهذا الشعر غاية فى رقة المعنى وجزالة الألفاظ.

وما أجمل الرفق فى قول ابن الرومى:

أصبحت مملوكًا لأحسن مالك لو كان كمل حسنه إسجاحه

لم يعنه أرقى وفيه لقيتهُ حتى أضرَّ بمقلتى إلحاحهُ

كلا ولا دمعى وفيه سفحته حتى أضر بوجنتى تسفاحه

لامسّه بعقوبةٍ من ربهِ إقلاقه قلبى ولا إترِاحه

يا ليت شعرى هل يبيتُ معانقى ويداى من دون الوشاح وشاحه

هل أنت منصف عاشق متظلم طول النحيب شكاته وصياحه

قسمًا لقد حيِّمت منك بمنزلٍ لى حزنهُ ولمن سواى بطاحهُ

ما بال ثغرك مشربًا لى سُكرهُ ولمن سواى فدتك نفسى راحه

نفسى معذبةٌ به من دونه ويباحه دونى ولست أباحهُ

وأحب لو تأمل القارىء قول الشريف:

ولى ناظرٌ بعد بين الخليط مات من الدمع إنسانه

رواءُ من الماء آماقهُ ظماءٌ من النوم أجفانه

فأين من الداء إفراقه(١) وأين من القلب سُلوانهُ

فيا ظالمًا طيبًا ظلمهُ كثيرًا على القلب أعوانه

يباع بسومك حبُّ القلوب وتغلق عندك أثمانهُ(٢)

وشرّ الإساءة من مالكٍ أساء ومانيلَ إحسانه

لك الله أنى واصلٌ ما وصلتنى ومُثنٍ بما أوليتنى ومثيب

وآخذ ما أعطيت عفوًا وإننى لأزورُ عما تكرهين هيوبُ

فلا تتركى نفسى شعاعًا فإنها من الوجد قد كادت عليك تذوب

وإنى لأستحييك حتى كأنما على بظهر الغيب منك رقيبُ

وفى هذا المعنى يقول صاحب البدائع (وهو نفسه «د. زكى مبارك»:)

---

(١) أفرق من دائه أبرىء منه

(٢) غلق الثمن: ضاع

تجـمّل بـالـسـمـاح ودع ملامى ... وكن عَـونَ المحبِ المستهام

فـفى أسيوط لـو تـدرى حـبيبٌ ... هـجـرت لـبـعـده طـيبَ المنام

اسـيت لـه يـحنُّ إلى لـقـائى ... ودون مـرامه كـيد اللئـام

إذا مـا الـلـيل جنَّ ونـام صَحبى ... مـشت نـار الـتـذكر فى عـظامى

سلامٌ أيـهـا الـنـائى سلامٌ ... وهل يـغـنى عن الـلقيا سلامى

وقال نُوَيب:

أيـا ثـارات من قـلـتـه سُـعـدى ... دمى لا تـطـلـبوه لـهـا حلالُ

أرقّ لـهـا واشـفق بـعـد قـتـلى ... عـلـى سـعـدى وإن قل الـنـوال

ومـا جـادتْ لـنـا يـومًا بـبـذل ... يمـينُ من سـعـادَ ولا شـمـال

ونوَيب هذا هو الذى يقول:

الا هذا فى سبيل الله نفسٌ تقسمتْ ... شعـاعًا وقلب لـلـحسان صديقُ

افـاقت قـلـوبٌ كن عـدًبن الـهـوى ... زمـانًـا وقـلـبى مـا أراه يُـفـيق

عـصيت بك الـنـاهين حتى لـو اننى ... امـوت لمـا ارعى عـلـىً شـفـيق

(٥)

الحنين

تحت هذا العنوان يقول زكى مبارك:

شعر من نأوا عن أحبابهم، وخلوا معاهد انسهم، فهو كثير، ومن جيده قول الأبيوردى يتشوق إلى أحبابه وقد خلاهم ببغداد:

الا لـيت شعـرى هل أرانى بـغـيـضة ... ابـيت عـلـى أرجـائـهـا واقـيلُ

هـواءٌ كـأيـام الـهـوى لا يـغـبهُ ... نـسيمٌ كـلـحظ الـغـانـيات عـلـيل

وعـصـر رقـيقُ الـطـرتـين تـدرجت ... عـلـى صـفـحـتـيه نـضرهٌ وقـبـولِ

وأرضٌ حـصـاهـا لـؤلـؤ وتـرابـهـا ... تـضوّع مـسـكًـا والمـياه شـمـول

بـهـا الـعـيش غـصن والحيـاة شـهـية ... ولـيـلـى قـصـير والـهـجـير أصيل

فـقل لأخلائى بـبـغـداد هل بـكم ... سـلـو فـعـنـدى رنهٌ وعـويلُ

تـرنـحـنى ذكـراكمُ فـكـأنمـا ... تـميل بى الـصـهـبـاء حيث أميل

لـئن قـصـرت أيـام أنـسى بـقـربـكم ... فـلـيـلـى عـلـى نـأى المزار طـويل

وقال اعرابى من بنى عُقيل:

احنُّ إلى ارض الحجاز وحاجتى ... خيامٌ بنجد دونها الطرف يقصر

وما نظرى نحو الحجاز بنافعى ... بشىء ولكنى على ذاك انظر

افى كل يوم نظرةٌ ثم عبرةٌ ... لعينيك يجرى ماؤها يتحدَر

متى يستريح القلب إما مجاورٌ ... حزين إما نازحٌ يتذكرُ

وقال آخر فى الحنين إلى أيامه السوالف:

سقى الله اياماً لنا قد تتابعت ... وسقياً لعصر العامرية من عصر

ليالى اعطيتُ البطالة مقودى ... تمرُّ الليالى والشهور ولا ادرى

ومن شائق الحنين قول ابن الدمينة:

الا لا ارى وادى المياه يثيب ... ولا النفس عن وادى المياه تطيب

احب هبوط الواديين وانني ... لمشتهرٌ بالواديين غريبُ

احقاً عباد الله ان لست وارداً ... ولا صادراً إلا علىَّ رقيب

ولا زائراً فرداً ولا فى جماعة ... من الناس إلا قليل انت مُريب

وهل ريبهٌ فى ان تحنَّ نجيبةٌ ... إلى الفها او ان يحنَّ نجيب

حلاوة الملام

وتحت هذا العنوان «الطريف» كتب زكى مبارك:

ومن المحبين من يستعذب اللوم، لذكر الحبيب، كما قال أبو نواس:

احبُ اللوم فيها ليس إلا ... لترداد اسمها فيما الام

ويدخل حبها فى كل قلب ... مداخل لا تغلغلها المدامُ

وفى هذا المعنى يقول محمد بن أبى أمية:

وحدثنى عن مجلس كنت زَيْنه ... رسولٌ أمينٌ والنساء شهودُ

فقلت له ردَّ الحديث الذى مضى ... وذكرك من بين الحديث اريد

وقد ظرُف البهاء زهير حين قدم رضا الحبيب على رضا العذول، وقال:

يا من يهددُ بالصدو ... دِ نعم تقول وتفعلُ

قد صح عذرك فى الهوى ... لكننى اتعلل

قل للعذول لقد اطل ... ت لمن تلوم وتعذل

عاتب من لا يرعوى ... وعذلت من لا يقيل

غضب العذول أخف من ... غضب الحبيب وأسهل

وما أبدع قول أبى فراس:

أساءَ فزادته الإساءة حُظوةً ... حبيبٌ على ما كان منه حبيبُ

يعدّ على العاذلون ذنوبه ... ومن أين للوجه المليح ذنوب؟

والرقيب أخو اللائم فى تنغيص حياة العشاق، ومن طريف الشعر فى الألم لقرب الرقيب قول ابن المعتز:

وابلائى فى محضرٍ ومغيبٍ ... من حبيب منى بعيدٍ قريب

لم تَردْ ماء وجهه العين إلا ... شرقتْ قبل ريها برقيبِ

لوعة الشوق

وعن سحر الحديث يكتب زكى مبارك فيقول:

نمتع القارئ فى هذا الباب بألوان من سحر الحديث وعن تغلغل الشوق فى طيات الفؤاد. فمن ذلك قول أحد الشعراء وقد اشتاق إلى أرض جِلق، وتمنى لو كحل أجفانه بترابها:

وان اصطبارى عن معاهد جلق ... غريبٌ فما اجفى الفراق واجفانى

سقى الله أرضًا لو ظفرت بتربها ... كحلت بها من شدة الشوق أجفانى

وقال أبو بكر بن سعادة يتشوق إلى قرطبة:

اقرطبة الغراء هل لى أوبةٌ ... إليك وهل يدنو لنا ذلك العهدُ

سقى الجانب الغربى منك غمامةٌ ... وقعقع فى ساحات دوحاتك الرعدُ

لياليك أسحارٌ وارضك روضةٌ ... وتربك فى استنشاقه عنبرٌ وردْ

وانى ليبكينى قول الشريف:

ذكرت الحمى ذكر الطريد مَحَلهُ ... يُذادُ زياد العاطشات وترجعُ

واين الحمى لا الدار بالدار بعدهم ... ولا مربعٌ بعد الأحبّةِ مربَع

سلامٌ على الأطلال لا عن جنابةٍ ... ولكن يأسًا حين لم يبق مطمعُ

نشدتكمُ هل زال من بعد أهلهِ ... زرودٌ وهل زالت طوالٌ واربع

نعم عادنى عيد الغرام ونبَّهتْ ... على الجوى دارٌ بميثاء بلقعُ

وطارت بقلبى نفحة غضوية ... تنفسها حالٍ من الروض ممرع
نظرت الكثيب الأيمن اليوم نظرة ... تردُ إلىَ الطرف يدمى ويدمعُ
وأيقظت للبرق اليمانىُ صاحبًا ... بذات النقا يخفى مراراً ويلمع
أأنت معينى للغليل بنظرةٍ ... فنبكى على تلك الليالى ونجزع
معاذ الهوى لو كنت مثلى فى الهوى ... إذاً لدعاك الشوق من حيث تسمع
هناك الكرى، إنى من الوجد ساهرٌ ... ويرءُ الحشا، إنى من البين موجعُ
فلألبَّ لى تماسك ساعة ... ولا نوم لى إلا النعاسُ المروّع
الا ليت شعرى كل دار مشتة ... الا موطنٌ يدنو بشملٍ ويجمع

وانظر كيف يقول:

وما حائماتٌ يلتقينَ من الصدى ... إلى الماء قد مُطلنَ بالرشفان
إذا قيل هذا الماءُ لم يملكوا لها ... معاجًا بأقران ولا بمثان
باظمأ إلى الأحباب منى وفيهم ... غريمٌ إذا رمت الديون لوانى
فيا صاحبىُ رحلى اقلا فإننى ... رأيت بليلى غير ما تريان
ويا مُزجى النضو الطليح عشية ... تراك ببطن المازمين ترانى
وهل أنا غادٍ أنشد النبلة التى ... بها عرضًا ذاك الغزال رمانى

وانظر كيف يستمطر الدمع حين يقول:

خنوا نظرة منى فلاقوا بها الحمى ... ونجداً وكثبان اللوى والمطاليا
ومروا على أبيات حى برامةٍ ... فقولوا لديغٌ يبتغى اليوم راقيًا
وقولوا لجيران على الخيف من منى ... تراكم من استبدلتمُ بجواريا
ومن حل ذاك الشعب بعدى وأرشقت ... لواحظهُ تلك الظباء الجوازيا
ومن ورد الماءَ الذى كنت وارداً ... به ورعى الروض الذى كنت راعيًا
فولهفتى كم على الخيف شهقة ... تذوب عليها قطعة من فؤاديا
صفا العيش من بعدى لحى على النقا ... حلفت لهم لا أقرب الماء صافيًا
فيا جبل الريان إن تعرَ منهم ... فإنى سأكسوك الدموع الجواريا
ويا قرب ما أنكرتم العهد بيننا ... نسيتم وما استودعتم الود ناسيا
أأنكرتمُ تسليمنا ليلة النقا ... وموقفنا نرمى الجمار لياليا
عشية جارانى بعينيه شادنٌ ... حديث النوى حتى رمى بى المراميا

رمى مقتلى من بين سجفىْ غبيطهِ ... فيا راميًا لأمسك السوءُ راميا
فيا ليتنى لم أعل نشزًا إليكم حرامًا ... ولم أهبط من الأرض واديًا
ولم أدر ما جمعٌ وما جمرتا منىً ... ولم ألق فى اللاقين حيًا يمانيا
ويا روح نفسى كيف زايدت فى مهًا ... بذى البان لا يُشرين إلا غواليا

ويقول الأبيورى يصف شوقه إلى حبيبته:

وأقسم بالبيت الرحيب فناؤه ... وبالحجر الملثوم والحجْر والركن
لأنت إلى نفسى أحب من الغنى ... وذكرك أحلى فى فؤادى من الأمن

ويصور الحارث بن خالد شوقه إلى عائشة بنت طلحة بشوق الغريق إلى النجاة، يقول:

يا أم عمران مازالتْ وما برحت ... بنا الصبابة حتى مسنا الشفقُ
القلب تاق إليكم كى يلاقيكم ... كما يتوق إلى منجاته الغرقُ

وانك لتلمس حرارة الشوق فى قول العذرى:

لو جُزَّ بالسيف راسى فى مودتكم ... لمر يهوى سريعًا نحوكم راسى
ولو بلى تحت أطباق الثرى جسدى ... لكنت أبلى وما قلبى لكم ناسى
أو يقبض الله روحى صار ذكركم ... روحًا أعيش به ما عشت فى الناس
لولا نسيمٌ لذكراكم يُروحنى ... لعدت محترقًا من حرّ أنفاسى

والشوق يحمل ابن الدمينة على أن يحمد لحبيبته ذكرها له بالمساءَة يقول:

أرى الناس يرجون الربيع وإنما ... ربيعى الذى أرجو نوال وصالك
أرى الناس يخشون السنين ... وإنما سنى التى أخشى صروفُ احتمالكِ
لئن ساءنى أن نلتنى بمساءةٍ ... لقد سرّنى أنى خطرت ببالك
ليهنك إمساكى بكفى على الحشا ... ورقراق عينى رهبة من زيالك

وانظر لوعة الشوق فى قول أحد المتيمين:

أقول لأصحابى وهم يعذلوننى ... ودمع جفونى دائم العبرات
بذكر منى نفسى فبلوا إذادنا ... خروجى من الدنيا جُفوف لهاتى

الأمل الضائع

والآن مع الدكتور زكى مبارك ـ صاحب البدائع ـ لننقل ما خطه تحت هذا العنوان الذى يتحدث عن «الأمل الضائع».

نذكر رسالة كتبها صاحب البدائع، ونقلها إلى الفرنسية حضرة الأديب عبدالمجيد عيسى البيه. وهى تمثل الوجد يضطرم فى الصدر، بعد قسوة الإخفاق.

* * *

تـامـيت حـتى لامـنى كل صـاحب رجـاء سُـليمى ان تـئيم كـمـا إمتُ

لـئن بـعت حـظى مـنك يـومًا بـغـيره لـبئس إذاً يـوم الـتـغـابن مـا بـعت

كنت أصبر على بأساء الحياة، وأحتمل ما فيها من غم وغم، لو أن عندى بقية من الأمل أرفه بها أحزانى، وأدفن فيها آلامى! ولكن حال القنوط دون الرجاء، وأتى اليأس دون الطمع، فلم يبق غير الجزع من مُسعد، ولا سوى النوح من شفاء!.

فيا جيرة ما كان أهنأ وردهم، وأطيب عيشهم، ويا أحبابًا ذقت الفرح بقربهم، وعرفت الهمّ لبعدهم، ويا من أفنانى فراقهم، وكان أحيانى لقاؤهم، ويريكم ما الذى لقيتم بعدى، فقد لقيت بعدكم ذلاً وهوانًا، وظلمًا وعدوانًا، ومن عسى أن يكون قد ظفر بودكم، ونعم بحسنكم، فأصفاكم من الحب أجمله، ومن الأنس أكمله، فقد صحبت بعدكم من جحد نعمتى، وأنكر خلتى، ومن سقيته الشهد فسقانى الصاب، وأوليته القرب فأولانى القطيعة؟!.

فيا ليت شعرى من ألوم؟

أألوم نفسى على أن لم أعقّ فى بركم أهلى وأخوانى، فأسير حيث سرتم، وأقيم حيث أقمتم.

تـفـرق اهـلى مـن مـقـيم وظـاعن فـيـا لـيت شـعـرى اى اهـلى اتـبع

اقـام الـذين لا ابـالى فـراقـهم وشـطـراً الـذين الـذين بـيـنـهم اتـوقع

أم ألومكم على أن تركتمونى وحيدًا وآثرتم وطنكم، وأهلكم، ولم تبالوا بمن خلفتموه طريح حزنه، وأسير همه؟.

أم ألوم قومًا جعلتهم منكم بدلاً فكانوا شر بدل، واتخذتهم من بعدكم ذخرًا فكانوا كالهباء. ورجوتهم حصنًا اتقى به الدهر الخائن، والزمن الجائر، فإذا هم أذل من قراد بمنسم، وإذا المتفىء ظلهم، والراجى برهم، يطمع فى غير مطمع، ويلجأ إلى شر وزر؟!.

أو ألوم دهرًا اضركم إلى الرحلة فرحلتم، وحكم علىّ بالمقام فأقمت، ثم أمدنا من اليزس لبعد الدار، وشط المزار، ما جعل الأمر فى التلافى خائبًا، ورجاء التدانى كاذبًا:

وقلما ابقى على ما ارى ... يوشك ان ينعانى الناعى
ما اقتل اليأس لأهل الهوى ... لا سيما من بعد إطماع

ما هذا الذى صنعتم؟ أخضعتم لليأس، وأذعنتم للقنوط، ولم ترهبوا العتاب إذ لم تأملوا اللقاء، فرففتم تلك الشمس إلى غيرى، وآثرتم بها سواى؟!.

يا عزّ ان شاعت عهودى عندكم ... فانا الذى استودعت غير امين
او عدت مغبونًا فما انا فى الهوى ... لكم بأول عاشق مغبون

غلب اليأس عليكم فمللتم - ولا وفاء لملول - فكان منكم ما أقضّ المضجع، وأورث الجفن السهاد، فهل تعلمون ما صنع اليأس بنا، ونال القنوط منا؟ ولكن هيهات بعد اليوم أن فينفع العزاء.

هى الغاية القصوى فإن فات نيلها ... فكل مُنى الدنيا علىّ حرام

* * *

وقد نظرت ما قال لشعراء فى الأمل الضائع، ووجدت لهم فيه افانين، فمنهم من يأسف على أن لم يؤهله وجهه للعشق، كالذى يقول:

جارية اعجبها حسنها ... فمثلها فى الناس لم يُخلق
خبرتها انى محب لها ... فأقبلت تضحك من منطقى
والتفتت نحو فتاة لها ... كالرشا الوسنان فى قرطق
قالت لها قولى لهذا الفتى ... قالت انظر إلى وجهك ثم اعشق[1]

ومن جيد الشعر فى ضياع الأمل قول عمر بن أبى ربيعة فى سُكينة بنت الحسين:

قالت سكينة والدموع ذوارف ... تجرى على الخدين والجلباب
ليت المغيرى الذى لم أجزه ... فيما أطال تصيدى وطلابى
كانت تردُّ لنا المنى ايامنا ... إذ لا تلام على هوى وتصابى
خبُرت ما قالت فيت كأنما ... يُرى الحشا بنوافذ النشاب
اسكين ما ماء الفرات وبردهُ ... منى على ظمأ وفقد شراب
بألذ منك وان نأيت وقلما ... يرعى النساء أمانة الغياب

أن تـبـذلى لى نـائلاً أشـفى به ... سقم الـفـؤاد فـقـد أطلت عـذابى
وعـصـيت فـيك أقـاربى فـتـقـطعت ... بـيـنى وبـيـنـهم عـرى الأسـبـاب
فـتركـتـنى لا بـالـوصـال مُـمسكًا ... مـنـهم ولا اسـعـفـتـنى بـثـواب
فـقـعـدت كـالمـهـريق فـضـلـة مـائه ... فى حـرِّ هـاجـرة لـلـمـع سـراب

ولم أر من الشعراء من بكى الأمل الضائع كما بكاهُ كثير فى قوله:

وأدنـيـتـنى حـتى إذا مـا اسـتـبـيـتـنى ... بـقـول يُـحل الـعـصم سـهل الأبـاطح
تـولـيت عـنى حـين لا لى مـذهبٌ ... وغـادرت بـين الجـوانـح

وهى صورة شعرية تمثل المحب، وقد استدرجه محبوبه، حتى أخذ الطمع بنواصى آماله، ثم تركه فى اللحظة الأخيرة، يتعثر فى أذيال الخيبة والقنوط!.

وفى هذا المعنى يقول الشريف:

كم قد نـصـبت لـك الحـبـائل طعـامًا ... فـنـجـوتَ بـعـد تـعـرُّض لـوقـوع
وتـركـتـنى ظـمـآن اشـرب غُـلـتى ... أسـفًـا عـلى ذاك الـلـمى المـمـنـوع

ومن الأمل الذاهب أن يكون من تحبه، من بلد غير بلدك، وقوم غير قومك، كما قال نُصيب:

ارق المحب وعـاده سُـهـده ... لـطـوارق الـهـم الـتى تـردُه
وذكـرت مـن رَقت لـه كـبـدى ... وقـسـا فـلـيس تـرق لى كـبـده
لا قـومـه قـومى، ولا بـلـدى ... فـنـكـون حـيـنًـا جـيـرهُ بـلـده
ووجـدت وجـداً لم يـكـن احـدٌ ... من اجـلـه بـصـبـابـة يـجـده

ونصيب يتحدث كثيرًا عن عقم الأمانى، حتى ليقول:

الا هل عـلى الـبـين المـفـرِّق من بدٌّ ... وهل مـثـل أيام بمـنـقـطع الـسـدٌ
تـمـنـيت أيـامى أولـئـك والمـنى ... على عهد عادٍ ما تـعـيد ما تبدى

* * *

الأرق والسهاد

وعن الشكوى من الأرق والسهاد كتب زكى مبارك:

شكا الشعراء قديمًا وحديثًا طول الليل بعد الفراق، عند الهجر والصدود، فمنهم من يستنجد محبوبه، ويستعديه على وحشة الليل، ومضاضة الأرق. كقول الأبيوردى:

أاميمَ إن خفيت عليك صبابتي | فسَلي ظلام الليل كيف اكون
واستخبري عني النجوم فقد رات | سهري واروقة الغياهب جُون
ولئن اذلت مُصونَ دمعي في الهوى | فعلى البكاء يُعولُ المحزون

وهذه الأبيات من خير ما قال المحبون في شكوى الوجد، وعبثه بكرائم النفوس، ومنهم من يستعين من حوله، ويرجوهم أن يحدثوه عن النهار، أو يصفوه له، فقد طال ليله، حتى نسي النهار، وأوصاف النهار، كما قال ابن الأحنف:

أيها الراقدون حولي أعينو | ني على الليل حسبة وائتجارا
حدثوني عن النهار قليلاً | اوصفوه فقد نسيت النهارا

وابن الآحنف يجيد شكوى الليل الطويل، والسهاد المملول، فمن ذلك قوله:

نام من أهدى لي الأرقا | مُستريحًا سامني قلقا
لو يبيت الناس كلهمُ | بسهادي بيّض الحدقا
انا لم أرزق مودتكم | إنما للعبد ما رُزقا
كان لي قلب أعيش به | فاصطلى بالحب فاحترقا

* * *

كتمان السر

حول هذا العنوان يكتب صاحب كتاب البدائع فيقول:

ومن جيد ما قيل في كتمان السر قول بن ذُريح:

لو أن امرأ اخفى الهوى عن ضميره | لمت ولم يعلم بذاك ضمير
ولكن سالقى الله والنفس لم تبح | بسرك والمستخبرون كثير

ومن الشعر الموجع في الكتمان قول جماهر بن عبد الحكيم الكلبي:

قضى كلُّ ذي فوفى غريمه | ودَينك عند الزاهرية ما يُقضى
اكاتم في حبي ظريفة بالتي | كأني عدو لا يزور لهم ارضًا
ولم يدعُ باسم الزاهرية ذاكرٌ | على آلةٍ إلا ظللنا لها مرضى
وما نقع الهيمان بالشرب بعدهم | ولا ذاقت العينان مذ فارقوا غمضا

وقد يتهم المرء بحب من لا يحب، فيتمنى لو تصدق التهمة، كما قال صاحب البائع (وهو الدكتور زكى مبارك):

عـجـبـت لـهـم انى رمـونى بـحـبـهـا　　　ولا مـعـجـتى رهنٌ لـديـهـا ولا قـلـبى

فـيـا رب صـدق فى هـواهـا عـواذلى　　　فـإن عـنـاءً أن الام بـلا ذنـب

والا فلا تـقـطـع عـلـىَّ ملامـهـم　　　فـإن ملام المـرء فـاتحـة الحب

طرفة أدبية

قال بعضهم لمحبوبته:

سـرِّى وسـرُّك لا يـعـلـم به احـد　　　الا الإلـه والا انـتِ ثـم انـا

فقالت له لا تنسى القوادة، فعندها الخبر اليقين!

الكتمان

ويعود تحت العنوان السابق فيقول:

من الشعراء من لا يهمه من الكتمان غير ستر تفاصيل الود، وأسرار القرب، ولا يرى بعد ذلك حرجًا فى ذكر اسم من يحب، كما قال جميل:

لا لا ابـوح بـحب بـثـيـنـة انـهـا　　　اخـذت عـلـىَّ مـواثـقًـا وعـهـوداً

ولا لو كان يذهب إلى نكران الاسم وجحوده، تضليلاً للوشاة، لكان هذا البيت من سخف القول، وهذره، وإليك ما يقول من كلمة ثانية:

ومـاذا عـسى الـواشـون أن يـتـحـدثـوا　　　سـوى ان يـقـولـوا إننى لك عـاشق

نـعم صـدق الـواشـون أنت حـبـيـبـة　　　إلىَّ وإن لم تـصـفُ مـنك الخلائقُ

فإنه يدل على أنه لا يبالى أن يُعرف بحبها، حتى قال الناس: جميل بثينه كما قالوا مجنون ليلى، ويذكر أبو على القالى أن البيت السالف لكثير، وإنه ذكر بثينه عن حبيبته، وهذا فيما أرى غير حتم، لأن كثير ما كان يعدل عن عزة إلا لضرورة الشعر، كقوله:

كـفى حـزنًـا لـلـعـين ان رد طـرفـهـا　　　لـعـزة عِـيـرٌ آنت بـرحـيـل

وقـالوا نـأت فـاختـر من الـصبر والبكا　　　فـقـلت الـبـكـا اشـفى إذن لـغـلـيـلى

تـولـيت مـحـزونًـا وقلت لـصـاحـبى　　　اقـاتـلـتى لـيـلى بـغـيـر قـتـيـل

فقد ذكر عزة عند مواتاة الشعر، وليلى عند مُعاصاته، وهو نوع من التلاعب بالأسماء الذى كثر فى شعر العرب، وقال كثير من قصيدة أخرى:

سيهلك فى الدنيا شفيق عليكم — إذا غاله من حادث الدهر غائله

ويخفى لكم حبًا شديداً ورهبة — وللناس أشغالٌ وحبك شاغله

كريمٌ يُمت السر حتى كأنه — إذا حدثوه عن حديثك جاهله

شكوى الصابة

ويمضى زكى مبارك قائلاً:

نظرت ما قال الشعراء فى الشكوى فإذا هم مختلفون: فمنهم من يشكو إلى من يعلم السر والنجوى، ومن يقدر على تصريف الخواطر، وتقليب القلوب.

الان لداود الحديد بقدرة — مليك على تيسير قلبك قادر

وهؤلاء أصدق الناس حبًا وأحسنهم إيمانًا، وسيدهم أبو صخر الهزلى حين يقول:

بيد الذى شغف الفؤاد بكم — تفريج ما القى من الهم

فإنه جعل الهوى قدرًا، وجعل الأمر فى تيسير قلب من يهوى وتذليله للذى خلق الحب، وأودع الذى فيه، ولم أجد فى هذا المعنى أوجع من قول قيس ابن زريح:

إلى الله اشكو فقد لبنى كما شكا — إلى الله بعد الوالدين يتيم

يتيم جفاه الأقربون فدمعه — غزير وعهد الوالدين قديم

وإذا كان محالاً أن يجد المرءُ بعد أبوه من يعوله، ويحدب عليه، ويمنحه من العطف والحنان ما كان جديرًا أن يفوز به لو عاش أبواه، فكذلك لا يجد قيس من بين النساء من تبره بر لبنى، وهذا وجه الحسن فى هذين البيتين، اللذين يفيضان نارًا وحرقة، وقال ابن المعتز:

إلى الله اشكو الشوق لا إن لقيتها — يقل ولا أن بنت يخلقه الدهر

مقيم على الأحشاء قد قطعت به — فساعته يوم وليلته دهر

ولم يذكر الشاعر هنا من موجب الشكوى غير فرط حبه، وخلود وجده، وإنما يشكو المحب قسوة الهجر، ومرارة الصدود: وتعجبنى شكوى ابن الرومى فى قوله:

يسبى القلوب بمقلة مكحولة — بفتور غنج لا فتور نعاس

يا للرجال الا معين لأيد — صب الفؤاد على ضعيف قاس[1]

ايضيمنى خنت الشمائل لو نضا	عنه غلالته حساه الحاسى؟
ومن العجائب ان تحل ظلامة	لفتى اناس من فتاة الناس

ومن المعذبين من يبث شكواه من دهره وأخوانه إلى صديق أقصته فى بره الليالى، ومن شعراء العصر من قارب الإجادة فى هذا المعنى، كصاحب البدائع حين يقول (وهو زكى مبارك نفسه):

انت الذى علمتنى	يا سيدى بر الصديق
وتركتنى فى غتية	ما فيهم بر دفيق
لم الق بعدك منهم	إلا الجفاء أو العقوق
حتى كأنى لم ابت	منهم على عهد وثيق
وكأنهم لم يبصروا	فى خلتى الحر الصدوق
فتنسوا هواى ولم يفق	من ودهم قلبى المشوق
ونسوا طريف حديثنا	عند الصبوح أو الغبوق
ليت الهوى ما قادنى	يومًا إلى ذاك الطريق
او ليتنى لم انخدع	جهلاً بهاتيك البروق
بل ليتنى بعد الذى	عانيت من صبحى أفيق
مولاى لو ابصرتنى	لفزعت من دمعى الطليق
وشجاك جسمى ناحلا	وكأنه الطيف الطروق
اشكو إليك وانما	يشكو المضيم رلى الشفيق
فارحم فدتك مهجة	اودى بها الحزن العميق
حزن يقطع فى الحشا	فكأنه غدر الصديق

* * *

يا ويح قلبى لم يزل	يهفو به الروح الخفوق
وتقوده الذكرى إلى	عهد الهوى الغض الرقيق
أيام نمرح فى الصبا	فى ذلك العيش الأنيق
ايام نسقى فى الهوى	والود كأسًا من رحيق

---

(١) ايد: قوى.. من الآن بسكون الياء وهو القوة.

تـلـك الـلـيـالى لم تـدع من بـعـدهـا حـسـنًـا يـروق

كلا ولا خـلـت لـنـا إلا الـزفـيـر أو الـشـهـيـق

* * *

غربة المحب

وعن غربة المحب.. ماذا يقول ركى مبارك:

نتكلم قليلاً عن غربة المحب، وكل مهجور غريب، لأن الأمر كما قال الشريف:

لـيس الـغـريـب الـذى تـنـاى الـديـار بـه إن الـغـريـب قـريـبٌ غـيـر مـودود

فمن الشعراء من يغترب فى سبيل حبه، كما قال حذيفة الغنوى:

يـقـولـون من هـذا الـغـريـب بـأرضـنـا امـا والـهـدايـا إنـنـى والـغـريـب

غـريـب دعـاه الـشـوق واقـتـاده الـهـوى كـمـا قـيـدَ عـود بـالـزمـام اديب[1]

ومـاذا عـلـيـكم ان اطـاف بـأرضـكـم مـطـالـب دين أو نـفـتـه حـروب

امـشى بـأعـطـان المـيـاه وابـتـغـى قلائص مـنـهـا صـعـبـة وركـوب

ومن شجىّ الشعر فى غربة المحب قول بعض الأعراب:

وفى الجـيـرة الـغـادين من بطن وجـرة غـزال كـحـيـل المـقـلـتـين ربـيـب

فلا تحـسـبـى ان الـغـريـب الـذى نـاى ولـكـن من تـنـايـن عـنـه غـريـب

ومما يتصل بهذا المعنى قول بعض الأعراب يُذكر اختصاصه بالبلوى فى اغتراب محبوبته:

ارى كل ارض دمـنـتـهـا وإن مـضـت لـهـا حـجـجٌ يـزداد طـيـبًـا ترابـهـا[2]

الم تـعـلـمن يـارب ان رب دعـوة دعـوتك فـيـهـا مـخـلـصًا لـو اجـابـهـا

واقـسـم لـو انى ارى نـسـبًـا لـهـا ذئـاب الـفـلا حُـبـت إلىَّ ذئـابـهـا

لـعـمـر ابى لـيـلى لـئن هى اصـبـحـت بوادى القرى مـا ضرَّ غيرى اغترابها

وغربة المحب تتمثل فى حرمانه، وكيف لا يكون غريبًا من يقول:

ايـا مـنـشـر المـوتى اقـذفى من الـتى بـهـا نـهـلـت نـفـسى سـقـامًـا وعـلـت

لـقـد بـخـلـت حـتى لـو انى سـالـتـهـا قـذى الـعـين من سـافى الـتـراب لـضـنـت

---

(١) العود الجمل، واديب ذموم

(٢) دمنتها: مشت عليها.

ومـا امّ بَـو هـالك بـتـنـوفه إذا ذكـرته آخـر الـلـيل حـنت
بـأكـثـر من لـوعـةٍ غـيـرانـنى اطـامن احـشـائى عـلى مـا اجـنت

ويظهر أن قذى العين كان فى أنفس العرب مثلاً لما لا يضن به، فقد رددوا ذكره فى أشعارهم، كما قال بعض بنى أسد:

وكيف كان طلابى وصل من لو سألته قذى العين لم يطلب وذاك زهيد
ومن لو راى نفسى تسيل لقال لى اراك صحيحًا والفؤاد جليدُ

قسوة التجنى

وعن الحب ولوم المحبين يتحدث الدكتور زكى مبارك:

أكثر الشعراء من شكوى الهجر والصدود، وأكثروا القول كذلك عن قسوة التجنى، فمن ذلك قول ابن نُباتة السعدى:

يـا دهـر لا غَـفلات الـعـيش عـائـدٌ ولا الـشـبـاب الـذى ابـلـيته فـيـهـا
إن كنت تـمـنـع سُـعدى من مـطالـبـها فـلست تـمـنـع سُـعدى من تـمـنـيـهـا
& نـغـمـة اوتـار ومـسـمـعـةٌ بـاتت تـدل عـلى شـوقى اغـانـيـهـا
وقـهـوهٌ كـشـعـاع الـشـمس طـالـعـة افـنـيت بـالمزج فـيـهـا ريق سـاقـيـهـا
لو كنت اخـضع فى الـدنـيـا لـنـائـبةٍ خـضعت من هـجرهّا او من تجنيها
تـسـتـعـذب الـدمعَ فى مـحـبـتـهـا كـان مـا تـمـتـريه الـعين من فـيـهـا

وما أجمل قول اب الرومى:

يـا عـلـيـلا جـعـل الـعـلـة مـفـتـاحًـا لـظـلـمـى
لـيس فى الأرض عـلـيـلٌ غـيـر جـفـنـيك وجـسـمى

وقد كتبت الآنسة حياة فهمى كلمة عنوانها (لعن الله الحب) ونشرتها فى الصباح:

فأجابها المبدع حسن القاياتى بقوله:

تـلـوم حـيـاةٌ عـلى الـعـاشـقـين رويـداً ورفـقًـا بـنـا يـا حـيـاتى
جـهـلت الـغـرام فـلـمت المحب هـنـيـئًـا لـعـيـنـيك فى الـنـاعـسـات

ثم سأل صاحب البدائع عن رأيه فى تجنى هذه الفتاة، فأجابه بما نصه:

«يرى سيدى الشاعر أن الآنسة حياة جهلت الحب، فلامت المحبين، ولو قالت غير ذلك لأصابت شاكلة الصواب، لأن المرأة كالسياسى سواء بسواء، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون»، فإذا قال السياسى (لا) فأعلم أنه يريد (نعم) وإذا قال (نعم) فأعلم أنه يريد (لا) وإذا قالت المرأة (لا أحب) فأعلم أنها (تحب) وإذا زعمت أنها (كارهة) فأعلم أنها (راضية) فإن كنت فى ريب من ذلك يا صديقى الأديب فإنى أذكرك بقولك من قصيدة نشرتها لك فى جريدة الأفكار سنة ١٩١٩.

عهد السياسة كاذبٌ لله درُّك يا سجاج!

وقد قال (تاسو) أحد شعراء إيطاليا: أن المرأة تفر، وتود أن تلحق وهى فارَّة: وتأبى، وتود فى أبائها أن تُسرق، وتناضل، وترغب أن يُظفر بها فى النضال!!.

فقول الآنسة حياة «لست ممن تغلب الحب على قلوبهم» معناه أن الحب صيرها باكية العين، دامية الفؤاد! وقولها «الحب عدو لدود للإنسان، فيجب أن يُبعد عن القلوب» معناه أن الحب مادة الحياة، فيجب أن تزود به القلوب!.

وقولها «تباعدوا عن الحب» معناه أقبلوا على الحب بسمعكم وبصركم، أيها الشباب!.

هذا يا صديقى ما تريده الآنسة حياة فهمى! فهى حين تقول «لعن ا& الحب» إنما تريد «حيا الله الحب» وأنت بما تريد عليم!.

ولا يفوتنى قبل ختام هذه الكلمة أن أوجه للآنسة حياة هذا السؤال:

إنك تأمريننا بأن لا نحب (سمعًا وطاعة!) ولو إنى سمعت هذه النصيحة قبل خمسة عشر عامًا لنجوت من الحب، ولاسترحت الآن من تسطير مدامع العشاق، ولكنى يا مولاتى لسوء الحظ قد أحببت، وقد ضُربت بمحبتى الأمثال، وأريد أن أسلم من الحب على يدك الطاهرة، جعل الله فى يمناك الشفاء، من كل داء، فهل لك أن تصفى لى طريقة الخلاص من هذا الضلال القديم، ومن أسماء الحب الضلال؟.

أنا فى انتظار الجواب!

ملحوظة: أرجو أن تحترس الآنسة حياة، وهى تكتب أنواع العقاقير، من أن تنهانى عن التطلع إلى العيون، والخدود، والثغور، والنحور، والنهود فإنه لا سبيل

إلى مثل هذا المتاب!! وإنما أريد أسلو وأنا أعبث بأفنان الجمال، كما يُردُّ الشارب الكأس وهى تتوهج بين أنامل الساقى الجميل!!.

وقد رد السيد حسن القاياتى على هذه الكلمة بخطاب شائق ولولا الرغبة فى الإيجاز لأمتعنا به القارىء، ومن السهل الرجوع إليه فى كتاب البدائع.

وقد حَسُن التجنى فى قول أحد الشعراء:

صدَّ عنى محمد بن سعيد	اجمل العالمين ثانىَ جِيدِ
ليس من بغضةٍ يصد ولكن	يتجنى لحسنه فى الصدود

***

قساة القلوب

ولتقرأ ما يقول زكى مبارك عن العشاق ورأيهم فى أحبابهم:

والعشاق يرمون أهل الحسن بقسوة القلب، وغلظ الكبد، ويحسب ابن الأحنف أن قلوب الحسان قُدَّت من الصخر، فيقول:

اظن وما جربت مثلك إنما	قلوب نساء العالمين صُخور
ذرينى انم إن لم انل منك زَورْة	لعلَّ خيالاً فى المنام يزور
بكيت إلى سرب القطاحين مرّبى	فقلت ومثلى بالبكاء جدير
اسرب القطا هل من يعير جناحه	لعلى إلى من قد هويت اطرى

وقد نظر المرحوم اسماعيل باشا صبرى إلى استعارة الجناح فقال:

يا سرحة بجوار الماء ناضرةً	سقاكِ إن لم يوف ساقيكِ
عارٌ عليك وهذا الظل منتشرٌ	فتك الهجير بمثلى فى نواحيك
هل من مُغيرى جناحىْ طائر غردٍ	كى اقطع العمر شدواً فى اعاليك
فلا انفر عن أرض غُرست بها	ولا يرنُّ بمسمعى غير واديك

ومن المحبين من يصف قلب محبوبته بالطمأنينة والهدوء، فى حين أن قلبه يتلظى على جمر الصدود، كما قال بشار:

ايها الساقيان صُبا شرابى	واسقيانى من ريق بيضاء رودِ
إن دائى الصدى وإن دوائى	شربةٌ من رُضاب ثغر بَرودِ
ولها مبسمٌ كغرُّ الاقاحى	وحديثٌ كالوشى وشى البرودِ

نزلت فى السواد من حبة القلب ونالت زيادة المتزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليالٍ والليالى يبلين كل جديد
عندها الصبر على لقاىَ وعندى زفراتٌ ياكلن قلب الحديد

وما أظرف قول أبى نواس فى معشوقته جنان:

جنان تسبنى ذكرتْ بخيرِ وتزعم اننى رجل خبيث
وان مودتى كذبٌ ومينٌ وانى للذى اهوى نثوثُ
وليس كذا ولا ردٌ عليها ولكن الملولَ هو النكوث
ولى قلب ينازعنى إليها وشوق بين اضلاعى حثيث
رأت كلفى بها ودوام عهدى فملتنى كذا كان الحديث

* * *

وأبدع ما قيل فى قسوة قلب الجميل قول خالد الكاتب:

ليت ما اصبح مِن رقة خديْك بقلبكْ

ولقساة القلوب يقول صاحب البدائع:

لقد صددنا كما صددُتم فهل ندمتم كما ندمنا
وشفنا الوجدُ مُذ جفوتم فأظهر الدمع ما كتمنا
وهبت روحى وقلت عطفًا فما عطفتم وما رجعنا
ملكتموها وما وصلتم لقد غنمتم وما غَنِمنا
وما أردت خوفًا على فؤادى إلا وزدتم رضىً وأمْنا
وما رجائى وقد قويتم على جفائى وزدت وهْنا
قتلت نفسى على جفاكم وما قرعتم علىَّ سنا
لهفى على السالف المفدَّى لو كان يجدى الفدا لجدنا
فما ذكرنا الذى تقضَّى إلا على حسنه انتحبنا

* * *

لو كنت اشكو الهوى لصخر لحنَّ وجداً وانَّ حُزنًا
وذاب من هول ما أراه فقد برانا الهوى وذبنا
إن كان ذنبٌ فسامحونا ويشهد الله ما اسانا

وصاحب البدائع هو الذى يقول:

أيـهــا الــظــالمُ الجـمـيـل سلامٌ	من أسـيــر قـيَّـدته بـجـفـاكـا
كيف أصـلـيـتـنـى من الـهـجـر نـاراً	وحـرمـت الـعـيـون من أن تـراكـا
لـيت من شـاء أن يـطـول أسـانـا	فى سـبـيل الـهـوى أطـال أسـاكـا
سـوف أنجـو من الـغـرام وأغـدو	مُـطلق الـنـفس من قـيـود هـواكـا
فـاسـتـقـنى المرّ من صـدودك واحـكم	جـائـر الحـكم فى ظلال صِـبـاكـا

وقد حسب بعض الناقدين أن فى هذا الشعر نذيرًا ينقض العهد، وجحود الود، وليس الأمر كما يحسبون، وإنما هى صورة لحالة من حالات النفس، حين يثور الوجد، ويتمنى المحب ليأسه لو أفلت من اشتراك هواه، وهيهات هيهات!.

سيف الفراق

وماذا عن فراق الأحباب؟

نتكلم فى هذا الحديث عن وصف الشعراء لفتك الفراق بالنفوس وقتله للقلوب، فمنهم من يذكر تعثره فى الطريق، وضلاله عن القصد، بعد فراق من يحب، كما قال بعض الأعراب:

ومـا وجـد مـغـلـوبٍ بـصـنـعـاءَ موثقٍ	بـسـاقـيْه من ثـقل الحـديـد كـبُـولُ
ضـعـيف الموالى مُـسـلمٌ بـجـريـرةٍ	له بـعـد نـومـات الـعـيـون عـويل
يـقـول له الجلاد أنت مـعـذبٌ	غـداةَ غـدٍ أو مُـسـلمٌ فـقـتـيل
بـأوجع مـنى لـوعـة يـوم راعـنى	فـراق حـبـيـب مـا إلـيه سـبـيل
غـداةَ أسـيـر الـقـصـد ثم تـردُنى	عن الـقـصـد لـوعـات الـهـوى فـأمـيل

وهذه القطعة من غرر الشعر، وهى آية فى وصف الحيرة يرمى بها المحب المشوق، بعد فراق لا يُرجى أن يعقبه لقاء، وتأمل كيف شبه حاله بحال مغلوب كبِّل بالحديد، فى جريرة لا يغنى فى دفعها ضعف مواليه، وقد أصبح موضع النذير من الجلاد فى كل صباح ومساء، وحسب الفراق أن يرمى المحب فى مثل هذه الحال!

وأنشد الجاحظ:

أزف الـــبـــين المـــبـــين	قـــطـع الـــشكَ الـــيـــقـــين

حـنـت الـعـيش فـابـكـا		نى من الـعـيش الحـنـين
لـم أكـن لا كـنـت أدرى		أن ذا الـبـيـن يـكـون
عـلـمـونى كـيف اشـتـا		قُ إذا خفَّ الـقـطـين

وكان أستاذنا الشيخ سيد المرصفى يسخر ممن يقول:

وأنـا بـكـيت من الـفـرا		ق فـهـل بـكـيـت كـمـا بـكـيت
ولـطـمـت خـدى خـالـيًا		ومـرسـتـه حـتى اشـتـفـيت
وعـواذلى يـنـهـيـنـنى		عـمَّن هـويت فـمـا انـتـهـيت

وأنا أحسب أن البكاء ولطم الخدود أهون ما يجرى بعد الفراق، ويا ويلتاه من الفراق! وما أصدق من يقول:

أمُـزمـعـةٌ لـيـلى بـبـينٍ ولم تَـمُتْ		كـأنك عـمَّـا قـد أظـلـك غـافلُ
سـتـعـلم إن شطت بـهم غُربـة الـنوى		وزالـوا بـلـيـلى أن قـلـبك زائل

ومن المتيمين من يشجيه أن يقاسى أحبابه متاعب السفر، ومشاق السُّرى، ومصاعب الادلاج، ثم يرجع إلى نفسه فيتوجَّع لحاله بعد الفراق، كقول أبى تمام:

لـو كـان فى الـبـين إذ بـانوا لـهم دعةٌ		لـكـان بـيـنـهـم من أعـظم الـضـرر
فـكـيف والـبـين مـوصـولٌ به تـعبٌ		تـكـلف الـبـيـد فى الأدلاج والـبُـكر
لـو أن مـا يـبـتـلـينى الـحـادثـات به		يـكـون بـالمـاء لم يُـشرب من الـكـدَر
أو كـان بـالـعـيس مـا بى يـوم رحـلـتهم		أعـيتْ على الـسـائق الحـادى فلم تـسِر
كـأن أيـدى مـطـايـاهم إذا وخَـدَتْ		يـقـعن فى حُـر وجهى أو على بـصرى

وهذا شعر يُذيب لفائف القلوب... وقال بعض المعذبين:

قـد قـلـت والـعـبـرات تس		فـحـهـا عـلـى الخـد المـآقى
حـين انـحـدرت إلى الجـزيـ		رة وانـقـطـعت عن الـعـراق
يـا بـؤس من سلَّ الـزمـا		نُ عـلـيه سـيـفًـا لـلـفـراق

إى والله:

يـا بُـوسَ من سلَّ الـزمـا		نُ عـلـيه سـيـفًـا لـلـفـراق

إنه لا محالة مقتول!

وقد يلوم المحب نفسه على فراق أحبابه، كالذى يقول:

اتـظـعن عن حـبـيـبك ثم تـبكى		عـلـيه فـمن دعـاك إلى الـفـراق

كانك لم تَذق للبين طعمًا اقم وانعم — فتعلم انه مر المذاق
بطول القرب منه — ولا تظعن فتكبت باشتياق
فما اعتاض المفارق من حبيبٍ — ولو يعطى الشآم مع العراق

ومثله من يقول:

تطوى المراحل عن حبيبك دائبًا — وتظل تبكيه بدمع ساجم
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى — تشكو الفراق وانت عين الظالم
هلا اقمت ولو على جمر الغضى — قُلّبت او حدّ الحسام الصارم

وما أوجع ما قالته إحدى النساء:

وكنا كغصنى بانةٍ وسطَ روضةٍ — نشم شذا الأزهار فى عيشةٍ رغدِ
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطعٌ — فيا فردة بانت تحنٌ إلى فرد

ولهذين البيتين قصة محزنة يضيق عن ذكرها المجال

* * *

الهروب من الفراق

ويستطرد زكى مبارك فيقول:

وإذا كان ما تقدم هو حال المحبين يوم الفراق، فليس ببدع أن يهرب البحترى من منظر الوداع، وان يظرف حين يقول:

الله جارك فى انطلاقِكْ — تلقاء شامِكَ أو عراقكْ
لا تعذُلنى فى مسير — رك يوم سرتَ ولم الاقك
انى خشيت مواقفًا — للبين تسفح غربَ ماقِك
وعلمت ما يلقى المتيّ — مُ عند ضمك واعتناقك
وعلمت أن لقاءنا — سبب اشتياقى وأشتياقك
فتركت ذاك تعمُدًا — وخرجت أهرب من فراقك

وفى مقابل هذا المعنى يقول العباس بن الأحنف وقد حُرم توديع من يحب:

كفى حزنًا انى بقيت وليس لى — سبيلٌ إلى توديعكم فأودّعُ
تلفتُ خلفى حيث لم تبق حيلةُ — وذودت عينى نظرةً وهى تدمع

* * *

الذبول والنحول

وعن الحب، وكيف يضر بجسم المحب - يقول زكى مبارك:

وقد يأسى الشعراء لما عانوا فى الحب من الضمور والشُّحوب، فيرى بعضهم أنه لم يبق له لحم ولا دم، كما قال المؤمل:

حلمتُ بكم فى نومتى فغضبتم	ولاذنب لى إن كنت فى النوم احلم
سأطرد عنى النوم كيلاً اراكم	إذا ما أتانى النوم والناس نُوَّمُ
تُصارمنى والله يعلم اننى	أبرُّ بها من والديها وارحم
وقد زعموا لى انها نذرت دمى	وما لى بحمد الله لحمٌ ولا دم
برى حبها لحمى ولم يبق لى دمًا	وإن زعموا انى صحيحٌ مسلم
فلم ار مثل الحبَّ صحَّ سقيمُهُ	ولا مثل من لم يعرف الحبَّ يسقم
ستقتل جلداً باليًا فوق اعظم	وليس يبالى القتل جلدٌ واعظم

ومنهم من يبلى جسمه، ولا يبلى شوقه، كما قال أبو تمام:

يا جفونًا سواهراً أعدمتها	لذةَ النوم والرُّقاد جُفونُ
بَلى الجسمُ لكن الشوق حىٌّ	ليس يبلى وليس تبلى الشجون
إن لله فى العباد منايا	سلطتها على القلوب العيون

ويقرب من هذا المعنى قول السرى الرفاء:

فداؤك من أوردته منهل الردى	وورد الردى للعاشقين يطيبُ
وما مات حتى أنحل الحبُّ جسمَهُ	فلم يبق فيه للتراب نصيب

والأرجانى يذكر أن طيفه لو زار حبيبه لحمل شخصيه إليه لنحوله ويقول:

يُروى ضاحى الوجنات دمعى	ويعدل عن لهيب جوى دخيل
وما نفعى وإن هطلت غيوثٌ	إذا اخطأن امكنة المحُول
همٌ نقضوا عهودى يومَ بانوا	وأبدوا صفحة الطرف الملول
وفوا بالهجر لما أودعونى	وكم عدوا الوصال ولم يفوا لى
وفى الركب الهلاليين خشفٌ	تعرض يوم تشييع الحمول
أصاب بطرفة الفتان قلبى	وكيف يصاب ماض من كليل
بخلت وقد حظيت بصفوودُى	وان من العناء هوى البخيل
وبتُّ لو استزرت اليوم طيفى	لجرَّ إليك شخصى من نحولى

ولكن لا سبيل إلى شفاءً إذا مال الطبيب على العليل

ومنهم من يذكر أنه ضنَى حتى لو تعلق بعود ثُمامٍ ما تأوّد، كما قال الحسين بن مَطير الأسدى:

خليليّ هل ليلى مؤديةٌ دمى إذا قتلتنى او اميرٌ يُقيدها
وكيف تقاد النفس بالنفس لم تقلْ قتلت ولم يشهد عليها شهودها
ولن يلبث الواشون أن يصدعوا العصا إذا لم يكنْ صلبًا على البرى عودها
نظرت إليها نظرة ما يسرنى بها حُمر انعام البلاد وسودها
ولى نظرةٌ بعد الصدود من الجوى كنظرة ثكلى قد أصيب وحيدها
فحتا متى هذا الصدود إلى متى لقد شفُ نفسى هجرها وصدودها
فلو ان ما ابقيت منى معلقٌ بعودُ ثمام ما تاود عودها

وقال الحارثى فى وصف آصار النحول:

سلبت عظامى لحمها فتركتها مجردة تضحى لديك وتخصرُ
واخيلتها من مخها فكأنها انابيب فى اجوافها الريحُ تصفرُ
إذا سمعت باسم الفراق تقعقعت مفاصلها من هول ما تنتظرُ
خذى بيد ثم ارفعى الثوب تنظرى بى الضرً إلا اننى اتستر
فما حيلتى إن لم تكن لكِ رحمةٌ على ولا لى عنك صبرٌ فاصبر

ويقول ابن الأحنف:

انظر إلى جسدٍ اضرّبه الهوى لولا تقلب طرفه دفنوهُ

وتابعه المتنبى فقال:

كفى بجسمى نحولاً اننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وفى مثل هذا المعنى يقول صاحب البدائع وقد أرسل صورته إلى بعض أحبابه:

سكنت إلى النوى ونسيت صبا نحيلاً كاد يقتلهُ الحنين
فلما لم يجد فى الحب صبراً ولم ترحم جوانحه الشجون
تفانى فى النحول فلو تبدى لما فطنتْ لخطرته العيون
وها هو كالخيال اتك يسرى مخافة أن تظنّ به الظنونُ
فأكرمُ نزلهُ وارحم ضناه فإن فؤادك الحرم الأمين

وقال بعض الشعراء:

إن الـــذى ابـــقـــيت من جـــســـمه ... يـــا مـــتـــلف الـــصبَ ولم يـــشـــعـــر

صـــبـــابـــةٌ لـــو انـــهـــا دمـــعـــةٌ ... تجـــول فى عـــيـــنـــيك لم تـــقـــطـــر[1]

* * *

الرضى بالقليل

وتحت هذا العنوان يقول زكى مبارك:

وقد يقنع المحب وهو راغم؛ فيرضى بالوعد، ويفرح بالأمانى، وهى كواذب لأن الوصل عزيزالمنال، فمن ذلك قول العباس بن الأحنف :

كـــفى حَـــزنـــا انى وفـــوزاً بـــبـــلـــدةٍ ... مقيمان فى غير اجتماع من الشمل

امـــا والـــذى نـــاجى من الـــطُّور عـــبده ... وانـــزل فـــرقـــانًـــا واوحى إلى الـــنـــخل

لـــقـــد ولـــدت حـــوَّاءُ مـــنـــك بـــلـــيـــة ... عـــلىّ اقـــاســـيـــهـــا وخلاً من الخـــبل

وإن لـــيـــرضـــيـــنى الـــذى لـــيس بـــالـــرض ... وتـــقـــنـــع نـــفـــسى بـــالمـــواعـــيـــد والمطل

وفى هذا المعنى يقول الشريف:

لك الـــلّه هل بـــعـــد الـــصـــدود تـــعـــطـــفٍ ... وهل بـــعـــد رَيـــعـــان الـــبـــعـــاد تـــدان

ومـــا غـــرضى انى اســـومك خـــطـــة ... كـــفـــانى قـــلـــيلٍ من رضـــاك كـــفـــانى

وقال بعض الظرفاء:

انـــا راض مـــنـــكم بـــايـــســـر شىء ... يـــرتـــضـــيـــه من عـــاشق مـــعـــشـــوق

بـــســـلام عـــلـــى الـــطـــريق إذا مـــا ... جـــمـــعـــتـــنـــا بـــالاتـــفـــاق الـــطـــريق

وقال توبة الحميرى فى ليلى الأخيلية:

وهل تـــبـــكَـــينْ لـــيـــلي إذا مت قـــبـــلـــهـــا ... وقام عـــلى قـــبـــرى الـــنـــســـاء الـــنـــوائحُ

كـــمـــا لـــو اصـــاب المـــوت لـــيـــلى بـــكـــيـــتـــهـــا ... وجـــاد لـــهـــا دمع من الـــعـــين ســـافح

واغـــبـــط من لـــيـــلى بمـــا لا انـــالـــهُ ... بـــلى كلُّ مـــا قـــرّت به الـــعـــين صـــالح

وقد كثر القليل في قول ابن الطثرية:

الـــيس قـــلـــيلا نـــظـــرةٌ إن نـــظـــرتـــهـــا ... إلـــيك؟ وكلا لـــيس مـــنـــك قـــلـــيلُ

وجاراه فى هذا المعني من قال:

إن مـــا قلَّ مـــنـــك يـــكـــثـــر عـــنـــدى ... وكـــثـــيـــرٌ ممن تحبُ الـــقـــلـــيلُ

وأبرع الشعر فى هذا المعنى قول جميل:

وانى لأرضى من بثينة بالذى ... لو ابصره الواشى لقرّت بلابلهْ

بلا، وبأن لا استطيع، وبالمنى، ... وبالأمل المرجُوّ قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضى ... اواخرهُ لا نلتقى واوائله

وفي مقابل هذا يقول ابن الفارض:

وإذا اكتفى غيرى بطيف خيالهِ ... فأنا الذى بوصاله لااكتفى

وأبدع منه قول ابن الرومى:

اعانقه والنفس بعدُ مشوقةٌ ... إليه وهل بعد العِناق تدان

والثم فاهُ كى تزول حرارتى ... فيشتد ما القى من الهيَمان

ولم يك مقدار الذى بى من الجوى ... ليرويهُ ماتلثم الشفتان

كان فؤادى ليس يشفى غليلهُ ... سوى أن يرى الروحين يمتزجان

شفاء المحب

وهو موضوع طريف.. مضى زكى مبارك فى تناوله على النحو التالي:

وقد يمرض المحب.. فيفتنُّ الناس فى وصف دوائه. على أن لا يبرأ إلا بقرب من يحب. وانظر قول عروة بن خزام وقد رأى عفراء:

وماهى إلا أن اراها فجاءة ... فأبهت حتى ما اكاد أجيب

واصدف عن رأيى الذى كنت ارتئى ... وانسى الذى ازمعت حين تغيبُ

ويظهر قلبى عذرها ويعينها ... علىّ فمالى فى الفؤاد نصيب

وقد علمت نفسى مكان شفاءها ... قريبا وهل ما لايُنال قريب

فواكبدى أمست رفاتًا كأنما ... يُلذعها بالموقدات طبيب

عشية لاعفراء منك بعيدة ... فتسلو ولاعفراء منك قريب

لئن كان برد الماء حرّان صاديًا ... إلىّ حبيبًا إنها لحبيب

وفى هذا المعنى يقول بعض الأعراب:

أبا زينة الدنيا لا ينالها ... مُناى ولا يبدو لقلبى صريمها

بعينى قذاة من هواك لو انها ... تُداوى بمن أهوى لصحّ سقيمها

وبُرء قذاة العين إن لم يكن لها ... طبيب يداوى نظرة تستديمها

فما صبرت عن ذكرك النفس ساعة   وإن كنت أحيانًا كثيراً ألومها

ومن بديع الشعر فى هذا الباب قول أبى العتاهية:

قل لمن لست أسمّى   بأبى أنت وأمى

بأبى أنت لقد أصبحت من أكبر همى

ولقد قلت لأهلى   إذ أذاب الحب لحمى

وأرادوا لى طبيبًا   فاكتفوا منى بعلمى

من يكن يجهل من ألقى فإن الحب سقمى

إن روحى لبغداد وفى الكوفة جسمى

عجبت لهم أنى رمونى بحبها   ولا مهجتى رهن لديها ولا قلبى

فيارب صدّق فى هواها عوازلى   فإن عناء أن ألام بلا ذنب

وإلا فلا تقطع علىّ ملامهم   فإن ملام المرء فاتحة الحب

* * *

ويقول الشاعر زكى مبارك:

ولما نسيتم ودنا وغرامنا   ولم تحفظوا بعد الفراق لنا عهدا

جعلنا نغض الطرف عنكم وعندنا   من الشوق نار لا نطيق لها وقدا

* * *

لقد صددنا كما صددتم   فهل ندمتم كما ندمنا؟

* * *

ولما عزنى فى الحب دهرى   وأرغمنى الزمان على نزوحى

ولم أعرف لرؤيتكم سبيلا   بعثت بصورتى من بعد روحى

* * *

أصباك ما خلف الستار وإنما   خلف الستائر لؤلؤ مكنون

والناس فى غفلاتهم لم يعلموا   أنى بكل حسانهم مفتون

سنتريس

عزيزى القارئ:

«زكى مبارك» فى شعره كما فى نثره يتحدث كثيرًا عن البقاع الجميلة، ويقول.. إنه موكل بالحديث عن البقاع الكريمة في وطنه.. كما يقول «زكى مبارك»:

هذه قصيدة كبير جماعة " أبولو"الشاعر الرقيق أحمد زكى أبو شادى - كانت حديثًا عن يوم قضاه الشاعر فى "سنتريس" وكان زكى مبارك هو" المضيف" وفضلاً عما فى القصيدة من رقة وجمال، فإنها تصور روح المودة والمحبة التى ربطت بين الشاعرين ما بين "أبولو" و "سنتريس".

* * *

يوم فى سنتريس

(مهداة إلى الصديق زكى مبارك ذكرى زيارتنا نسنتريس يوم الجمعة ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٤).

يا يومَ إيناسى الذى لم يَنْفَدِ	ما زلتَ فى خَلدِى وإنْ لم تُخلدِ !
بل انت فى الخُلدِ الأتَمّ مُشَعْشِعًا	فى الذكرياتِ موزعًا فى المَشْهدِ
نشوانُ منْ لقياكَ، لم ابرحْ كما	لاقيتُ انسكَ فى سناك السّرمدِى
جعلَ الصديقُ بك الضيافةَ نعمةً	لاتنتهى، ومآثرًا للمفتدِى
خُلِقَتْ من الإحسان حتى اننى	أنسيتُ ما يجنى الزمانُ المعتدِى

* * *

يا يومَ إيناسى الذى لم يَنْفَدِ	ما زلتَ فى خَلدِى وإنْ لم تُخلَدِ
جئناك أشباهَ العُفاةِ هوايةً	للحسن، لا كالبائسينَ القُصّدِ
فإذاه (١) يُنهَلُ فيك بين مُذوَّبٍ	شيم، ويُلمَسُ فيكَ بينُ مجَسّدِ
والحُسنُ اكرمُ مايكون لكارم	والحسنُ أبخلُ ما يكون لمجتدى
مَثلتْ معانى الصَّفوِ فى قسماتِهِ	وجَرَى الهوى جَرْىَ المعانى الشُّرَّدِ

ما نالها إلا التصوفُ وحده ... ينُهَى الأله العبقريّ الأوحدِ

وهذى (الطبيعة) فى جلالة مُلكها ... إنّ الجلالة بالسذاجة تبتدى

بسمت إلىّ فكان فى بسماتِها ... مِن عالمِ المجهول آيةُ موحدِى

بسمت ونقلت الحياة نشيدها ... وكأننى بنشيدها فى معبد

أنّى فتُنْتُ مِنْ اطيافها ... ولمحتُ ملءَ الغيبِ ما لم يُوجَدِ

وأصيخُ للدُّرّةِ التى وقفتْ كما ... وقفت جنودُ الدهْرِ للمتمرِّدِ

فتنم عن أسراره فى صمتها ... وتحنّ مثلى للخفىّ المبعَدِ

وأراقبُ الريّاح (١) يزخرُ موجُهُ ... بالذكرياتِ وبالحنينِ الى الغد

ونَمُرُّ فى الطُرقِ الوديعة صانها ... مِن شامخ الأشجارِ كلُّ مُجَنَّدِ

والجدولُ الجارى كمرآةٍ لها ... وبه من الآبادِ ما اشتاقت يدى

غسلت عذارَى الريف جيرة شَطّه ... خُللاً كأصباغ الخريفِ العسجَدِى

متضاحكات والخريرُ كأنّه ... أصداء فرحتهنّ فى الماء الصدِى

ونزورُ ساقية الصّديق وعندها ... للذكرياتِ مَدامعٌ لم تُعْهَدِ

ونرى الصبابة فى النواحِ وطالما ... بالأمس غنتْ بالنشيدِ المُسْعِدِ

ونزورُ مِنْ تلك المنازلِ وادعٍ ... لكنما خلقته عِزّةُ سَيّدِ

ونرى الجمال كأنما إفصاحُهُ ... عينُ الغموضِ لباحثٍ متفقّدِ

نَدريه بالحسّ الخفىّ وإنْ يكنْ ... ملْ النواظرِ والمسامعِ واليدِ

نَدريه منْ رُوحِ البصيرة قبل أن ... يُدرَى بلحظِ عاشقٍ متوددِ

فإذا الجمالُ هو الحياةُ، وسِرُّه ... هَدْىُ الموفقِ أو ضَلالُ المُلحِدِ

وإذا الألوهة لاتَلوحُ لجاحد ... وتلوح للمتلهّفِ المتعبّدِ !

* * *

يايومَ إيناسى الذى لم يَنْفَدْ ... مازلتَ فى خلدى وإنْ لم تُخلَدِ

حَفلتْ بمجدِكَ (سِنتريس) وعيّدتْ ... فى كل ما يهواه قلبُ معيّدِ

قد جئتَ منْ وطن الجمالِ مفوّقًا ... بأشعةٍ وشمس بزبرجدِ

فإذا بأهليها غنُوا عن كلّ ما ... يُغنى سوى شرفِ النهى والمحتِدِ

حتى النباتُ له ازدهاءُ مُسَوّدٍ ... ولو انه يَلقى عناءَ مُسوّدِ

والبركة الخضراءُ آسِنُ ماؤها ... فى عِزّةٍ مِن شوقنا المترددِ

ومِن الديوكِ على السطوح مؤذنٌ — وكأنما هو فى صَلاة المهتدى

ومِن السوائم ما يُجَلُّ فتونُه — بالمنظر الحالى وبالعُشبِ الندى

حتى رجَعنا فى غِنىً لم يَنْفدِ — ملءَ العواطف والنُّهى متعددَ

لم تفتقده [1] وإن نكن نؤنا به — كأحبّ ما يَطغى الدهوى بمصفَّدِ

سكنتْ إلى الريَاحِ غيرَ أسيرةٍ — بينا انطلقنا فى هَوَى المُستعبَدِ

والليلُ كالمسحورِ حيث نُقِلُّنا — سيَّارةٌ طارتْ كطيرٍ ممرَّدِ

تتراقصُ الأشباحُ فى أفيائِه — ما بين عَزَّافٍ وبين مُغرِّدِ

ومنسَّقُ اللَّبخِ المهيبِ برهبة — هى كالتأمُّل للأبىِّ الأيِّدِ

وتعودُ ألوان المفاتن بعد ما — ذهب الغروب بها ذهاب مبرد

فكأنها بعثت من الأبد الذى — طاحت إليه من الخيال المزيد

وكأنَّها غمرتْ جميعَ كياننا — فرَجَعْتُ فى حُلْمى بأروع سُؤْدَدِ

حُلْمٌ طَوى صُحُفَ الدُّهُورِ ولم يَدَعْ — عند الطبيعةِ ما استسَرَّ بجَلمَدِ

أو ما تحجَّبَ كالظُّنُونِ بخاطرٍ — للكونِ فى هذا الأثيرِ المُفْرَدِ [2]

حُلْمٌ هُوَ الفنُّ وإنْ يَكُنْ — إبهامَ إحساسٍ بِرُوحٍ مُجَلَّدِ

والنَّاسُ تَرقبنا فتلمح نشْوَةً — كبرى فتتبعُها ظنونُ الحُسَّدِ

* * *

وكأننا عُدْنا نُبشَّرُ بالهوَى — والحُسْنِ فى دنيا العقوقِ لتهتَدِى

يا يومَ إيناسى الذى لم يَنْفَدِ — ما زلتَ فى خَلدِى وإنْ لم تُخلدِ !

ليالى سنتريس[1]

وهى مهد طفولته، ومرتع صباه.. وقد عاش يذكرها ويتغنى بها - حتى ليقرنها بـ «باريس»:

وقد أكثر صاحب البدائع من الحنين إلي سنتريس، وهى مَهوى قلبه، ومُنيةُ روحى، إذ كانت ملعب صباه، وميدان لهوه، فى أيامه السوالف، ولياليه الخوالى!

وانظر كيف يقول:

ليالي النيل واللذات ذاهبةٌ — وجدى عليكنَّ اشجانى فأضنانى

لو يرجع الدهر لى منكنّ واحدةً — فىِ سنتريسَ ويُدنى بعض خلّانى
إذًا تبيَّن دهرى كيف يرحمنى — من ظلم همى ومن عدوان أحزانى
كم ليلةٍ لى بذاك النهر سالفةٍ — قضيتها بين غادات وولْدانِ

* * *

وذى دلال هو الدنيا وزينتها — يُردى الأسود بطرفٍ منه نعسانِ
كأنما فعل عينيه بعاشقه — فعل المدامة فى أعطاف نشوان
شربت من ريقه راحًا مشعشعةً — بخالص الودِّ لم تُمزج بسُلوان
وكم حبيبٍ براح الريق أسكرنى — وكم جميلٍ بورد الخد حيّانى

* * *

يا مُوقد النار فى قلبى مؤججةً — وقاطنًا بين أنهار وريحان
عَرِّجْ علىَّ فما نفسى بصابرةٍ — على نواك وما طرفى بوسنان

* * *

وإليك قوله فى كلمة ثانية:

إيهِ يا فتنة الوجود سلامٌ — من مَشوقٍ متيَّم القلب عانِ
لو يشاء الهوى حوتك ضلوعٌ — حائماتٌ على صِباك حوانى
فارحمى فانيًا من الوجد يشقى — بغرامٍ مؤجَّجٍ غير فانِ
رَنقتْ وردةٌ الليالى فأمسى — يرقب الصفوَ من خِلال الأمانى

* * *

آه لو يسمح الزمان ونلقى — من طوى قربهم عِناد الزمان
وترى سنتريس والدهر غاف — ما قضينا من الليالي الحسان
حين كنا من السرور نشاوى — في نجاة من النوى وأمان
نتساقى الحديث عذبًا شهيًا — وقطوف المنى رطِابٌ دوانى

* * *

يا خليلىَّ والرفيق معينٌ — أسعفانى ببعض ما تملكان
ابتغى آسيا فقد عيلَ صبرى — من توالى الوَجيب والخفقان
ابتغى صاحبًا تولَّهَ قبلى — وشجاه من الجوى ما شجانى

فــلــقــد يُــســعف الجــريح اخــاه ويــواسى الــزمــيل فى الأحــزان

* * *

وقدّ لحن هذه القصيدة البلبل الغرِّد الشيخ عبدالسميع الباجورى وما أروع شعر الوجدان إذا غنُنىَ بمثل صوته العذب الجميل!!

* * *

الباب الثامن

كأننى بالأديب الدكاترة زكى مبارك وهو يصرخ بأعلى صوته سوف أبقى بينكم حر الفكر وصادق البيان.. ثم أذكركم بأن الحبَّ أفلس مخزونه منذ قابيل وهابيل وأن العداوة طبيعة الحياة الدنيا إلا ما استثنى من أخيار النفوس السوية.

دكتور عبدالله محمد باشراحيل

مكة المكرمة فى ١٢/ ٨/ ١٤٢٤ هجرية

ديوان زكى مبارك

هذا الديوان الأول للشاعر زكى مبارك وقد صدر سنة ١٩٣٣ وكان بعنوان "ديوان زكى مبارك" فيومها كانت دواوين الشعر تصدر باسم صاحبها كديوان رامى وديوان ناجى وهكذا ...

وإذا كنا قد بدأنا الكتاب بأحاديث الحب النثرية للأديب زكى مبارك فنحن لا نستطيع إغفال ما نظمه الشاعر زكى مبارك من قصائد عاطفية، ومع ذلك فسوف نذكر فقط بعض القصائد لأن قصائد زكى مبارك العاطفية تملأ مجلدات.

يفتتح زكى مبارك ديوانه الأول فيقول تحت عنوان:

إهداء الديوان الأول

إلى تلك الفتاة التى خفق لها القلب أول خفقة، والتى قلتُ فيها أول قصيدة، وسكبتُ عليها أول دمعة.

إلى تلك الفتاة المنسيَّة التى تنام فى قبرٍ مجهول تحت سماء سنتريس.

إلى بقاياك فى التراب يا فاتحة الأمانى وخاتمة الآمال.

إليك ـ يا كل ما كنت أملك فى مطلع الصبا وفجر الشباب ـ أقدم هذا الديوان:

وأقسمُ ما قدَّمتُ إلا أضالعى ... يمزقها حزنى وينثرها وجدى
فلا تحسبينى بعد أن خانك البِلى ... تخوَّنتُ ما بينى وبينك من عهد

ألحان الخلود

صدر ديوان " ألحان الخلود" سنة ١٩٤٧، وهو الديوان الثانى للشاعر زكى مبارك والذى أصدره فى حياته.

ولقد أكثر زكى مبارك من الحديث فى الحب شعرا ونثرا وفى ذلك يقول:

إن دراسة الحب باب من علم النفس لا يتقنه إلا الأقلون، والناس يحسبون أن الكلام فى الحب لونا من العبث لأنهم يغفلون عن طبائع النفس الإنسانية التى لا تخلو من صبوات فى كهولة أو شباب.

وقد عرف كتاب الغرب وشعراؤه ومفكروه قيمة تلك الدراسات النفسية فأضافوا بها إلى علم النفس ثروة عظيمة لا تخطر لكتاب الشرق على بال:

ويقول زكى مبارك: ليس لى من أهل الجمال إلا مأرب واحد هو درس الطبائع والغرائز والميول لأخرج من ذلك بمحصول فلسفى قد ينفع بعض النفع فى إذكاء الدراسات الأدبية والفلسفية.

والآن مع هذه القصيدة للشاعر زكى مبارك وهى بعنوان:

لقاء الجمال

بـعـد اعـوامٍ طـوالٍ وطِـوالْ   سَمَحَ الـدهـرُ بـأعـطـافِ الـغـزالْ

كِـدتُ لا اعـرفُ مِن هـذا الـغـزال   غـيـرَ انـوارِ لـطـافٍ وظلالْ

* * *

شـادنٌ ظنَّ بـأحلامى الـظـنُـونْ   رُبَّ ظنٍّ هـو من عِـلْم الـيـقـينْ

فـانْـثَـنَى عـنى إلى ان يـسـتـبـين   أنـنى فى حـبِّـهِ الـروحُ الأمـينْ

* * *

ابنُ عمِّ الـبـدرِ فى الـنورِ الشَّـفُـوفْ   ابنُ عمِّ الـظـبىِ فى الـثـغـرِ الـرَّشوفْ

بـخـيـالى كـنتُ فى حـلمى أطوف   بـجـمـالٍ هـو عن وصـلى عَـزُوفْ

* * *

نـظَـرَاتٌ هى من روحى الحـنـانْ   بـسَـمَـاتٌ هى من زهـر الجِـنـانْ

وقَـوامٌ من امـالـيـدَ لِـدَانْ   صـالحٌ لـلـهَـصْـرِ فى كل زمـانْ

* * *

لا تَـسَلْ عنه فـمـا عـندى خَـبَـرْ   عن غـزالٍ هـو بـالـوجـد أمَـرْ

انـا وحـدى آسـرٌ ذاك الـقَـمَـرْ   والـبـيـانُ الـعَـذْبُ نـارٌ وشَـرَرْ

* * *

قـال لى: تـعـرفُ؟ مـاذا اعـرفُ   يـا غـزالاً بـفـؤادى يـعْـصِفُ

مـا سِـرارُ الـقـلب مما يُـعـرَفُ   مـا ضَـمـيـرُ الـروحِ مما يُـوصَفُ

* * *

لستُ أدرى ما الذى انت تريد ... يا غزالاً هو بالحُسْن شَرودْ
انا أدرِى انا أدرِى ما تريدْ ... وضميرُ الصَّبِّ شيطانٌ مَريدْ

* * *

كلُّ ما ترجوه أن يحيا الوِصالْ ... كالذى كان لأيام الدلالْ
كلُّ ما ترجو ضَلالٌ فى ضلالْ ... إن قلبى كله مِلْكُ الجَمَالْ

* * *

احْوَرُ العينينِ مَعْسُولُ الحديثْ ... ولأهوائى واحلامى بثوثْ
إنه الألحاظُ من تلك البَهوثْ (١) ... وهو السلوان من قلبى جَثوثْ

* * *

إنه يَذْكُرُ لَيْلَ اسكندريهْ ... وهديرُ البحرِ يطغى فى العَشِيَّهْ
وهديرُ القلبِ أرواحٌ فَتِيَّهْ ... صادحاتٌ بتغاريدَ شَجِيَّهْ

* * *

شهرَ «يُولْيُو» انت يا شهرَ عزيزْ ... جازَ فيه الحبُّ او كاد يجوزْ
شهرَ يوليو انت كنزٌ من كنوزْ ... كل ما فيها نفيسٌ وعزيزْ

* * *

أرْقُبُ الأيامَ استوحى هواكْ ... وأُناجى فى صَباباتى صِباكْ
واناغى روحَكَ الثاوى هُناكْ ... فكأنى حين آراه اراكْ

* * *

شهورَ يوليو انْتَ من قلبى قريبْ ... شهرَ يوليو انت من روحى جَنيبْ
إن تَجُدْ يا شهرُ بالروح الحبيب ... كنت أنت الزَّهْرَ فى روض القلوبْ

* * *

كلُّ أيامى جمالٌ فى جمالْ ... حين يُصبِى مهجتى ذاك الغزالْ
احرامٌ قتل روحى ام حلالْ ... إننى أعْشَقُ ذيّاك الضلالْ

* * *

القلب الذاهب

رُوَيْدَك أيها القلبُ ... فقد أودَى بك الحبُّ
وقد أصبحتَ لا تسلو ... فلو أمسيت لا تصبو!
وبين القلب والعين ... سجالٌ كانت الحرب
فتُذكيه ويُبكيها ... لعَمْرُك إنه خطْبُ
لقد أسرفتُ فى حبى ... كذلك يفعل الصب
وأصفيت الهوى حِبًا ... له من دَلّه حُجْبُ
فمنه الصدّ والبعدُ ... ومنى العفوُ والقربُ
فلو عاتبتُه يومًا ... لزاد عِنَادَه العَتْبُ
وقد راسلتُه جُهدى ... فضاعت عنده الكُتْبُ

***

فصبراً أيها القلبُ ... على ما يفعل الحبُّ
فكلٌ مدلّه خِلٌ ... وكل مُعشّق خِبٌّ
فكن يا سيدى بَراً ... بصبٍ ما له ذَنبُ
لئن ضيَّعتنى قلبى ... فأنت الروح والقلب
وإن آثرت إبعادى ... ولم يشفع لىَ الحب
فإن عقابكم عدلٌ ... وإن عَذابكم عَذْبُ

***

غناء ليلة الميلاد

تـذكـرتُ أيـامى وانـتم احـبـتى   وانتم رفيفُ الزهر فى حُلم احلامى
تـذكـرتُ انى.. هل تـذكرت؟ لـيـتـنى   سـأذكـر ايـامى لـديـكم وآثـامى
سـنـونَ قـضـيـنـاهـا ولـلحب نـشـوةٌ   تـثـور بـهـا فـى نـشـوة الحب آلامى
قضى الحبُّ.. مـاذا الحب قاضٍ فإننى   إلى حـكـمه راضٍ بـأوهـام أوهـامى
انـحـن افـتـرقـنـا، آهُ، كـيف تـبـددت   نـسـائمُ صُـغـنـاهـا من الـراح والجام؟

***

يـا لـيـلـة الـمـيـلادْ
يـا لـيـلـة الجَـلْـوهْ
إنى عـلـى مـيـعـادْ
مـع غـادتِى الحُـلْـوهْ

إن مـرَّ عـيـدٌ ولم أشـهـد لـهـا قـبَـسًا   فـالـعـيـدُ لـيلٌ كَـفُـورُ الـعـهـدِ ظلاَّمُ

نـحنُ افـتـرقـنـا افـتـرقـنـا
ويـا الأمـانـى شَـرِقْـنـا
لا تـذكُـروا الأيـامْ
لا تـذكُـروا الأحـلامْ
إنـا غَـرِقْـنـا غـرقـنـا

***

قال الخَليُّون ما قالوا وما علموا	انى إلى نورها الوهّاج مشتاقُ
تألمت من هُيامى وهى جانية	شِعرى لصَرْعَاىَ بالأوهام تِرْياقُ

***

عائدٌ انتَ؟ اجبنى هل تعودْ؟

عائدٌ انت؟ اجبنى يا شَرُودْ

كلُّ يوم من تجافينا يجودْ

بالعذاب العذْب من هذا النشيد

***

لحظُ عينيك رحيقٌ فى رحيقْ

انا فيه بعذاباتى غريق

كلُّ ايامى صَبُوحٌ وغَبُوق

كيف اصحو من غرامى وافيق

***

هذه الطلعةُ من هذا الجمالْ

هى نورٌ من فتون ودلال

احرامٌ وجدُ قلبى أم حلالْ

هل يجيب النُّورُ عن هذا السؤالْ؟

ليلةُ الميلاد هذى ليلتُكْ

وضياء الليل فيها بسمتُك

طلعة النور لروحى طلعتك

وسعير القلب فيها وَجْنتُك

***

من غرامى بك يا حُلْوُ تغارْ

مثلما يَكفرُ بالليل النهارْ

والهوى القهار كيدٌ ونِفارْ

إنه الضوضاء فى ليل القِمار

***

نــقــْطعُ الأيــامَ ايــامَ الــغــرامْ

فـى خـــصـــام وعـــتـــابٍ ومَلام

ثم اســـتــهــديك كــاسًـــا من سلام

فــتــســاقــيــنى احــاديث الــهُــيــام

غــاضب انت؟ فــمــا سِــرُّ الــغــضبْ؟

يــا غـــزالاً من غـــرامـــاتى شَـــربْ

لاعبٌ انت؟ ومـــا احـــلى الـــلـــعب

من غـــزالٍ بـــاغـــاريـــدى طَـــرب

***

إن شـــعـــرى فـــيك من لَـــحْنِ الخـــلـــودْ

إنه المـــقــبـــوسُ من جَـــمـــر الـــصـــدود

إنه المــــعـــصـــور من زهـــر الخـــدود

وعـــصـــيـــرُ الخـــد من نـــار الحـــديـــد

***

غنَّيتُك الشعـر من روحى فَطِرتَ به مع الملائك فى يــوم الــثلاثـاءِ

إنه يـــــومٌ قــــريبٌ وقـــــريبْ

يـــســـمع الـــقـــلب شَـــذاه فـــيـــجـــيب

يـــعـــصف الحب بـــنـــا ثم يـــطـــيـــب

لحـــبـــيبٍ يـــتـــشـــهـــاه حـــبـــيبْ

***

اســـهـــرُ الـــلـــيلَ وأين الـــلـــيلُ؟

أرقب الـــصـــبح وأين الـــصـــبحُ؟

انت لـــيـــلى ونـــهـــارى

انــت صـــبـــحى ومَـــســـائى

كل مـــا فـــيك جـــمـــيلْ

يـــا ســـمـــيـــرى فى الخـــيـــالْ

انـــا بـــالـــوجـــد عـــلـــيلْ

يـــا جـــمـــالا فى جـــمـــالْ

حـلـوان تُـقـصـيك عـنـى وهـى ظـالـمـةٌ مِـصـر الجـديـدةُ تـشـكـو بُـعـد حـلـوانِ

***

أما بعد فهذه قصيدة لن يغنيها الموسيقار محمد عبد الوهاب فى المحطة المصرية ولكنه سيغنيها فى محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية.

وما الذى يقع إن ضاق وقته عن الغناء؟ أنا فى هذا اليوم سأشرع فى طبع ديوان «ألحان الخلود» وهو مهدًى إلى «جمال الجمال».

***

إلى جمال الجمال

غنَّى المغنُّون من حولِى فما سمعت روحى وإن راعت الألحانُ آذانى
إنى بحبك مشغولٌ تساوِرُنى أطيافُ حسنك فى أعماق وجدانى
أُصاحبُ الناسَ تُرضينى خلائقُهم لعلنى أتناسى نار أشجانى
فما أشاهدُ فى كل الوجود سوى جمالك الفخم يَهْوَى أسرَهُ العانى
لولا جمالكَ تُصبينى فواتِنُه ما فُقْتُ فى الشعر والتغريد أقرانى
حَنَا الجمالُ على روحى يسامرُه بشائقٍ من أغنّ الصوتِ فتان
فقمتُ أُرسلُ لحنى فى ذوائبِهِ هوًى يصولُ بأرواحٍ وأفنان
إن راقك الشعر تَسْبينى عرائسُهُ كالحُور ترقص فى أحلام رضوان
فمن جمالك وهو الدُّرُّ فى نسقٍ كالشعر يُنظم أنغامًا بأوزان
أصوغُ وَحْىَ فؤادٍ أنت ملهمُهُ حتى غدا من جواهُ خير فنَّان
يا وجد قلبى ويا حُسْنًا أدين له بالفاتن الجَزْل من شَدْوِى وألحانى
جمال وجهك فى تقسيمه عَجَبٌ كأنه حِليةٌ صِيغت بميزان
لو كان وجهُك فى ماضى العصور بدا لصار معبود أحبارٍ ورهبان
أستغفر الله وهو المستجارُ بِهِ من أن تصيَّرنى عبَّاد أوثان
يهفو إليك ضميرٌ أنت غايتهُ من جَنَّةٍ أنا فيها الفارسِ الجانى
غرستَ حسنك فاذكرْ بالجميل يدى يا زهرةً نشأت فى رَوض جنَّان
لولا قصيدى ولولا ما هتفتُ به ما صِرتَ كالبدر فى حُسنٍ وتحنان
عيونك السُّودُ والسِّحرُ المقيمُ بها مما خلقتُ بألحانى وأشجانى

من انت؟ لا لن اسمّى غافلا جهلتْ ... اجفانُه ما جرى من ماء اجفانى
سينقضى الدهرُ لا تدرون ما شَغَفى ... إنى أُوجّجُ آلامى بكتمانى
لو بحتُ يومًا بأسرار الغرام بكم ... بَوْحَ الجريح غفا عن جرحه الحانى
لطار طيفٌ رفيقٌ يَفتدى المى ... بأحورٍ جاهلٍ بالحب حيران
من انت؟ هذا كلامٌ، انت لا احدٌ ... إنى أُردّد ما يوحيه شيطانى
ما ساورَ الحبُّ قلبى، تلك مشكلةٌ ... اثارها لاغتيابى بعضُ جيرانى

***

من انت؟ إنى ارى من انت يا وَثَنًا ... أُهدى له كل يومِ الفَ قُرْبان
انغامُ صوتك تشجينى سواجُعها ... فهل تكون على الأيام قرآنى
ما رَنَّ صوتك إلا قلت من طربٍ ... هذا الذى نَفَثتْ أسجاعُ وجدانى
صوتٌ كشعرى رنينُ الروح مصدرهُ ... سُبحانَ صوتِك يا وَحْيى وسبحانى
من انت؟ يا ساحرًا لحنُ الغرام بِه ... لحنُ الخلود بذاك العالم الثانى
يبُقيك شعرى بقاءً لا فناء له ... ما كان شِعرى لهذا العالم الفانى
قد شاب رأسى بنار الحب مُوقَدةً ... والحبُّ اقباسُ آلامٍ ونيران
قد شاب رأسى وما شاب الغرامُ بكم ... إنى فتًى قد بناه الفاطر البانى
إن الكهولة لم تصْدَع فؤادَ فتًى ... يخافه الخلقُ من إنسٍ ومن جان
قضيت دهرى قتالا شَبَّهُ قلمى ... غربًا وشرقا بباريس وبغدان
اين النظيرُ نظيرى؟ إننى رجلٌ ... تخشى الأعاصير من طغيان طغيانى

***

من انت؟ سوف ترى من أنت إن سمحتْ ... روحى بقتل هَوى بالشعر أحيانى
تمضى الليالى طوالاً لا اذوقُ بها ... غير المرارة من آلام حرمانى
من انت؟ سوف ترى من انت يوم ترى ... انى سأُضْنىِ الذى بالصد اضنانى
لو صح عندك انى من أهيم به ... لطرت تَنْشد صفحى ثم غفرانى
يا أوحد الخلق فى تنسيق صورتِه ... ويا مثال السَّنا من نور تبيانى
من انت؟ لا، لن اسمّى لن يبح فمى ... باسمٍ إذا قلته فى السر ابكانى
يلوح طيفك احيانًا فتنقلنى ... الى ديارك يا سَحَّار اشجانى
وأذرع الأرض اطويها وانشرها ... كالبرق يجتاز اكوانًا لأكوان
فهل أراك كما كنا وكان هوًى ... لو شئت صافحنى يومًا وناجانى

لا تنتهي فيك أشواقٌ أصاولها ... بجاحمٍ من سعير الوجد سَعْران
ولا يجفف دمعي أن لي أملا ... في عطف روحك إن أعلنت أحزاني
ما غاية العيش من دنيا أعيش بها ... بخافقٍ حائر الأحلام ظمآن
آهًا ولو كان في آهٍ نجاة دمي ... من قاتلين بأزهارٍ وريحان
لقلت آهًا وآهًا واستعنت دمًا ... هو المحجَّب من أسرار وجداني
ما لي أُجَمجم؟ خوفي منك يزعجني ... هل كنت يا آسري بالحسن ديَّاني

***

اأنت أنت؟ أجب، إني لأحسبني ... أروي حديثك عن أحلام وسنان
لا أنت أنت ولا وجدي سوى كلفٍ ... من شاعر بنمير الحسن غَصَّان
كن كيف شئتَ وأنكرْ في الهوى شغفي ... فسوف أدفع بهتانًا ببهتان
من أنت؟ مَنْ شاعرٌ أدميتَ مهجتَهُ ... باعينٍ لك لم توهبْ لإنسان؟
من أنت؟ إني أرى من أنت يا رشأٌ ... من غدره سوف يُسْقَى كأس كفراني
ستشرب النار من غدري مُصلصلةً ... والدهر يَرجمُ خوانًا بخوان
عليك أعتِبُ؟ ما عَتْبِي على قمرٍ ... قد نام عني وخلاني لأحزاني
أصوغ شعري حنينًا كي ترقَّ له ... من بعد صدٍّ وهجرانٍ وعصيان
فلا يكون جوابٌ منك عن غَزَلي ... إلا جواب كحيل الطرف نَعسان
تراع حينًا بأنظاري أصوِّبها ... إلى جمالك من آن إلى آن
فتستجيب بروح باسمٍ مَرِحٍ ... كأنه الزهر في أيام نِيسان
وتشتهي أن ترى أني بما سحرتْ ... عيناك أنظمُ أشواقي بألحاني
لا، لن أبوح بحبي لن أبوح بِهِ ... إني لأنبتُ من أركان «ثهلان»
أكاتم القلب وجدًا لو نطقتُ بِه ... لثار يسأل ما خَطبي وما شاني
يا قلبُ دَعْني لكتماني أنادِمُهُ ... لم يَبق لي من نديمٍ غير كتماني

***

من أنت؟ لا، لن أُسمِّي من أهيم به ... يكفي الذي قد مضى من فضح أشجاني
عشرون عامًا وقلبي طائرٌ غَرِدٌ ... يُساور الحسن من غُصنٍ لأغصان
قال الخليُّون في شجوى مقالتهم ... وجرَّحوني بأظفارٍ وأسنان
فليرجعوا وليكفُّوا عن ضلالتهم ... فما لغير الهوى للمرء عينان
أكان إثمًا عظيمًا أن أكون فتًى ... الحُسنُ في شعره أزهارُ بستان؟
لا تسألوا أين «شوقي»، ذلكم عَلَمٌ ... لو قام من قبره يومًا لحيَّاني
إني تحدَّيته حيًّا فآمن بي ... أين الذي بمعانيه تحداني

***

قالوا «ذَوِى الشعرُ فى مصر» فقلت لهم ... إنى سأجعله من بعض خلانى
ما ضاع من أنا راعيه وكالئُهُ ... بحارسٍ أخضر العينين يقظان
للأعين الخُضْرِ سحرٌ قاهرٌ خضعت ... له الفواتك من صَلّ وثُعبان
الأعين الزُّرق فى باريس ترهبنى ... كالأعين السود فى آطام بغدان
سأوقد الشعر فى «الوادى» وأعلنه ... إن كان فى حاجةٍ يومًا لإعلان
الشعرُ فى مصرَ، فليسكتْ أخو غرض ... يقول إن حماه أرض لبنان
مصرُ التى رفعتْ للشعر رايته ... وأيدته بأبطالٍ وفُرسان
لولا سنا مصر فى لألاء طلعته ... ما كان يومًا تبدَّى نجم «مطران»
الشعر فى الشرق نحن الحارسون له ... على الرياض يخاف الغارس الحانى
أسلافُنا قد أعادوا نسج بُردته ... إلى أصالتها فى عَهد عدنان
ما رام ناظم شعر غير غايتنا ... من أن يكون هُدًى يُوحَى بميزان
الجد والهزل فى أشعارنا تُحفٌ ... الجد والهزل عند الشعر سيّان
فإن عَدَلنا وأجحفنا فلا عَجَبٌ ... العدل والظلم عند الشعر مِثلان
عنّا خذوا العقل فى طغيان ثورته ... هدمًا بهدم وبنيانًا ببنيان
لا تحسبونا صفحنا عن تطاولكم ... لا صفحَ عن كافرٍ من بعد إيمان

***

من أنت؟ ما هالةٌ يَسرى بها قمرٌ ... مَسْرَى الصبابة فى أحلام وَلهان
فَتنتَ بالحسن آلافًا مؤلفة ... يا أجمل الخلق من حُورٍ ووِلْدان
إنى أغار، فليت الناس ما خُلقوا ... أوليتهم خُلِقوا من غير أجفان
إن لم يروك فصوتٌ منك يسحرهم ... يا ليتهم خلقوا من غير آذان
من أىِّ رُوح عصوفٍ أبدعتك يدٌ ... من بدعها كان بالخلاّق إيمانى
ما البدر فى نوره الباهى وطلعته ... إذا تألقَ فى أعقاب أدجان
أدل منك على أن الوجود سنًا ... قد صاغه من سناه روح فتّان
لو يُعبدُ اللّه يومًا فى بدائعه ... لكنتَ يا ساحرًا معبودنا الثانى
اللّه فيك أرى، إنى ليطربنى ... أن الوجود جميعًا روحه الغانى
أنت الجمال وروح الحسن خالدة ... ما فى الحدائق زهرٌ ذاهبٌ فان
إن الورود وإن لم يَبْق رائعها ... يومين تضرب أزمانًا بأزمان
إن العَبيرَ إذا طاح الذبول به ... يبقى وليس عبير الحسن بالفانى
تلك المذاهب من غىٍّ ومن رَشَدٍ ... ومن جنونٍ وعقلٍ وحىٌ أكفان
لو مات مَن مات حقًا لانقضىَ أثرٌ ... لذاهب لم يعش إلا بجثمان
ما نُوحُ ما أمرُهُ والفُلك تُنجدهُ ... من الغوائل طوفانًا لطوفان

هل كـان نـوحٌ سـوى رمـزٍ عـرفتُ به ... انْ لا فـنـاءَ لـروحٍ أو لأبـدان

من أنت؟ سوف أسمّى يوم تُلهمنى ... ما لم يكن لِيَ فى وهمٍ وحُسبان

ويوم يصبح شعرى فيك مُعجزةً ... تكون فى سَبَحات الخلد برهانى

أقول هذا وإن لم يجترئ أحدٌ ... على المجاراة فى الميدان ميدانى

اروم شعراً كشعرى فيك يفتننى ... كفتنتى بغرامى يوم تلقانى

هذي القصيدة وحيٌ منك اطربنى ... قل لى متى يتجلى وحيك الثانى

انت الرسول رسول الحسن فى زمنٍ ... انا الأمير به من بعد حسان

***

لقاء جمال الجمال

لقيتُك بعد اليأس منك فصفّقتْ جوانحُ فى قلبى بحبك تخفقُ
ودام التناُجى ساعتين وساعة وجفنك بالتهيام والوجد ينطق
يسائلنى عما جرى فى غيابهِ جمال كأزهار الفراديس يُشرِق
يسائلنى عنه، أكان بخاطرى وبالى ونار البعد للحب تمحق
نعم كنت فى بالى وكنت بخاطرى فأحنو على روض الجمال وأشفق
وهل غاب عن بالى جمالكَ لحظةً وانت غريبُ الدار بالهجر مُغْرَق
ترحَّلتَ عن مصرَ الجديدةِ كارهًا ودمعك مسكوبٌ وقلبكُ شيّق

***

لقد أصبحت حلوانُ دارك وانقضت ليال وروحى من بعادك يُقْتَل
أمر بباب اللوق أستاف زهرهُ وأسأل عن وعد القطار وأسأل
لقد صار باب اللوق كعبة عاشقٍ يحج إليها ناسكًا يتبتل
إذا صرخ الوابور قلت لعله بشير بوحى من سمائك ينزل
وانظر فى كل الوجوه بلهفة كأنك فى كل الأسارير تُقْبل
أسكانَ حلوانٍ إليكم تحيةٌ وشوقٌ بأحشائى يثور فيجهل
لكم فى حماكم جمرةٌ من صباحةٍ إذا التهبت كاد الوجود يُزَلزل

***

لقيتك بعد اليأس منك فصافحتْ عيونى هوًى يحنو علىَّ ويرفق
ينادمه شعرى وللشعر خمرة ينادمها الروح الأسير فيعتق
لقد ضجَّ هذا الكونُ ضجَّ ضجيجه وثارت به جنٌ نزفٌ وتعزف
عواصفُ هُوجٌ شاكياتٌ بأدمع من المطر الثجاج بالوجد تنطف
تجاهد أشجارُ الحديقة بأسَها بأجذاعها، والحر فى البأس يُعرَف

إذا جَلْجَلَ الريح العصوف تماسكت ... واغصانها من قسوة الريح ترجف
وما خوف أطفالٍ ابوهم مجاهدٌ ... على نائبات الدهر بالبأس يزحف
لقيتُك، إنى قد لقيتُك والهوى ... بأعماق روحى ثائرٌ يتمرد
لقد كدت أذوى وجنتيك بقبلةٍ ... بأنفاسها نارُ الجوى تتوقد
ولولا اتقاء الحب عَزَّ ثناؤهُ ... لأمسيتَ مقتولاً يواريك مشهد
عيونٌ كحيلات الجفون لوامعٌ ... بها للفتى المفتون بالنور معبد
أساورها عند التناجى بناظرى ... فتخضع من نار الغرام وتسجد
وخدأن كالصهباء ثار رحيقُها ... فصار شذاها عاشقًا يتنهد
االنت أسيرى بالقصيد وآسرى ... بلحظ لأوتار الصبابة يجحد
ستعرف ما أجنى عليك بصبوتى ... ستعرف أنّى قاتلٌ متعمّد

***

مضتْ سنواتٌ أربع وغرامنا ... له كل يوم فى حِمى الوجد مَرْبَعُ
مضت سنوات أربع ونعيمنا ... له كل يوم فى سما الحب مَطلع
إذا صلصل الهتَّاف والليل هاجدُ ... تخيلته صوتًا لأمرك يصدع
تقول به فى لهفةٍ والتياعةٍ ... بأن حبيب الروح للروح يرجع

***

رجعت إلى قلبى فثار وجيبهُ ... رجعت إلى روحى فثار هيامه
بأمر الهوى أقبلتُ والحب حاكمٌ ... يطاع على رغم الدلال كلامه
إذا ما تناجينا وبالليل ظلمةٌ ... تطاير من لطف التناجى ظلامه
تعال نُعِدْ للكون أيام أمِنهِ ... فعندى إذا ناجيتَ روحى سلامهُ

***

االنت انت؟ أجبْ، إنى وحقّ دمى ... لفرحة روحى لا أكاد أصدّق
وهلْ آمن الحراس بالحب لحظةً ... فخافوا من الهجر الأليم وأشفقوا
على رفقهم بالصب ألفُ تحيةٍ ... وألفٌ وآلاف من القلب تُنْفَقُ
وهل غفل الحراس ضل ضلالهم؟ ... الا إنهم فى حبس نورك أخفقوا

***

االنت معى وجهًا لوجهٍ وخافقًا ... إلى خافقٍ أُملى عليك فتسمعُ
دع الدارَ من حلوان إنى اجتويتها ... لبعدك والمحبوب للصب طيّع
تعال إلى مصر الجديدة ثانيا ... ففيها إذا ما عُدتَ ملهًى ومرتعُ
تعال إليها فهى للحُسن دارةٌ ... تعال إليها فهى للحب مَرْبَع

***

يناير سنة ١٩٤٦

بعد ليلة غرام

إنها قصيدة القصائد، وقد نظمتها فى ساعة من ساعات التجلى، وفيها يغدق اللّه النعم على من يشاء:

صــــورةٌ مـــــا أراه أم ذاك حُـــــلْمٌ ... زارنى طَـيـفُه بـوادى الـفُـتُـونِ
كـدتُ أُهـوى عـلى سـنـاهـا بـقـلب ... سـادرٍ فى ضلاله مـجـنـون
عـذَّبـتـنـى فـأسـرفْت فى عـذابى ... وهى أحـنَى من الـفـؤاد الحـزين
رقـةٌ تَـنـثـرُ الـقـسـاوة نـثـراً ... كـشـعـاع الحـنـان عـنـد الـعـيـون
إن هِـذى الخـدود وهى زهـورٌ ... تـبـعث الـرعب فى فـؤاد المـنـون
يـخـنقُ الـزهـرُ عـاشـقـيه بـلـيلٍ ... آهُ من قـسـوة الحـبـيـب الحـنـون !
كل شىء يـهــون إلا هـلاكًـا ... يـتـلـقـاه عـاشقٌ من خَـدِين
يـا جـمـال الجـمـال أقـبلْ، وأقـبل ... إن روض الـصـفـاء مـلك يمـيـنى
لـيـلـة الـعـيـد لـيـلـةٌ لك فـيـهـا ... عـنـد قـلـبى طـوائفُ من ديـون
قُـبُلات تـسـقـيك نـاراً ونـوراً ... ثم تـفـديك بـالـنـفـيس الـثـمين

***

آهُ من لـيـلـةٍ عـلى الـبـحـر هـانتْ ... عـنـد أقـدامـهـا كـبـار الـلـيـالى
نـسـهـر الـلـيل بـين رعـدٍ وبـرقٍ ... إن مَـهْـر الحـبـيـب فى الحب غـالى
كـان صـدرى فـداك من هـول لـيل ... خـشـيـت هـولـه رواسى الجـبـال
إنـنى قـد نجـوتُ والـهـول يـطـغى ... حـين أنجـيـتُ روض ذاك الجـمـال

***

لـلـنـاس عـيـدٌ ولى عـيـدٌ وأعـيـاد ... إنى مـتى شـئـتُ للأعـيـاد صـيَّـادُ
فى كل يـوم لـقـلـبى فى صـبـابـتِه ... بـروضـة الحسن عـنـد الحسن مـيـعادُ

يا غادرين ولم نغدر بهم أبداً ... وباضطرام غرامى فى الهوى سادوا
جرتم على الصب فى أيام محنته ... ليت الجحودين يوم الجحد قد بادوا
خلعتُ حبى على من ليس يفهمهُ ... وللكريم على الأموات أجواد
كنتم معى يوم أن كان الزمان معى ... واليومَ أنتم مع الأعداء أجناد
لا تجهلوا أن لى حظًا ستعرفهُ ... بعد الأحايين غِزلانٌ وآساد
لو شئتُ، لا شئتُ، كان الغدر طوع يدى ... بغادرين لهم فى الغدر ميلاد
إنى أُزلزل أكبادى لأذكركم ... إن كان لى بعد ذاك الغدر أكباد
لا تذكروا كيف كنا، تلك آونةٌ ... جهلتُ فيها وللأقدار أرصاد
لا تذكروا البحر نمضى فى غواربه ... والبحر يُطغيه إرغاءٌ وإزباد
لا تذكروا الليلة الأولى وقد عَريَتْ ... عند التعانق أرواحٌ وأجساد
لا تذكروها فإننى لست أذكرها ... مضتْ على عَصفها بالقلب آمادُ

***

رأيتُك رَأىَ القلب والعيد يُقبِلُ ... وأنت بنور الروح والقلب تُقبلُ
تسائلنى عما أريد، عفا الهوى ... عفا عنك يا روحًا يجود فيبخلُ
إذا برقت عيناكَ كاد متيَّمٌ ... من البرق فى عينيك بالسحر يُقتلُ
وإن لمعتْ تلك الخدودُ رأيتنى ... على غير وعى بالأزاهير أُخْبلُ
معاصمُ من ماء الشباب رويةٌ ... وجيدٌ كجيد الظبى بل هو أجمل
وصوتٌ رخيمُ اللحن، فى نَبَراتِه ... اغاريدُ يهُديها إلى القلب بُلبل
تبارك من سواك روحًا لطيفةً ... لها كلُّ قلبٍ يَعبدُ الحسن منزل
أضلِّل قلبى فى هواك لعلهُ ... إذا كَثُر التضليل فى الحب يجهلُ
يسائلنى قلبى وأنت غريمهُ ... غريمٌ عن الجانين فى الحب يسأل
عن اللّه وهو اللّه أكتمُ لوعةً ... بها كلَّ يوم فى حياتى أزلزَل
أُساورُ أحلامى عسانى أَروضُها ... على غفوةٍ تَعْنو لها ثمَّ تذهل
اضاليلُ أرويها لروحى دعابة ... وهل مثلُ روحى فى الغرام يُضلَّل؟
أسِيتُ لروحى كيف يشقى بحبه ... وما كان لولا نضرة الحسن يفعلُ
أأنت الذى بالأمس عاقرتُ روحهُ ... وروحىَ من نور الصباحة يَنْهل؟
أأنتَ؟ لعل الدهر يسمح مرةً ... فيصبح لى فى ذلك الروض موئل
أصابر روحى فى هواك لعلنى ... إذا عِيل صبرى فى رحابك أنزل
أُحاربُ آلامى لأنسى صبابتى ... وبعضُ الحروب السود للقلب يشغل
أيُخْلِفُ ميعادى «الجمال»، وإنه ... ليعرفُ أن الموت إن خان أسهل؟
عواطفُ سقناها إلى غير أهلها ... فلا تعذلونى إننى أتفضل
خلعتُ على أهل الجمال غوايتى ... وإنى إذا ما شئت فى الحب أبذُل

ألوفٌ من الأرواح هانتْ فصنتُها ... وأكرمتها . إنى أقولُ وأفعلُ
إذا ضاق جَيبٌ من جميلٍ فإننى ... أشُقُّ جيوبى ما أراد وأفضل
إذا كان للعشاق فى الحب شِرعةٌ ... فإنى بحمد العشق والحب أول
تأوَّلَ أقوام كلامى وأسرفوا ... على وزرهم ذاك الكلام المؤول
لهم أن يقولوا ما أرادوا وما اشتهوا ... فشعرى وإن ماتوا كتابٌ منزَّل

***

ليلةُ العيد، أهذى ليلةُ؟ ... أمْ ليالٍ بالجوَى الغالى فِصاحْ
عَربَدَ الصفوُ على أمواجها ... وتراءى فوقَ أجياد الملاحْ
ليلةُ العيد، أهذى ليلة؟ ... إنها ليلٌ إلى غير صباحْ
قد سقيناها فلم تعرف هدًى ... نَشوة الأيام راحٌ بعدَ راح
وإذا رُحتُ على أنغامها ... ذهبَ الهمُّ بعيداً ثم طاح
سكِرَ الشعرُ فغنَّى وشدا ... وبأسرار الهوى المكنون باح
ما لقلبٍ غير قلبى نشوةٌ ... إنه يسكر بالماء القَراح
الرحيقُ الصرف فى روحى وفى ... خاطرى، والسكرُ بالروح مباح
لا تَسَلْنِى عن تباريح الهوى ... إنها فى القلب والروح جراح
آهُ من قلب تعالت ناره ... فاشتوى المضمور منه ثم فاح
كان ظنى، والأمانى ضَلَّةٌ ... أن حبى للمليحات مزاح
إن يكن حبى مزاحًا فاسألوا ... عن غريب السر فى هذا المزاح

***

سبتمبر سنة ١٩٤٦

قصيدة مصر الجديدة

« حدثت الأستاذ الزيات أنى سأنشر قصيدة أتحدى بها جميع الشعراء، وأقول إن هذا الزهو لم يخطر فى البال وأنا أنظم هذا القصيد، فقد أوحته روحانية لا تسيطر على النفس إلا فى أندر الأحايين، فجاء كما يراه أقباسا من الأشواق العواصف بالقلب والوجدان.

وفتنة الشاعر بشعره مرض عرفته جميع الأجيال، فليس من الغريب أن أقول إنى مفتون بهذا القصيد، وأن أزعم أنى قبسته من جمر الوجود.

أنا أكره أن تبيت قلوب وعيون بلا قرار ولا منام، فكيف جاز أن أزلزل قلوبا وأؤرق عيونا بهذا القصيد؟

كان ذلك لأنى أريد أن يعرف أبناء هذا الجيل حقوق الشعر البليغ، وأن يفهم قوم أن الكاتب الذى يعرفون هو الشاعر الذى يجهلون، إن كان فيهم مَن لم يقرأ قصيدة الإسكندرية أو قصيدة بغداد».

تناسيتُكم عمداً كأنى سلوتكم ... وبعض التناسى العمد من صور الود

إذا اشتدَّ إظلام العقوق تبلجتْ ... مآثرُ تذكى نار معروفكم عندى

أمثلىَ ينسى؟ آه مما اجترحتمُ ... على الهائم الحيران فى حَوْمة الوِرد

أَإنْ خفتُ عذّالى فأخفيت لوعتى ... تظنوننى صبًا أفاق من الوجدِ؟

غرامى بكم لم يُبقِ قلبًا بلا جوًى ... وحبى لكم لم يُبق عينًا بلا سُهدِ

خلعتُ عليكم من هُيامى وصبوتى ... غلائلَ لم تُخلع على ساكنى الخُلد

***

مضى ما مضى، هل يُرجعُ الدهرُ ما مضى؟
وهل تتقون الحبَّ أو سالف العهدِ؟

معاهد فى «مصرَ الجديدة» أصبحتْ
رسومًا من الأشجان أحرسها وحدى

أنسرى معًا فيها كما كان عهدنا
وعهدُ الهوى أشهى مَذاقًا من الشهد؟

أنقرأُها حرفًا فحرفًا كأنها
رسائلُ من ليلى المريضة أو هند؟

تعالَوا نُعِدْ ليلاتِها الغُرَّ حِسبةً
لحبٍّ قبضتمْ روحه وهو فى المهد

تعالوْا تعالوْا قبل أن يُمْسِيَ الهوى
تواريخ لا تُغنى المحبَّ ولا تُجدى

تعالوْا... فلن ألقى سَنًا مثلَ نوركم
ولن تستطيبوا جَنةَ الحبِّ من بَعدى!

تعالوْا... ففى «مصر الجديدة» ما بها
من النَّرجس النعسان والفلِّ والوَرد

مَثابةُ أحلامى، ومَهوَى مآربى
ومَنسكُ روحى فى الملامة والحمد

إذا جُلت فيها جولَة الفتكِ أسلمت
مفاتحها فيما تسرُّ وما تبدى

وإن غبت عنها بعضَ ليلٍ تلفتتْ
تُسائل عن سرِّ القطيعة والصد

شوارعها عند الأصيل مَشارعٌ
لكلِّ محبٍّ من حبيبٍ على وعِد

وأنفاسها بالليل كالمسكِ نفحةً
وظلماؤها كالخال فى صفحة الخد

فلا تذكروا نجداً أو الخيفَ بعدها
تسامتْ مغانيها عن الخيف أو نجد

ولا تطلبوا نِداً لها فى جمالها
فما لِجمال الشمس فى الكون من ندِّ

أباريس أو برلينُ تحوى فُتُونَها
إذا ازدهرتْ بالحسن كالكوكب السعدِ؟

أفى لَنْدَنٍ شِبهٌ لها فى صِيالها
إذ صُفَّتِ الأرواح جنداً إلى جند؟

تجمَّعَ فيها المُحسن من كلِّ أمةٍ
كبغدادَ بين العُرب والفُرس والكرد

ورفَّتْ بها الأنفاسُ شتَّى غرائبًا
من الورد والريحان والضال والرَّند

هديرُ الأمانى فى الفؤاد هديُرها
إذا جدَّ جدُّ «السَّبق» بالركض والشدِّ(١)

وروَّادها فى الصبح والعصر زادُهم
إذا ما استضافوها فنونٌ من الوجد

تَشابه فيها الليل والصبح فاعجبوا
لصحراء أضحت وهى من جنة الخلْد

يجسَّد نور البدر فيها مُفضَّضًا
فتحسبه دراً يساقَطُ من عِقد

بكل مكانٍ أو بكل ثنيةٍ
بأرجائها سحرٌ ينار بلا عمد

وما بدرها بدر السموات وحده
ففيها بُدووٌ قد تجلُّ عن العدِّ

خذوا وصفها عنى فلى فى ضميرها
مكان الضريم الحر يكتنُّ فى الزَّند

ولا عيب فيها غير أنَّ نسميها
يزيد سعيرَ القلب وَقْداً إلى وقْد

يُحدُّ شعورى بالوجود فأهتدى
أحدُّ سماعا من قوى آلة الرَّصد

أسجل فيها ما أشاء من المُنى
ومن خطرات الروح للشاعر الفرْد

وأنقل عنها فى ضُحاها وفجرها
أفانين أشتاتًا من الهزل والجِدِّ

إذا اجتمع السُّمار فيها رأيتهم
ملائك توصى بالوثيق من العَقد

وإن طَـربـوا لـيلاً ولـلـقـلـب حـقـهُ
حسبتـهم جـنًـا أُقبلـوا من الـقِـدَّ

هُـيامى بـهـا لم يُبق لـلعقل من شدًى
بِلألائه فى غـمـرة الـوجـد أستهـدى

مـديـنـة من هـذى؟ مـديـنـة سـاحـرٍ
يرى طيبـهـا الـنًـفـاح أذكى من الـنًـدِ

مـديـنـة من هـذى؟ مـديـنـة نـاسـك
يُسـر من الإيمانِ أضعاف مـا يـبـدى

أرى الـلـه فى «مـصـرَ الجـديـدة» كـلـمـا
رأيت بـهـا الأزهـار تـنـظم فى عِقْـد (١)

أرى الـلـه فـيـهـا مـا أردتُ ومن يـعـشْ
كعيشى بها يقرُب من الـصَّمَد الـفـرد

حُـلـولـيَّـةٌ تـزدار قـلـبى وخـاطـرى
فيحيا بها عقلى ويقوى بهـا عَقدى

أكـان الحـلـولـيـون يـرأون مـا أرى
من الحسن فى قرب من الـلـه أو بُعد؟

أمـرُ زمـان فـيـه «مـصـرُ جـديـدة»
بـهـا فـارس يـأوى إلى فـرس نـهـدِ

أحبُكِ يـا مـصـرَ الجـديـدة فـاسـمـعى
نشيدى، ولا تـصغى إلى شاعر بعدى

***

تـعـالـوا تـروا قـلـبى عـلى مـا عـهـدتُمُ
وفـاءً إلى غـدر وصـفـحًـا إلى حـقـد

أنـا الـعـيـلـم الـعـجَّـاج بـالـرفق والأذى
أضل أحـبـائى إذا شـئـتُ أو أهـدى

بـقـايـا من الـرُّوح المُـريـد تـعـودنى
فـأرتدُّ صبًـا جـائـر الـراى والـقـصـد

أحـبـكُمُ؟ مـاذا أقـول؟ لـقـد صَـحَـا
فؤادى وأبـصـرتُ الـطـريق إلى الـرُّشْـد

عـواطف جَـالـت فى ضلال كـأنـهـا
بـوارق فى جُـنـح من الـلـيـل مـسـوَدِّ

عـشـقـتـكم؟ قـد كـان ذلك وانـطـوت
صحائف خطتها يد العـبث المُردى

فلا تـذكـروا عـهـدى بـسـخـط ولا رضًـا
تناسيت أو أُنسيت مـا كـان من عهدى

أضـالـيـل أُزجـيـهـا لـنـفـسى عُلالـةً
عسـانىَ أُطفى مـا تـضـرَّم من وجـدى

وكـيـف الـتـنـاسى كيف؟ مـا أكذبَ المُنى
إذا حـدثـتـنى بـالخلاص من الـقـيـد

أُحـبـكـمُ حـبًـا أحـرَّ من الـوغى
تـؤجج فى سـهـل إلى المـوت ممـتـد

أُحـبـكمُ طـوعًـا وكـرهًـا وإنـنى
لأخشى الـذى تـخـشـون من ذلك الإدِّ

بـرغم الـذى ألـقـاه من جور حـكـمـكم
الـوذ بـكم عـنـد الخـصـام وأسـتـعـدى

ملاعب من لـهـو أثـيـم تـمـردَّتْ
فـأمـست كـأقـسى مـا يـكـون من الجـد

أرونىَ بـابًـا لـلـنـجـاة أروده
فقد ضقت ذرعًا بـالـضلالـة فى الـرَّوْد

وكـيـف نجاتى كـيف؟ هـيـهـات فـالـذى
سقيتم به روحى سيسرع في هدًى!

دعـانى الـهـوى، مـاذا أراد بىَ الـهـوى؟
لـقـد حـدَّ من عزمى وقـد فلَّ من حـدى

إذا رُمت أسـبـاب المـتـاب تـعـرضـت
نـسـائم ريـاكم فـأقـلـعـت عن هَـوْدى

ألـنـتم نـسـيـتم كـيـف كـنـا ولم نَـدَع
مـآربَ من قـبـل تـراد ولا بَـعـد؟

غرامى بـكم كـان الـغـرامَ، ومـحـنـتى
بكم صيرتـنى فى الأسى أُمةً وحـدى

سلوا الليل فى مصرَ الجديدة هل رأى
على عهده بالحب أصدق من عهدى؟

وهل أبصر البدر المنير بأرضها ... أصحَّ أديمًا من ضلالى ومن رشدى؟

وهل عرفت ظلماؤها فى سهوبها ... أحب إليها من هيامى ومن سهدى؟

لقد كنت ألقاها وللشمس مَيْلة ... إلى الغرب تستهدى النعاس وتستجدى

فأملأها وحيًا وشعرًا وصَبْوة ... إلى أن تفيق الشمس من نومة الخود

أتلك ليالٍ لا تعود ولم أزل ... بحمد الهوى فى صولة الأسد الوَرد

جهلتم إذا كنتم تظنون مهجتى ... ستَجْنَحُ يومًا للسلام وللبَرْد

هواىَ هو الجمر الذى تعرفونه ... وللجمر سلطان على الحجر الصَّلْد

سأرزأكم بالهجر والصد فارقبوا ... بَلايا تُغَاديكم من الهجر والصدّ

أكان غرامى غركم فظننتمُ ... بأنْ ليس للإسراف فى الحب من حد

هو القول ما قلتم فإن صبابتى ... ستبلغ ما لا يبلغ الجمر من وَقْد

سنون تقضت فى اضطرام وحبُّنا ... يصاوَل بالعذْل المحمَّل بالنَّأد [1]

فهل أفلحَ العذَّال يومًا وفيهمُ ... وفيُّون يؤذيهم خيالىَ فى سهدى

مساوئكم تبدو لقلبى محاسنًا ... فواتنَ تُجزَى بالثناء وبالحمد

فمن أىِّ وادٍ للفُتون تفجَّرتْ ... ينابيع هذا الحسن مرهوبة الوِردِ؟

أمرُّ بها ظمآن والجوُّ قائظ ... فأسمع همسًا من وعيد ومن وعد

تلوّح بالإشفاق عينٌ مريبةٌ ... لها ما لهذا الدهر من خاتل الكيد

وهل يعرف الحيران ضل طريقه ... بنحس رمى التلويح بالرفق أم سعد

أرى بيتكم منى قريبًا وتارة ... أراه وأدنى منه أبنية السَّند!

على قدر ما نلقى من الوصل والجفا ... يقدَّر ما نلقى من القرب والبعد

أذلك بيت أم كِناس [2] يهابه ... ويرهب غزلانًا به أفتك الأسد

فأيان؟ أيان السلامة منكمُ ... وليس لطغيان الملاحة من صد

أعوذ بربِّ الجنِّ منكم وإننى ... لأعلم أنْ لا عوذ من سَورة الوجد

شفى وكفى أنى مُحِبٌّ مُحسَّدٌ ... يساق إليه الإفك فى صورة النقد

قضى حبكم أن أجرع اللوم طائعًا ... وأن أحسب التهيام فنًا من المجد

إذ صرت فى غى الهوى ورشاده ... إمامًا فقد تمت أياديكمُ عندى

***

أجيبوا: أكان الحب حلمًا تبددتْ ... أشعته عند الإفاق من الرُّقد؟

أكان صفاكم لمحةً جاد بارقٌ ... بلألائها فى الليل يُفجَع بالرعد؟

سأنساكُم يومًا وللقلب رجعةٌ ... على جهله للراجحات من الجد

سأنسى هُيامى! ثم أنسى غوايتى ... وكلٌّ ضرم فى الرغام خمد!

---

(١) النأد: الحسد

(٢) الكناس: بيت الغزال

أجيبوا فلى رأيٌ يقرُّ إلى مدًى   قرار الجراز الغضب فى سُوف الغمد

أأنتم رضيتم أن تصير حياتنا   أفانين من نسك يكفن فى زهد؟

لكم ما أردتم، فاذهبوا ثمتَ اذهبوا   إلى الوهد من وادى الخمور أو النجد

ولِى ما أراد الحبُّ حاكم   نرى جُورَه فينا أبَر من القصد

بلادةُ أقوام تُعَدُّ رزانةً   بكل زمان عن هدى الحب مرتد

جمال التماثيل الحسان جمالكم   وليس لغارات التماثيل من رفد

فحتامَ حتامَ الوفاءُ لصبوةٍ   رددتم إليها توالها أقبح المر

***

أحباىَ ضاقت بى بلادى وآدنى   زمانى فأولانى من الكرب ما يُردى

إذا قلت أيام الشقاء إلى مدًى   تعاقبنَ بالأنواء والبرق والرعد

وإن ظمئتْ روحى إلى الصفو صدَّنى   عن الصفو أقوامٌ جُبلنَ على الحقد

ثلاثون عامًا أو تزيد قضيتها   جوادًا ببذل الروح للوطن الفرد

فما نلت حظًا من جَداه سوى الذى   يَمنٌّ به أهل الوشاية والكيد

أمن أجل هذا عشت ما عشت صابرا   على وثبات العزم فى الزمن الجعد؟

بلادى بلادى، أنت ما أنت؟ إننى   أجرَّع فيك الصاب ينُعَت بالشهد

أأنت بلادى أنت؟ صدَّقتُ، فاصدُقى   وعودك يومًا للفتى الصادق الوعد

تسابقنى فيك الأمانى خوادعًا   كواذبَ لا تورى بحل ولا عقد

أُساهر فى ليلى كتابى ولا أرى   لنفسىَ حظ الساهرين على النرد

فماذا دها الدنيا وماذا أصابها   أسفْت فأمست وهى فى خسة القرد

إلى مَن أسوق الشكوَ والدهرُ ما أرى   تماثلَ فيه شامخ القُور بالوهد

إلى الوطن الجانى شكوت كما شكا   لديغٌ إلى الصم المؤرِّقة الربْد

أمثلىَ يؤذَى بالعقوق ولم يكن   له غير حفظ العهد فى الحب من وكد؟

بلادى، وما هانت على مواطن   أبى كان منها فى الذؤابة أو جدى

أيشقى الثرى بالماء حتى يعودَه   أطباء علامون بالجزر والمدّ

وأظمأ وحدى فيك والنيل ثائرٌ   يزور الجسورَ الشُمَّ بالمزق والقدّ

بلادى، أمِن جرم جنيت تحولت   حياتى إلى وجهٍ من العيش مرمدّ

لئن كان لى ذنب فذاك تولُّهى   بشرح الذى زُوِّدتِ فى الدهر من مجد

ستمضى الليالى ثم تمضى ولا يرىَ   جمالك أقوى من غرامى ولا وجدى

بلادى، أكان الحب نوراً تطاولت   عليه غيوم من عقوق ومن جحد

توحدت مقهوراً فما لىَ إخوةٌ   ولا صحبة يقوى برفقتهم زندى

توحدت لا خلٌ أبثُّ شكايتى   إليه ولا حِبٌّ يؤرقه سهدى

إذا آدنى الدهر اللئيم بجفوة   تحوَّل أهلوه إلى عصبة لُدّ

توحدت؟ لا، فلاأسد يؤنسها الأسى ... بوحشتها فى ظلمة الكثُب الجُرْدِ
ليصنع زمانى ما أراد فلن يرى ... سوى ساعد يلقاه بالبأسِ مستدَ
بنانى الذى يبنى الجبال شواهقًا ... وليس لحصنٍ شاده الله من هدَ
فما بال أقوام تهاوتْ حلومهم ... يعادون بنَّاء الجبال بلا عِند [1]
يُعدُّون أجنادًا لحربى بواسلاً ... وقد جهلوا أنى سألقاهمُ وحدى
إذا اعتز بالله القدير مُجاهدٌ ... أذل ألوف الظالمين من الجند

***

أحباىِ فى «مصر الجديدة» ما الذى ... دعاكم إلى تكدير ذيَّاكم الورد
به جاد دهرٌ لا يجود فكنتمُ ... أضنَّ من الدهر المبخَّل بالرِّفد
سقاكم فرواكم غرامى ولم أجد ... على عثرات الدهر والوجد مَن يُعدى
تمرُّ ليالٍ أو أسابيع لا أرى ... على شغفى إلا مواعيدَ لا تُجدى
عذرتُ أحباىَ الذين تصدُّهم ... فيافٍ سحيقاتٌ عن البر بالوعد
عذرت الأُلى بالكَرْخ شطت ديارهم ... فليس لهم عن عصمة الصبر من بُدّ
فما صبركم أنتم وبينى وبينكم ... خُطًى هيناتٌ قد يقدَّرن بالعد
إذا صلصل الهتَّاف أصبحت عندكم ... وإن وسوس الهتاف أمسيتمُ عندى
بخمسة أرقام تدار أراكمُ ... وتراوننى، أهونْ بذلك من جهد
تعالوا، ولا تُصغوا لأقوال ناصح ... يسوق الكلام الحرَّ عن خاطرِ عبد
نصيحةُ بعض الناس غشٌّ مقنَّع ... وإشفاق بعض الناس ضرب من الحقد
عرفت زمانى فى بنيه ومن يُقمْ ... بمسبَغةٍ يسبقْ فلاسفة الهند
أنسمع لغو الحاقدين ولا نعى ... هدير حميَّا الحسن ينصح بالوجد؟
هو الحسن فليأمر بما شاء ولتكن ... مشيئته، إنا له أطوع الجند
سمعنا، ومن يهتف به الحسن يستمع ... ألا إنَّ همس الحسن لحنٌ من الخلد
تعالواْ فأوقات الصفاء ذواهبٌ ... وليس لوقتٍ قد أضعناه من ردّ
تعالوا سراعًا، لا تقولوا: إلى غدٍ ... غدٌ عند صدق الشوق دهرٌ من البعد
وإلا ففى «مصرَ الجديدة» أنجمٌ ... زواهر ترجو أن يكون لها ودّى
أبغدادُ فى عهد الرشيد تأرَّجتْ ... بأطيبَ من أنفاسها وهى فى عهدى

أغسطس سنة ١٩٤٢

---
(١) بلا عند: بلا رأى

بين الحب والمجد

لم تُنسِنى فتنةُ الدنيا وزينتُها ... ما فى شمائلك الغرّاء من فِتنِ
أطوفُ بالحسن تصبينى بدائعهُ ... كما يطوف معنًى القلب بالدّمن
فلا تُثير مغانيهِ ونَضْرتهُ ... فى ظل ذكراك غير الهم والحَزَنِ
آمنتُ بالحب لولا أنت ما جَمَحتْ ... منى الضلوعُ إلى أهلٍ ولا وطنِ

***

يا مَن تحيَّرتُ لا أدرى أيُسعدنى ... غرامهُ أم هواهُ مِحنةُ المحنِ؟
ما ضرَّ لو نَعِمَتْ عَيناىَ أو شقيتْ ... قبل الفراق بمرأى وجهك الحسن
لولا مثالك فى باريسَ ألمحهُ ... فى طلعة البدر أو فى نضْرةِ الفَنَنِ
ما صافح النومُ أجفانى ولا احتملتْ ... جوانحى ما أثار البينُ من شَجَنِ

جنَتْ علىَّ الليالى غير ظالمةٍ ... أنى لأهلٌ لما القاهُ من زَمنى
فما رأيت من الأخطار عاديةً ... إلا بنيتُ على أجوازها سَكَنى
ولا لمحتُ من الآمالِ بارقةً ... إلا تقحّمتُ ما تجتاز من قُنَنِ
أحلتُ دنياى معنىً لا قرارَ لهُ ... فى ذمة المجد ما شرّدتُ من وسن

***

باريس فى ١٣ يونيو سنة ١٩٢٧

ثورة الوجد

نسيتم العهدَ واسترحتم من لوعة الحافظ الأمين
فليت ما راضكم فنمتم أراح بعد النوى جُفونى
وليتنى إذ يئستُ منكم كبحتُ فى غُربتى شجونى

***

ولّى خداعُ المنى وقَرتْ مطامحُ الواجِد الحزينِ
فما بكائى على حبيبٍ لم تُقضَ فى حبه ديُونى
ألقيتُ بالنفس من هواه فى لجةِ السحرِ والفُتون
وقلت أرتادُ من صباهُ ملاعب الطيش والجنون
فما تذوّقت من جَناهُ إلا صدى النوح والأنين

***

يا روعةَ البدر فى سماه وفتنةَ الزهر فى الغَصونِ
تناسَ ما شئتَ سوف تخبو حرارةُ الدمع فى الشؤون
وسوف تبلَى على الليالى غرائبُ السحرِ فى العيون
استغفر الحب سوف يبقى على صروف الأسى حنينى

***

باريس فى ٣ يوليو سنة ١٩٢٧

صورة شعرية

أقــريـبٌ أنْتَ مـــنى أم بـــعــيــدْ ... أيـهـا الجـائـدُ بـالحب الـسـعـيـدْ
أنت يـا يـــومُ إذا أقـــبــلـتَ عـيــدْ ... يُـقْـبل الـقـلـب عـلـيه من جـديـد

***

ظـمِـئـتْ روحى إلى وِرد صَـفــاكْ ... ظـمـئت عـيـنى إلى نـور سـنـاكْ
فـاقـتـربْ، أسـرعْ فـقـد طـال نـواك ... واسـتـطـار الـقـلبُ حـبًا فى لـقـاك

***

يـا غـرامى إنه يـومُ الخـمـيسْ ... وهـو فى أيـامـنـا الـبيض عـروسْ
تـتـجـلَّى فى بُـدورٍ وشـمـوس ... وأزاهـيـرَ من الـروح الأنـيـس

***

إن تَـغـب عـنى فـهـذى صـورتُكْ ... تُـؤنس الـروح وهـذى طـلـعـتك
مـحـنـتى إن غـبت عـنى مـحـنـتُكْ ... وشـقـائى بـالـتـجـافى شِـقـوتك

***

انـظـرُ الـصـورة أسـتـهـدِى رضـاكْ ... عن فـؤاد يـتـنـزَّى من جـفـاك
وأُنـاجى طـيـفك الـثـاوى هـنـاك ... فـكـأنى حـين أراه أراكْ

***

والخطابُ الـعـذبُ، مـا هـذا الخـطاب؟ ... إنه الـلـوعـة والـوجـد المـذابْ
كل سـطـرٍ فـيـه صـدرٌ من كَـعَـابْ ... أمـرُه فى فـتـنـة الـصب مـجـاب

***

نحن فى «يـولـيـو» وأحلام الـتـصـابى ... واعـداتٌ بـنـعـيـمى وعـذابى
إن تـكن أنت عـلى الـشـوق ثـوابى ... كـان بـذلُ الـروح فى الحب جـوابى

هـذه الأشـجـارُ فى هـذى الحـديـقهْ | اصـبـحـتْ من صـدّك الجـانى حـريـقهْ
إن تَـعُـد عـادت من الـوصل وَريـقه | تُـونق الـعـين بـأزهـارٍ انـيـقهْ
لـيت ايـامك يـا بـدرُ تـعـودْ | إنـهـا ايـامُ انسٍ وسُـعـودْ
كلُّ مـا فـيـهـا جـديـدٌ فى جـديـد | وشـرودٌ فى الـتـصـابى وشُـرودْ

***

نـقـطع الـلـيل عـتـابًـا فى عـتـابْ | هـو احـلَى من أفـاويق الـرُّضـابْ
ولِـقـلـبَـيْـنـا سـؤالٌ وجـوابْ | لا تَـقُل إنَّـا مع الـعَـتْب غِـضـابْ

***

هـذه الـدنـيـا ومـا تحـوى هَـبـاءْ | إن خَـلَتْ من صـفـو أيـام الـصـفـاءْ
انت مَن أهـوى وإن طـال الجـفـاء | كـلُّـنـا يـا روحُ فى الـوجـد سـواءْ

***

يـا جـمـالاً هـو آيـاتُ الجـمـالْ | إن هـجـراً أنت تَـعـنـيه وصـالْ
إن إسـرافك فى الـهـجـر دلالْ | وهـو فى شَـرعـيَّـة الحب حلالْ

***

مَـرَّت الـسـاعـات والـروح الـنـبـيلْ | يَـرقُب الـنـور من الـروح الجـمـيلْ
لا تَـقل إن انـتـظـارى سـيـطـولْ | انـا من خُـلـفك لـلـوعـد عـلـيلْ

***

انـا فى دنـيـاىَ بـالـوجـد غـريبْ | مـا له فى هـذه الـدنـيـا قـريبْ
كلُّ أيـامـى كـروبٌ فى كـروبْ | وأعـاصـيـرٌ من الـقـلب الـطـروبْ

***

عـائـدٌ أنتَ لـرمل اسـكـنـدريهْ | بـأزاهـيـرَ من الحـسـن جَـنِـيَّهْ
واغـاريـدَ من الـوجـد شـجـيَّهْ | حـين يـطـغى المـوج فى وقت الـعـشـيَّه

***

هـنـاك نـسـتـقـبل الأحلام صـاخـبـةً
كـالـبـحـر يـضـرب امـواجًـا بـأمـواجٍ

* يقول الشاعر زكى مبارك :

(من لم يزر الإسكندرية فليس من حقه أن يزعم أنه عاش لحظة من زمان).

حلم اللقاء

غداً سوف ألقَى من حياتى نعيمَها
وأمرحُ فى روض الهوى وأجولُ

واقتل أحزانى وأحيى بشاشتى
ويَسمع منى فاتنى فأقول

الا إن نجوى الحب بينى وبينه
وقد غاب عنا كاشحٌ وعذول

رياضٌ من اللذات يهفو نسيمها
فيحيا به المشتاق وهو قتيل

غداً سوف يبدو لى النعيم بأسره
أقلّ من المنشودِ وهو جَليل

تُساورنى الأوهام فى كل لحظةِ
أميلُ بها خفاقةٍ وتميل

حِذَارِ غدٍ، أخشى من الخُلْف فى غد
فإن الذى أرجو نَداه بخيل

ثلاثون وعدا قد مَضينَ كواذبًا
فلم يُشْفَ منها للفؤاد غليل

أوَعْدُ غدٍ يا قلبُ يَصدُق؟ ليتهُ
ليبرؤَ من داء الجفاء عليل

أُمنّى فؤادى بالأحاديث فى غدِ
إذا ضمنا عند السّرار مَقيل

غدٌ، اين منى فى الغرام صباحُهُ
فإن انتظارى شمسه سيطول

سأقطَع ليلى بالأمانى أديرها
اقول لها ما اشتهى وتقول

سأبدع فى تصوير أحلامنا غداً
ونحن بفردوس الوصال حُلول

غداً سوف أقضى إن بقيت إلى غد
ديون فؤادٍ حملهن ثقيل

سأوقد نيران المعانى يَشبها
جوًى فى ثنيات الفؤاد دخيل

الا ليت حظى من غد أننى غداً
أميل مع الأهواء حيث تميل

فأجهل مرات وأحلم مرةً
وأزار من وجدى غداً واصول

تقول الأمانى إن ميعادنا غدٌ
وبعض الأمانى الواعدات مَطول

إلى الله أشكو وَقْدة الحزن فى غدٍ
إذا ضاع ميعادٌ وخان خليل

***

ويقضى الشاعر الليل ساهرًا فى انتظار صباح الأحد، فقد كانت له صولات فى أيام الآحاد يوم كان طالبًا فى جامعة باريس، قضى الليل فى معانقة كتاب: الآحاد الجميلة.

وهو كتاب له فى قلبه مكان، فقد كان هدية من إحدى زميلاته بالسوربون ومن المحتمل أن تكون هذه النسخة التى تحتويها مكتبته هى النسخة الوحيدة فى المكتبات المصرية.

طلعت الشمس، وجاء الضحى، وجاء الظهر، ولم يحضر المحبوب. وعند العصر حضر الهوى ليقيم لحظتين اثنتين.

- ما هذه الكروب التى تقاتل روحك يا روحى؟

- إن قلبى يحدثنى بأنك لست لى وحدى، فأخبار غرامياتك منشورة فى كل مكان.

- احترسى أيتها الروح من عاقبة هذا الارتياب فى غرامى.

- العاقبة معروفة وهى أن تهجونى بقصيدة، وسأشكر فضلك فى هجائك فنحن فى أمثالنا نقول «ضرب الحبيب» مِثل أكل الزبيب».

ومع هذا يصفح الشاعر عن هواه فيقول:

مضى الأمسُ والدنيا ستمضى سريعةً ... فـلـيس لأيـام الحـيـاة بـقـاءُ
مـضى الأمس لم أعـرفك إلا روايـةً ... لـهـا من تـهـاويل الـريـاء طِلاءُ
أأنت حـبـيـبى أنتَ؟ طـالت شـكـايـتى ... وطـال غـرامٌ يـائسٌ وعَـنـاء
تـسافـر من حـلوانَ ظـهـراً لـكى تـرى ... الـيـفًـا له هـلـيـوبـولـيس ثَـوَاءُ
وتـمـكث عـنـدى لحظـتـين بـلـهـفـةٍ ... وتـمـضِى كـأن الـوصل مـنك هـواء
لـقـد ضـاع من حـظِّى رجـاءٌ عـقـدتـه ... عـلـيك ومـا فى الـنـاكـثـين رجـاء
إذا صَدَق الـروحُ الـصدوق حـديـثـهم ... اجـابـوا بـوعـد كـاذب وأسـاءوا
يـقـاتـلـنى فـيـكم فـؤادٌ مـعـذب ... به من هـواكم شـقـوةٌ وعـنـاء
إذا رضـتـه بـالـصبـر عـنـكم تـخـايـلت ... له من سـنـاكم أنجمٌ شـفـعـاء
بـكل لَـمـوح من صِـبـاكم بـوارقٌ ... فـصاحُ كـأقـبـاس الـصـبـاح وضاء
إذا قـلـت عَـينٌ كـالـعـيـون تـمـردتْ ... سـواحـرُ مـنـهـا أمـرُهنَّ قَـضَـاء
وإن قـلـت خـدٌ كـالـخـدود تـوهـجت ... بـخـديك فى لـيل الـوصـال ذُكَـاء
وإن جـال طـرفى فى ثـنـايـاك أشـرقت ... شـوارقُ يـعـلـوهـا سـنًـا وبَـهَـاء

أتَبْسِمُ لى وحدى؟ صدقت فما الذى
يكدِّر روحًا انت فيه صفاء
أغارُ. فقلبى لن يخون. وإنه
ليشهد أن الناس لى غُرَماء
جمالُكَ ردَّ القاهرين عُصبةً
من الشر، باءوا بالخسار وباءوا
إذا جئتَ من حُلوانَ تَنْشُد رؤيتى
تهاوتْ قلوبٌ واستطار بلاء
جمالك لى وحدى. وإنى لشاعرٌ
إذا قال حرفًا يسجد الشعراء
تكايدنى بالصد عمداً؟ عفا الهوى
عفا عنك... روحى للحبيب فداء
نفرتَ نُفورَ الظبى ضاع رشادهُ
وقد لاح صيَّادٌ وغام نَجَاءُ

***

ليلة سقم :

ولكن صفح الشاعر عن هواه، لم ينجه من جواه، فقضى الليل وهو عليل.

ليلةٌ بتُّها سقيمًا وقيذاً
خائف الروح من خيال المَنُونِ
بتُّ أَستنصِر الحياة بحبى
وأداوى جرائحى بشجونى
بتُّ أَستوهب السلام عليكم
من زمانٍ بكم شحيحٍ ضنين
أنا إن متُّ مات روحٌ مَصُوغٌ
من وفاءٍ ورحمةٍ ويقين
أنا أشفقت أن أموت لأنى
لا أحب البكا لتلك العيون
لا بكيتم علىَّ. لا كان يومٌ
تنطفى فيه ثورتى وجنونى
سوف أحيا لكم. ولله جُودٌ
صَمَدىٌّ يفوق كل الظنون
قال قومٌ والطبُّ طوع يديهم
إن برئى بالبَنْسَلينِ
وَسْوَسَ الطبُّ ما لقلبى دواءٌ
غير تهيامه بوادى الفتون

***

عند الصباح :

ولكن الشاعر لم يمته جواه، والحمد للّه والحب، فقال حين أصبح:

إنى أفقتُ أفقتُ
من كربتين نجوتُ
من ليلة الحب عُدْتُ
ومن لظاها سلمت
ومن تصاريف ليلٍ
بالداء يدجو نجوت
ما علتى؟ ما جواها؟
ما السرُّ فى أن مَرِضت
أكان ذاك لأنى
بعهدكم قد وفيت
لا تسألوا بعد عنى
إنى عن العشق صمت

عند المساء :

ولكن الشاعر، برغم صبره أو تصبره، تلفحه الحمى بالنار، فيقول:

هو الليلُ، ما لليل من صَبْوَةٍ بدُّ ولا لشجون الليل عن مهجتى رَدُّ
توهجت الحمَّى وثار شرارُها وفى أضلع المحموم من نارها وقْدُ
أصابرُها حينًا، وحينًا أصدُّها بعزمة مشبوب الفؤاد فتنصدُّ
تعجبتُ للحمَّى تزور جوانحى وليس لها عندى إذا وفدتْ وِردُ
أتأكل ناراً وهى نارٌ ولم تكن بأخطرَ منى حين تطغى وتشتدُّ
إلى مهدك المشئوم عودى ذميمةً فما لك فى بيتى على رُحبه مهد
أتُمسى ضلوعى طُعمةً لغريمةً طُفيلية يَضْرَى بها الأسد الوَرْدُ
وهل مات بالحمَّى الغَضَنْفَر مرة وفى كل يومٍ من لظاها له عهد
تَوقّدُ عينيه لهول أُوارها فَتنفر خوفًا من أذاه وترتد
خذى الدرس يا حمَّى خذيه وأقلعى ولا ترجعى، إنى إذا عُدتِ قد أعدُو
سأعدو، وللعدوان منى عواقبٌ يصاولها الحصن الأشمُّ فينهد

بعد النجاة :

عودوا إلى الوصل ثم عودوا وبالثغور العذابَ جودوا
لا تحسبونى نسيت وعداً كانت لكم قَبلَهُ وعود
لقد مضى العيد ما سألتم ولا بردَ الخطاب جُدتم
فى كل عيدٍ لنا ظباءٌ تجود بالعيد إن بخلتم
فما بكائى على غرامٍ قتلتموه بما جنيتم
لقد صددنا كما صددتم فهل ندمنا كما ندمتم
إنى إذا شئت كان حبٌ يفوق فى النار ما عهدتم
خلقتكم بالهوى فكنتم عذابَ قلبى إذا جفوتم
فكيف تُمسون إن صَحَوْنا من الهوى مثل ما صحوتم
إنى لأبكى لكم عليكم بالشعر والملهمون أنتم
لا تيأسوا قطُّ من فؤادٍ أنتم بأعماقه حللتم

***

ثورة قلب

مهداة إلى جمال الجمال

سلامٌ على مَن لا أسمّيه إننى ... سأطوى اسمَه عنى إلى آخر الدهر

سلامٌ أوَدّيه وفاءً لذاهبٍ ... كما أضعُ الزهرَ النضيرَ على القبر

أأنت تجافِى؟ أنتَ؟ تلك فجيعةٌ ... تفوق الذى ضيَّعتُ فى الحب من عمرى

سنونَ تقضَّت لاعباتٍ كأنها ... مرائى المنى بين المدامة والزهر

أأنت تجافى؟ آهِ من وَقْدة الجوى ... تُشَبُّ على الهجران جمراً إلى جمر

سأصبرُ، لكن كيف؟ ما كلُّ لوعةٍ ... يهوّنها الصبُّ المعذَّب بالصبر

أنحنُ تخاصمنا؟ لحا اللّه فتنةً ... تأنَّق فيها الدهرُ من حيثُ لا ندرى

أحاول نسيانَ الذى كان بيننا ... فينقلبُ النسيانُ ضربًا من الذُّكر

إذا زار طيفُ إسكندريةَ خاطرى ... تذكرتُ ما بينى وبينَك من أمر

تصرّم ذاك الصيفُ لم يَجْنِ صبوةً ... على شاطئ أمواجُه عُقَدُ السحر

جفاؤك رملَ اسكندريةَ ردَّنى ... إلى الزهد فى سحر العيون وفى الشعر

أحُلوانُكم، تُقصيك عنى لأننى ... أقيمُ بدارٍ دونها ثَبَجُ البحر

ليالى الهوى كانت تقودك طائعًا ... إلى الدار فى مِصرَ الجديدةِ للأسر

ليالى الهوى كانت وكانت فليتها ... على غولها ظلَّت جميعًا بلا فجر

مضى العيدُ لم أعرفه إلا رواية ... عن الناس ما عيدى وشكواى فى صدرى؟

أيجملُ عيدٌ أنت فيه مخاصمى ... مخاصمةَ العين الكحيلَة للبدر؟

أحبك إشفاقًا عليك، فإن تَخُنْ ... فقلبى إذا ما شئت أقسى من الصخر

إذا أنتَ لم تعرف جمال الذى مضى ... منَ الوصل فاحذر ما ستَنكرِ من هجرى

ستلقَى البواقى من لياليكَ باكيًا ... وحيداً إذا غاب طيفُك عن فكرى

صحوتُ وبعضُ الصحو موتٌ فليتنى ... ختمتُ حياتى فى غرامك بالسُّكر

صحا القلبُ؟ أين القلبُ إنى لخائفٌ ... فلم يبقَ لى قلبٌ يدبّر لى أمرى

صحونا معًا فاذهبْ إلى غير رجعةٍ ... وإن شئت فارجع آملَ الروح فى غَفْرى

جمُوعُ صباك لاغضّ أمرٌ حمدتُه ... وإن كان فى مرآه فنًّا من النُّكر

أنحنُ صحونا؟ لا تصدّق فبيننا ... مواثيقُ صغناها من الختل والغدر

مضيت شِمالاً.. هل ستعرف أننى ... سأمضى يمينًا كىْ أضمك بالقهر؟

يمينى يمينُ الفتك فاخضع وخلّنى ... أؤدبك يا روحًا يجور ولا يدرى

تراودُ أطيافٌ من الحسن خاطرى ... لتحتل ما ملّكت وحدك من صدرى

وإنى لأخشى أن يفوزوا ويظفروا ... إذا دام هذا الظلم بالصدّ والهجر

تعال احمِ قلبى من جيوشٍ مغيرةٍ ... مدرّعةٍ بالحسن واللطف والسحر

تعال اغشنى، أو فدَعْنى لكى أرى ... عواقبَ ما يرتاده الحب من أمرى

أباطيل يُزجيها خيالى دعابةً ... لروحى كما يُلقَى الهشيم على الجمر

وهزلُ الهوى جِدٌّ صُراحٌ فلا تكن ... بهزلك مِعوانًا علىَّ مع الدهر

أأسهر وحدى دامىَ القلب ثائراً ... وأنت من الإدلال بالحسن فى سكر

نعم، هذه الدنيا وهذا صنيعُها ... وقلبك كالدنيا مصوغٌ من الغدر

الم تَر انى كلما زرتُ داركم ... خلعتُ عليها حُلة النظر الشَّزْرْ

توقعتُ ما صرنا إليه ومن يجدْ ... كوجدى بكم تُرفَعْ له سُدَف السر

أرانى الهوى ما لا يرى الناس والهوى ... يروض مريديه على الفِقه فى الشر

كفرتُ بهذا الخلق كفراً مؤبَّداً ... وهل أبصرَ الإيمان أجمل من كفرى

ديسمبر سنة ١٩٤٤

يوم الثلاثاء

تذكر الشاعر وهو يتأهب لاعتلاء قطار أسيوط أن له موعدًا فى مساء ذلك اليوم؛ يوم الثلاثاء، فرجع إلى مصر الجديدة وهو يعانى ثورتين: ثورة الأسى على الحرمان من رؤية

أسافرُ فى يوم الثلاثاء؟ ليتنى ... سأعرف ما يومُ الثلاثاء يفعل

أعندك يا «باب الحديد» حَصانةٌ ... عليها إذا أخلفتُ وعدًا أعوّل

سأرجع يا باب الحديد وإننى ... لأ عرف من بلوايَ ما كنت أجهلُ

عزيزٌ على يوم الثلاثاء أن يرى ... غراميَ عن «مصر الجديدة» يرحل

أعود إليها، كيف؟ أسيوط قِبلتى ... إذا صَلْصَلَ الوجدُ العصوف المزلزِل

أعود إليها؟ هل أعود لكى أرى ... غرامًا له فى القلب والروح منزل

رجعتُ وأخلفت الوعود وللهوى ... أعاجيبُ تختان العقول وتُذهِل

رجعت إلى روح هو الروح إننى ... بنجواه أستاف الحياة وأجْذَل

رجعتُ إليه فالتقيت بفاتنٍ ... أصيل كضوء الشمس بل هو آصل

إذا ثغرهُ الوهّاج أرسل لمحةً ... أضاءت له دنيا بمرآه تَجْمُلُ

وإن بَغَمَتْ عن صوته العذب بغمةٌ ... فوسواسُ لحن الراح عن فيه ينقل

يناجى؟ يناغى؟ كيف أشرح إننى ... لأعجز عن تصويره حين يُقْبِلُ

ترشّفتُ خديه بوهمى فصدّنى ... أفى الوهم إثمٌ، أيها المتبتل؟

وخداك، ما خداك، والجمرُ صارخًا ... أخفُ حريقًا حين يطغَى وأمهل

وعيناك، ما عيناك، والسحر كله ... لعينيك عبدٌ خاضعٌ يتوسل

جبينٌ تمنّى البدر لو كان مثله ... يؤجج نيران الغرام ويُشعِلُ

وروحٌ كوحى الشعر يُقبِلِ مرةً ... وينفِرُ مراتٍ ويجفو فيقتل

تمرّ ليالٍ وهو غضبانُ باخل ... وتمضى ليالٍ وهو جذلانُ مُفْضِلُ
احاوره عند التلاقى بهيبةٍ ... وما كدت لولا هيبةُ الحسن أفعل
تبارك من أولى الجمال إمارةً ... يجور بها فى الحب حينًا ويَعْدِلُ
جمالٌ هو الصهباء يطغَى رحيقُها ... فتاسِرَ الباب الندامى وتعقل
أعاقرُ من خديه أكواب خمرةٍ ... هى الجمر معصوراً وأمضى واقتل
جمالٌ حديثُ الحب خير شرابه ... ويسكرهُ أنى به أتغزل
انادمهُ والكأس منه بعيدةٌ ... ففى روحه كأسٌ تصول وتجهل
ينافسه فى لوعتى وصبابتى ... ظباءٌ لها فى ساحة القلب منزل
ولكنه أنقى وأصفى سريرةً ... والطف من كل الملاح وانبل
به أصبحت حُلوان دار صبابة ... وللقلب فى كل الملاعب منزل
فهل كان من حلوان حين جعلته ... بأبراج حُلوانٍ يحل وينزل
أخاف عليه منه إن ثار غاضبًا ... يلوذ بأطياف العِتاب ويَعذِل
مضت حِجِجٌ بيضٌ ونحن أحبة ... وكلُّ غريمٍ عن غراميَ يسأل
فهل عرف الواشون أين مكانُه ... وقد غربوا فى الظن دهراً وشمألوا
يسائلنى عنه فؤادى وما دَرَى ... بأنى بأسرار الصبابة أبخل
فدَعْ يا فؤادى، دَعْ سؤالك إننى ... عن البَوْح محبوسٌ ومثلك يعقل
فلو سأل الله العليم كتمتهُ ... وانكرت أنى من هواه مُقَتَّل
كتمت عن الله احتراقى بحبه ... عفا الله عن صبَّ عن البوح ينكلُ

***

اقمنا معًا روحًا لروح بليلةٍ ... هى الخُلْد منضوراً واشهى واجمل
مضى الليلُ لم نعرف دُجاه ولم نَقُلْ ... تمهَّلْ قليلاً ايها المتعجّل
وهل كنت فى ليلٍ وأنوارُ وجههِ ... تراع بالشمس السّطوع فتأفُل
تشهّى طلوع الفجر والدهرُ هاجدٌ ... يطيب له أنّا عن الفجر نغفُل
وأزمع عند الصبح بينًا لرحلة ... إلى بلدٍ فيه لأهلِه منزل
فودّعته والقلب يرجو معاده ... الا إننى فى اليأس أرجو وآمل

***

رسائلُ؟ ما هذى الرسائل إننى ... اصافحها حينًا وحينًا اقبّل
حروفٌ كأنفاس الربيع سواحرٌ ... فواتنُ تسبى بالعبير وتخبل
حدائقُ من نور الجمال ونفحة ... من اللؤلؤ المنثور للصب تُبْذَل
قرأت الخطابين الكريمين مرة ... والفًا وآلافًا وإن كنت تجهل
قرأت الخطابين، قرأت، وإننى ... لدَى كل حرف أهتدى فأبسمل

أكـاد إذا واجـهـت خـطـك أمـتـطى ضلالى وأمـضى هـائـمًـا فـأرتّل
ارتل قـرآنًـا عن الـعـشق فـاتـنًـا ولـلـعـشق فى روحى كـتـابٌ مـنـزَّل
أخـطـك هـذا أم سـطـورٌ روائع من الوَشْم فى الجسم الجميل تسجَّل
سوادٌ سـوادُ الـقـلـب يـشـتـاق نـورَهُ وتـعـشـقـه عـين الـغـزال فـتـكـحل
اخـطـك هـذا؟ لا تـبـح سـروحـيه فعن مدمعى المسفوح يومًا ستُسأل
تـواعـدنى، لا وعـد إنى، لـيـائس كـلـوبـتـر بـالأحلام والـوصل تـبـخل
الا إن دارى فى «كـلـوبـتـر» جـنـة عليها بوحى الحب والسحر أنزل
هـجـرتك يـا دارى شـهـوراً طـويـلـة وإنى لمـظـلـوم عن الـظـلـم يـسـأل
أعـود؟ ولـكـن كـيـف، لا المال فـائض ولا الـدهـر عن حـرب المتـيـم يـغـفـل
تحاول دار اسـكـنـدريـة رجـعـتى إلـيـهـا، مـتى يـا دار؟ إنى لأجـهـل
غـرامٌ طـغى فـاجـتـاح روحى وردهـا أعـاصـيـر تـرمى بـالـسـعـيـر فـتـقـتل
دعا هـاتـفٌ بـالـصـلـح، إنى سمعته وفي «الـراد» أخـبـار تـصـاغ وتـصـقـل
أسلَـمت الـيـابـان؟ كـيـف أسـلَـمت فـأين إذن ذاك الـضـجـيـج المجلجل
ومـا حـبـهـم لـلـحـرب والـدهـر كـلـه عـلـيـهـم جـحـيـمٌ ثـائـر يـتـغـول
بلاد جلا عـنـهـا الأمـان فـأمـرُهـا إلي رحـمـة الأقـدار حـين تـزلـزل

***

أديب يعبد الحسن

حَـسِـبْـتُم هـذه الـدنـيـا تـضـيق بـرحـبـهـا عـنـا
فـصـرتم كـلـمـا جـئـنـا نَـفَـرتم جَـهْـرةً مـنـا
اسـأتم إذ تَـبـرَّمْـتم بـهـذا المـغـرم المـضْـنَى
وجُـرتُمْ حـين غَـيَّـرتم بـصـدق وَلائـه الـظـنـا
ولـو أنـصـفـتـمـو قـلـتم أديبٌ يـعـبـدُ الحـسـنـا

***

غرام يوم الثلاثاء

يـا لـيلْ، يـا لـيـلَى، يـالـيلْ

***

يـا سـاقىَ الـراحِ هـاتِ الـراحَ يـا سـاقى
من نــورِ خــديكَ أو من نــار اشــواقى
واشربْ رحيقَ الـهوى الـفضّاح يـا سـاقى
من نـظــرتى لكِ فى ســاعــات إشــراقى

***

يـا لـيلْ، يـا لـيـلَى، يـالـيلْ

***

مـضت أسـابـيعُ لا ألـقـاك يـا روحى
فـكـيف أنتَ رعـاك الحبُّ يـا روحى؟
مِـصرُ الجديـدةُ مـأوى حـبنـا الـروحى
فـارجعْ إلـيـهـا نَـعِشْ روحًـا إلى روحِ

***

يـا لـيلْ، يـا لـيـلَى، يـالـيلْ

***

أمـرٌ عـرفـنـاهُ أن الجـافىَ الـهـاجـرْ
قـد يَـغـتـدِى وهـو روحٌ جـاحـدٌ غـادرْ
الـصـبـر عـنى نـذيـرُ الـغـدرِ يـا هـاجـرْ
اعــوذ بــالحب وهــو المــالك الآمــرْ
من أنْ يـخـيب رجـائى فـيك يـا سـاحـرًيـا

***

يـــا لـــيلَ، يـــا لـــيـــلى، يـــا لـــيل

***

عـــهـــدُ الـــهـــوى الـــبِـــكـــر عـــهـــدُكْ
وطـــالـــعُ الـــســـعـــد وعـــدُك
متى أراكْ؟
ودارِي حِماكْ
أنا من نواكْ
مفطورُ الفؤادْ
يـــا لـــيلْ، يـــا لـــيـــلَى، يـــا لـــيل

***

عهدُ الـهوَى الـبكـر هل تـنساه يا هاجرْ؟
عـهدُ الـهوَى الـبكـر هل تـنساه يا غادرْ؟
عـهدُ الـهوَى الـبكـر هل تـنساه يا قاهرْ؟
يـا هـاجـرْ، يـا غـادرْ، يـا قـاهـرْ، يـا كـافـرْ

***

يـــا لـــيلْ، يـــا لـــيـــلَى، يـــا لـــيلْ

***

مـــصـــرُ الجـــديـــدةُ أيـــامَ الـــثـــلاثـــاءِ
كـــانـــت مـــلاعبَ أطـــرابـى وأهـــوائـى
يـــا فـــاطـــرَ الحبَّ فـى يـــوم الـــثـــلاثـــاءِ
مـــتـى يـــعـــود لـــنـــا يـــومُ الـــثـــلاثـــاءِ؟

***

يـــا لـــيلْ، يـــا لـــيـــلَى، يـــا لـــيلْ

***

لِـمن وفـاؤك بـعـدى أيـهـا الـغـادرْ؟
إن رُمتَ غـيـرى فـأنت الـغـانم الخـاسـرْ
حُـبِّى هـو الحبُّ وهـو الـغـالب الـقـاهـر
فـانـدُبْ نَـعـيـمَك بـعـدى ايـهـا الـغـادر

***

مصرُ الجديدةُ أيامَ الثلاثاءِ
تشكو اغترابىَ أيامَ الثلاثاءِ

***

شربتُ دمعى فلا كأسٌ ولا ساقى
مُضَى نديمى وخلاّنى لأشواقى
يا ساقىَ الراح هاتِ الدمعَ يا ساقى
دمعى هو الراح فاسقينيه يا ساقى
يا ساقىَ الدمع بعد الراح يا ساقى
دمعى دمٌ فترفّق أيها الساقى

***

آه، واه - آه، واه - آه، واه!!!

***

بَعد الغناء الحزينْ
وهذه الآهاتْ
وبعدَ لذع الحنينْ
وهذه الواهاتْ
يقول طيفُ الخيالْ
بلحن ذاك الغزالْ
ما هذه النارُ تذكيها بأشعارِكْ
لولا غِناؤكَ ما خُلّدتُ فى نارِكْ
إذن أُغنّى!
ماذا تغنّى؟
إنى اقولْ:
من أىَ سحرٍ خُلِقتَ
الزهرُ وحىُ دلالِكْ
والشعرُ وحىُ جمالِكْ
لا اظلمُ الأقدارْ
إن الهوى والنارْ
من بِدْعِ سِحركَ انتَ

***

تمضى اسابيعُ لا ألقاكَ، ما أسفى على حياةٍ بلا لُقياك ظلماءِ؟
تمضى اسابيعُ لا ألقاكَ، ما أملى من عيشةٍ أنت عنها باعِدٌ نائى؟

***

يقول هذا الليلْ
ماذا يقول الليلْ؟
يقول إنى أحبكْ
يقول إنى أحبكْ
يقول إنى أحبكْ

يا أجملَ الناس، أين الناسُ؟ قد تِعبتْ روحى من البحث عن مَعْناك فى الناسِ

يا قاتلاً بالوفاءْ
ماذا يريد الوفاءْ
إغْدِرْ، ودَعنى أعيشْ
قتلى حرامٌ عليكْ
إغْدِرْ، ودَعنى أعيشْ
قتلى حرامٌ عليكْ
مصرُ الجديدةُ أيام الثلاثاءِ
كانت ملاعبَ أوطارى وأهوائى
يا فاطرَ الحبَ فى يوم الثلاثاء
متى يعود لنا يوم الثلاثاء؟

***

إن الهوى والنارْ
من بِدْع سِحركَ أنتَ
كان الهوى بغدادْ
آوَاهُ من بغدادْ !
كان الهوى باريسْ !
آواه من باريس !
مصر الجديدةُ دارى

والحبُ فيها قراري
لا تنسَ يا غدارْ
جميلَ هذى الدارْ

***

فيها اهتصرتُك غُصنًا ناعمًا زَهِرًا كدوحةِ الوردِ فى ايام آذار

احنو عليكْ
ارنو إليكْ

حُلوانُ تُقصيك عنى وهى ظالمةٌ مِصرُ الجديدةُ تشكو بُعد حُلوانِ

***

مصرُ الجديدةُ انتَ
فَطَرتَها انتَ انتَ
بروعة الشعر أَمْلِكْ
وانت بالحسن تملك

الشعر للحسن عبدٌ فارحم إذا شئت عبدَكْ
الحسنُ بين يديكْ
إليك امرى إليكْ

يا شاعراً روحهُ نارٌ مؤجَجةٌ وشِعرهُ كالرحيق الصرْف وهَاجُ
إذن اغنّى !
ماذا تغنّى ؟
إنى اقول:

لروعة الشّعر عند الحسن منزلةٌ اقوى من الجاه والسلطان والمالِ

يا ليلْ، يا ليلَى، يا ليلْ

***

يا غرامَ الروح والروحُ فِداكْ
اين نجوى الحب فى عهد الصفاء؟

أحرق القلبَ شُواظٌ من نواكْ
بالهوى قل لى متى يوم اللقاءْ؟

اين يا روحُ ليالٍ سلفتْ وأغاريدُك يا صداح زادى؟
لا تقل تلك الليالى ذهبتْ جمرُها المشبوبُ باقٍ فى فؤادى

آه، واه - آه، واه - آه، واه!!!
لم يدننى من أريدْ
فى الحب مما أريد
ماذا تريد؟ ماذا تريد؟

أريد قتل همومى فى منابتها بجائحاتٍ من الصهباء هوجاءِ

الكأس بين يديكْ
الكأس فى شفتيكْ
هات اسقنى هاتْ
هات اسقنى هاتْ

أسقيك إن شئتَ أكواب الثلاثاءِ يا فاطرَ الشّعر فى يوم الثلاثاءِ *

ديسمبر سنة ١٩٤٤

---

* كان الموسيقار محمد عبد الوهاب سيغني هذه القصيدة لكنه اعترض على هذه الزفرة المحرقة كما قال: يا ليل يا ليلى يا ليل
وطلب تركها عند الغناء ورفض زكى مبارك وقال إنه يهتف بها عند كل فاصلة...

ساعة حب

غناها بمحطة الإذاعة المصرية الموسيقار عبد العزيز محمود

يَا مَلِيكَ الحُسْنِ عَزَّتْ دَوْلَتُكْ ... وَرَعَتْ آلِهَةُ الحُبِّ صِبَاكْ
شِرْعَةُ الإِسْعَادِ فِينَا شِرْعَتُكْ ... وَهُدَى الإِشْفَاقِ وَالعَطْفِ هُدَاكْ

***

أَنْتَ أَنْقَذْتَ فُؤَادِي مِنْ جَوَاهْ ... وَسَقَيْتَ الرُّوحَ أَكْوَابَ الصَّفَاءْ
آنَ أَنْ يَنْسَى فُؤَادِي مَا شَجَاهْ ... نَسَخَ الإِقْبَالُ أَيَّامَ الشَّقَاءْ

***

سَاعَةٌ مَرَّتْ وَفِي القَلْبِ هَوَاكْ ... سَاحِرَ النَّغْمَةِ خَفَّاقَ الجَنَاحْ
يَرْشُفُ اللَّثْمَةَ مِنْ كَأْسِ لَمَاكْ ... فِي ظِلَالِ الأُنْسِ وَالصَّفْوِ المُتَاحْ

***

سَكَبَتْ نَجْوَاكَ فِي الرُّوحِ الأَمَانْ ... وَأَرَانِي الوَصْلُ أَسْرَارَ جَمَالِكْ
فَتَمَثَّلْتُ فَرَادِيسَ الجِنَانْ ... وَرَأَيْتُ الخُلْدَ مَنْضُورَ وِصَالِكْ

***

وَقَفَ النَّجْمُ وَأَلْقَى بَالَهْ ... يَعُدُّ اللَّمْحَ مِنْ قَلْبِي وَقَلْبِكْ
وَيْحَ هَذَا النَّجْمِ مِمَّا هَالَهْ ... فِي ضَمِيرِ اللَّيْلِ مِنْ حُبِّي وَحُبِّكْ

***

غَارَتِ الأَنْجُمُ مِنْ قَلْبِي الطَّرُوبْ ... مَا يَقُولُ النَّاسُ لَوْ شَامُوا غَرَامِي
أَنَا بِالأَفْنَانِ فَتَّاكٌ لَعُوبْ ... يَزْدَهِينِي الغَيُّ فِي تِيهِ هُيَامِي

***

شُبهةٌ فى قَلبِكَ البِكْرِ يَلُوحْ ... طيفُهَا المُرْتابُ فِى إنْسَانِ عَينِكْ
أنَا يَا مَولاَىَ لَوْ تَعْلَمُ رُوحْ ... يَهْصِرُ المَطلُولَ مِنْ مائدِ غُصْنِكْ

***

تَنْظُرُ السَّاعَةَ مِنْ حينٍ لِحِينْ ... لَيْتَ شِعْرِى مَا الَّذِى يَسْتَعجِلُكْ
إنَّ هَذَا الوَصْلَ أحْلاَمُ سِنِينْ ... فَاتَّقِ الحب وَدَعْ مَا يَشْغَلُكْ

***

إليـك

يـا مُـخْـلـفًـا ودمـوع الـقـلـبِ تَـتْـبـعه … بـدافـقـات من الأشـجـان حـمـراءِ

كيف ارتـضيتَ جزاك الحبُّ ما صنعت … أهـوال خُـلْـفك فى ضـرى وإيـذائى

يـقـول عـنك خـطـابٌ صيغ من لـعبٍ … إنى أهـنـتك فى يـوم (الـثلاثـاء)

ماذا صنعتُ أجبنى، هل صنعت سوى … مـا يـأمـر الحب من فـتك وإغـواء

تـيران حسنك ضاعت لى فهمتُ بها … والـنـار أندى عـلى قـلـبى من الماء

لا تَـشْكُ من صبـواتى إنـهـا قَـبَسٌ … من نـار وجـهك يُـذكى فىَّ أهـوائى

إنى سـأنـسى، ولـكن كـيف؟ واتـعـبى … من نـقـمـة هى عـنـدى كل نـعـمـائى

«ألو» يجود بها «الهتَّاف» ترجعنى … إلى الـضلال فـأصحـو بـعـد إغـفـاء

ما ذلك الصوت؟ ما هذا البُغام، أجِبْ … يـا بُـلـبلاً شَـدْوُهُ سَـوْرَاتُ صـهـبـاء

إنى سـأنـسـاك، آهِ كـيف يـخـطـر لى … أنى سـأنـسـاك يـا حـبِّى وبـغـضائى

فى كل يـوم أعـانى مـنك مُـعـضـلـةً … أعـيـا بـهـا بـين إغـضـاب وإرضـاء

تجـىء تـسـأل عـنى ثم تُـسْـلـمـنى … قـبل الـسلام إلى كـربى وبـأسـائى

أبـحـتُّك الخـوف مـنى إنـنى أسـدٌ … مـنه الـظـبـاءُ عـلى مـيـعـاد إرداءِ

***

أمـخـلفٌ أنت؟ مـا هـذا أما شـهـدتْ … بـصـدق وعـدك أيـام «الـثلاثـاء»

إنى لأسـأل نـفـسى كيف يـغـلـبـنى … عـلـيك أهـلك يـا مـحـراب أهـوائى

عـشـرون عـامًـا وهم يـرعـون فى رَغَدٍ … أزهـار حـسنٍ كـريم الـعِـرْقِ وضَّـاء

أهلوك ما حالهُم؟ هل عربدوا شغفًا … وهم يـرونك فى صـبح وإمـسـاء

إن يـجـهـلوك فـعـينُ الـلـه تحـرسـهم … من فـتـنةٍ كالرحيق الـصِّرف هوجاءِ

يـا لاعـبًـا، والـهـوى جِدٌّ، أما تـعـبتْ … ألـعـاب لـهـوك من تـمـزيق أحشائى

إلْـعَبْ كما شئت، صانَ الـلـهُ سـاحـرةً … من مُـقـلـةٍ هى إسـعـادى وإشـقـائى

أأنت؟ من أنت؟ أصْدِقْنى فـمـا خـبرٌ … يـحـار فـيه ضـمـيـر الـسامع الرائى

كمثل ما سمعت أذنى وما شهدت ... عينى من السحر فى شجراءَ غنَّاءِ
فضحتنى والهوى الفضّاح مِلكُ يدى ... أسديه لطالبى عطفى وأندائى
فضحتنى، لا جزاك الحب صالحة ... ولا تمردت فى يوم «الثلاثاء»
ولا أشتفى منك لومٌ يدّعى كذبًا ... أنْ سوف تنسى مواعيد «الثلاثاء»

***

مادا تريد؟ أتنسانى؟ إذن جهلت ... أحلام روحك إغوائى وإصبائى
إلىّ أنتَ، ولو شاء الرحيل غداً ... أن ينقلوك إلى بيداءَ جهلاءِ
إلىّ أنت، ولو أمسيتُ فى سفر ... لكنت «أنت» شفيعى يوم بأسائى

***

تعالَ لا تدّخر لُقياك عند غدٍ ... ولا تقل عيدُنا يوم «الثلاثاء»
أوّاهُ من موعد يهفو له كبدى ... قُلْ لو بوجهك ما يوم «الثلاثاء»

***

جَرَى الحديث إلى وجهٍ فُتِنتُ له ... كأنه البدر فى أعقاب ظلماء
لم يخلق اللّه وجهًا مثل طلعته ... إذا تراءَى لأحلامى وأهوائى
قد صُغتُه من هيامى فهو لى عَجَب ... من الغرائب أفديه بحوبائى

***

تعالَ عندى تجد ما تشتهيه تَجدْ ... صدراً يضمّك ضم الصخر للماء
تعال عندى ولا تَفزع فما ظفرت ... دُنيا الغرام بإصماءٍ كإصمائى

***

آهٍ عليك وآهٍ منك يا رشًا ... عيونه السود محرابٌ لأهوائى
يا حالمًا وغرامى ما يطيف به ... إن استراح إلى أطياف إغفاء
أنا الطبيب فلا تسأل سواى فما ... نجاة روحك فى غير الثلاثاء
بخلتَ فابخلْ ودَعْنى آدّخر شغفى ... لحاسديك على فتكى وإغوائى
إن يغلبوك على قلبى فما جهلوا ... إيحاءك الشعر فى يوم الثلاثاء
هم فوقَ وجهك فى حُسْنٍ وفى طربٍ ... وفى ملامحَ مثل الشمس بيضاء
لكنهم لم يروا صبًا يهيم بهم ... كما أهيم بروحٍ منك صهباء

***

إن يعجبوا من غرامى فيك قل لهمُ ... إنى عرفتك فى يوم الثلاثاء
فضحتَنى يا جميلاً كله تُحفٌ ... كأنه الصبح فى يوم الثلاثاء
ثلاثةٌ منك أغرونى بحسنهمُ ... فجئت أدعوك فى يوم الثلاثاء
وما الثلاثة لا تسأل فأنت بها ... أدرى بحسنك يا روح الثلاثاء

***

قصائد لها تاريخ

هذا هو الديوان الثالث للشاعر : زكى مبارك وقد صدر سنة ١٩٨٧؛ وهو يضم المساجلات والمطارحات والمعارضات الشعرية بين زكى مبارك ومعاصريه.

والآن مع بعض قصائد الديوان، ولنبدأ بهذه القصيدة من شعر زكى مبارك وهى تحمل العنوان الآتى:

الشاعر مفيد الشوباشى

حضر إلى القهوة ومعه الشاعر عبد اللطيف السحرتى، والغرض وقف المعركة التى تثار عليه فى البلاغ من حين إلى أحيان.

وحضر الدكتور إبراهيم اللبان ليساعد على الصلح، والمحضر أمضاه الأستاذ مفيد بالأبيات الآتية:

مبارك والله أستاذى ... فشعره كالسكر الماذى

ونثره كالورد فى عطره ... من تلكم الروضة أو هذى

وفى «البلاغ» الفخم جولاته ... جولة دكتور وأستاذ

يقتطف القارئ من لفظه ... آيات قهار واخاذ

آراؤه كالبدر تمحو الدجى ... تفكيره تفكير أفذاذ

حجاه كالبرق إذا ما بدا ... فاعجب لبرق خير نفاذ

١٩٤٩/١٠/٢٥

شط إسكندرية

الأيام التى قضيتها فى الإسكندرية لم تكن مريحة فرجعت ولم أقابل وزير المواصلات ولم اقابل وزير الأوقاف..

وقد لقيت «أبا الشعراء» مصادفة، وهو دسوقى باشا فسألنى عن حالى وأحوالى فأنشدته ابياتًا نظمتها والبحر يضرب أمواجًا بأمواج.

تذكرت انى قد عشقت جمالكم ... واهديتكم روحى وأسلمتكم قلبى

تذكرت شط إسكندرية والهوى ... يلاحقنا بالنار جنبًا إلى جنب

ولم ادر ما الدنيا ولم أعرف اسمها ... فقد كنت فى غيبوبة الهائم الصب

وما كان يومى فى الهيام بحسنكم ... سوى جمرات قد نزلن من الغيب

أسائل عنكم كل غاد ورائح ... ولم تسألوا عن ضائع الحظ فى الحب

تلوموننى فى فتنتى بجمالكم ... صدقتم فحبى كان من أقبح الذنب

لقد دمعت عيناى حزنًا على هوى ... قتلتم صباه وهو فى ثورة الوجد

وما دمع عينى غير أو شال مزنة ... مخضبة بالدمع والدمع لا يجدى

لقد كنت أستهدى الرياح سلامكم ... فأصبحت بعد اليأس بالدمع استجدى

لئن كان حبى ضلة من ضلالة ... فبعض ضلال المرء فى حبه يهدى

وفيت لكم دهراً فلما غدر تمو ... رأيت سفاها أن اقيم على الود

وكيف افى بالوعد يومًا لشادن ... يقيم بأرض شيمها خلفة الوعد

١٩٤٩/٩/٦

ألحان الخلود

الروح التى أوحت لها غرام يوم الثلاثاء لا تزال تسيطر على قلبى، وقد اختصمنا ولن نصطلح، اختصمنا فى الإسكندرية والبحر يضرب أمواجًا بأمواج...

ثم عدنا فاصطلحنا فى مصر الجديدة ولكن الصلح لم يدم غير لحظات. جلست على الشاطئ فى الإسكندرية وتذكرتها والدمع يتفجر من قلبى فنظمت هذه الأبيات:

فى كل يـوم أنـاجـيـكم وأذكـركم	وأذكـر الأمس والحب الـذى كـانـا
مـضت سنـون وقـلـبى طـائـر غـرد	يـشـدو عـلى دوحـكم وجـداً وأشـجـانـا
لـيت الـذى جعل الـنسيـان مـذهـبكم	قـضى بـإسـعـادكم يـومـا فـأنـسـانـا
الـنـور يـسطع فى قـلـبى لـذكـر كمو	فـأملأ الـكـون أسـجـاعًـا وألـحـانـا
أدور أبـحـث عـنـكم كى أحـكـمـكم	بـالمستـحيل يـهيم الـقـلب أحـيـانـا

١٩٤٨/١٠/٤

عيد ميلادى

فى العصر الحديث صار تقييد المواليد أمرًا مقررًا، وأنا مولود فى الخامس من أغسطس سنة ١٨٩١ فى سنتريس منوفية.

رأيت أن أستقبل عيد ميلادى بقصيدة أصف بها كيف استقبلت نور الوجود، وأشرت إلى أن أبى وأمى فرحا بلقائى..

فى القصيدة وردت كلمة «شفته» بمعنى رأيته والكلمة صحيحة فالعرب يقولون تشوف بمعني تطلع وهو فعل مزيد، وشاف مجرد وهو الأصل ولا يزال حيا عندنا فى لغة التخاطب.

وكان يجب أن أقول: أنى صبرت على مصاعب الحياة صبر أيوب، ولكن كلمة أيوب يختل بها الوزن فوضعت مكانها كلمة جوب وهواسم أيوب فى اللغة الفرنسية :

يا عيد ميلادى قدمت ... أهلا وسهلا بالحبيب
يوم اغر رايتنى ... فيه أعربد كالطروب
ناجيت امى بالعيون ... وأبى رايت كما يطيب
والشمس حين رايتها ... عند الشروق أو الغروب
ظهرت لعينى فتنة ... وهاجة تغزو القلوب
والنهر لم أك شفته ... وبسطحه موج صخوب
فى سنتريس وروضها ... نبع الصدوح العندليب
من قلبه شعر يثور ... كأنه وهج اللهيب
وسرى اللهيب بشعره ... فغدا ازاهر من مشيب
مالى ذنوب فى الحياة ... إن الحياة هى الذنوب
هم الحياة حملته ... إنى لأصبر مثل «جوب»
من صابها مرا أرى ... انى لدى كأسى شروب
خمسون عامًا عشتها ... ستونها منى قريب

لا المـــوت اعــــرفه ولا ... مـا بـعـد مـوتى او قـريب

انـا لا افـكـر فى غـدى ... فـالـلّـه دفـاع الـكـروب

سيثيبنى عـمـا صـنعت ... هـو وحـده الـروح المثيب

لـغـة «الـكـتـاب» نـشـرتـهـا ... كـالـزهـر فـى الـوادى الخصيب

وسـقـيـتـهـا مـن ادمـعـى ... مـن ادمـعـى غـيـث يـصـوب

اسمى هـو اسم مـحـمـد ... من كاد يقتل فى الحروب

دفـعًـا عن الـدين الـذى ... من عدله نهضت شعوب

بـالـدين او قـرآنه ... قـد صـار فى مـصـر اديب

لا تـعـجـبـوا مـن لـعـبـه ... بـطـرائق الـفـن الـقـشـيب

فـالـشـعـر يـوحى انه ... بـالأذكـيـاء هـو الـلـعـوب

١٩٥٠/٨/٦

أطياف الخيال

هذا هو الديوان الرابع للشاعر زكى مبارك وقد صدر سنة ١٩٧٧، يقول الشاعر زكى مبارك:

لم أكن أعرف أننى قادم على سعير العذاب حين فكرت فى إغناء الأدب العربى بألوان من الصور الشعرية التى تصور عذاب الأرواح والقلوب . كنت أحب أن أقيم فى دنيا الشرف هيكلا يعبد فيه الجمال، كنت أحب أن تقام فى عالم الأدب العربى دولة للقلوب والأحاسيس، كنت أحب أن يشعر شبابنا بأن لغتهم لا تزال غنية وأن فيها كتابًا وشعراء يعرفون مواسم القلوب... فكيف كان جزائى؟ كنت كالطبيب الذى يحمل المشرط ليداوى جرحاه فينقل إليه المشرط جراثيم الهلاك... والآن مع هذه القصيدة بعنوان:

جارتى

فى الأيام الأخيرة جاءت جارة جديدة، نظرت من النافذة صباحا فرأيتها فى الشرفة وفى يدها كتاب تنظر فيه وتنظر إلى الفضاء لحظات، فزلزت قلبى زلزالاً شديداً... ليس من عادتى أن أومئ إلى جارتى بتحية، وإنما أكتفى بطيف تحية عند الصبح وعند المساء.

إن الحب صناعة من لا صناعة له، وأنا بدون صناعة فلتكن صناعتى هى التغريد فوق أفنان الجمال.

جــارتى والــبــخل من اخلاقــهــا	ســرقت قــلــبى وطــارت لا تــعــود
حــلــوة ســمــراء مــا أظــرفــهــا	حــين تــلــقــانى بــنــار من صــدود
ايــهــا الحــســنــاء اين المــوعــد	فى مــســاء مــظــلم أو فى صــبــاح
والــتــنــاجى يــصــنــع الــبدع بــنــا	إنــه يــــا روح أكـــــواب وراح

***

يا بنت فرعون إن الظلم يزعجني فراقبي الله يا بنت الفراعين
ولو قضى الحب أن نستاف في غدنا ازهار خديك لحظا في البساتين

***

آمن بالحسن إن الحسن الهمني ما ليس يصنعه في الكون مقدور
يا بنت فرعون يا سمراء صانعة بالقلب ما عجزت عنه المقادير
جنت عليه لياليه وأسلمه إلى مآسيه حسن جدُّ فتان
ما سرت إلا وطيف منك يتبعني كأنني هارب من أسر سجان
عاد الشباب لأني قد كلفت بكم والحسن يخلق كونا غير موجود
الحسن عاد فكن يا قلب في طرب وأوح إن شئت ألطاف الأناشيد
ماذا علينا وهذا الحسن يؤنسنا بالأعين الخضر أو بالأعين السود
ماذا علينا إذا ما هاجنا طرب إلى السلافة من تلك العناقيد؟
يا فاطر الكون من حسن ومن شغف ادرك بلطفك أسرى الخرد الغيد

١٩٥١/١٠/١

عشقنا الجمال

قد حضرنا إليك يا بحر نشكو ... ما نعانى من قسوة الأيام
صهرتنا الخطوب حتى شوتنا ... ورمتنا بأعنف الآلام
ما شهدنا بمصر يوما سعيدا ... غير طيف يمر فى الأحلام
وسوى نظرة لوجه صبوح ... يسكب النور فى دياجى الظلام
ما حياة الفتى بغير غرام ... غير وهم من أبشع الأوهام
من جمال الظباء كان صبوحى ... وغبوقى إذا شربت مدامى
لا تدع يا جميل قلبى يتيما ... يتساقى الأحزان كالأيتام

***

١٩٤٩/١١/٨

يوم العيد

قد قضينا فى العيد يوما سعيدا ... هو يوم من السرور جديد
وشربنا خمرا حلالا فكانت ... فوق ما تفعل العيون السود
رب ثغر فى العيد جاد بثغر ... هو أشهى ما يمنح العنقود
يا نديمى يباح فى العيد طيف ... لا نرى فى خياله ما نريد

***

أيها العيد والظباء ألوف ... لست أدرى والله ماذا اصيد
هذه الفتنة المضيئة ليلاً ... ونهاراً قلبى بها معبود
إن محراب حسنها فى حياتى ... معبد عنده يطيب السجود
إن ما قد لقيت من عطفها الحلو ... درسه من «جهلها» أستفيد
آه من خدها ومن مقلتيها ... إن قلبى من ظلمهن شريد
جاد بالفتنة اللعوب زمان ... هو بالفتنة اللعوب سعيد

١٩٥١/٧/١٧

ملاعب الظباء فوق الرمال

مع الحبيب سبحت ... وفى صباه لعبت

لا تعجبوا من ضلالى ... إنى سكرت سكرت

ولا تطيلوا ملامى ... فما بهذا أثمت

عرائس البحر نادت ... صبابتى فأجبت

فى البحر والموج عات ... سبحت حتى تعبت

سبحت فيه الصبايا ... بالسبح حتى سبقت

بيضاء تلهم روحى ... فى حبها الحد سبت

عيونها واعدات ... بقبلة إن صحوت

وكيف يصحو فؤادى ... ومن سناها ضريت

لو كنت فى الشط وحدي ... سرقتها ومضيت

جسم من النور صاف ... تغار منه الكميت

هذى العيون ترانا ... من لؤمها انا خفت

إن الجواسيس حولى ... فى اى أرض حللت

فليسمعوا كيف شاءوا ... فلى إلى الحسن صوت

إن الجمال طعامى ... وخمرتى إن ظمئت

إنى إلى الحسن صاب ... اشتاقه مذ ولدت

من نار قلبى تعالت ... نار لرأسى فشبت

***

يا بحر ما سمكات ... شويتها فاشتويت

وما زغاليل فيها ... لكل رام وقفت

الحسن في الشط نار قبستها فاحترقت
وكنت أنجو بنفسي ومهجتي لو اردت
والقلب لم يك يدري انى بعهدي غدرت
خمسون عاما وقلبي لم يدر انى عشقت
إني لوجدي كتوم والخير فيما كتمت
هذا القصيد شهيد انى بنجواي بحت

***

١٩٥٠/٨/٢٢

أحلام الحب

هذا هو الديوان الخامس للشاعر زكى مبارك وقد صدر سنة ١٩٨٩، والقصيدة التالية تحمل هذا العنوان:

عاشق

قلت من قبل إن المعانى الوجدانية قلت فى الأدب الحديث وأن أبناءنا صاروا يأخذون أدبهم الوجدانى من الفرنسية والإنجليزية، فما الذى يمنع من أن ننشئ لهم أدبا وجدانيا؟

نفترض أنه كانت لى محبوبة اسمها سعدية وقد عانقتها فى إسكندرية وقلت فيها:

ذَكَرْتُ فِرَاقَكِ فى عَوْدَتِى

ونحْتُ على الليلة الماضيه

فبالرَّمل كنا وكان الصفاءْ

تجودُ به أعين داميَه

ولم أدْرِ كيف عَرَفْنَا الطريقْ

إلى الشوق فى تلكُمُ النَّاحِيه

ولا كيف سِرْنَا إلى ما نَراهْ

من الوجد تُعْوِزُنا الْعافيه

تَنَاسى المحبون احبابَهُمْ

وامسيتَ وَحْدَكَ فى باليه

١٦/١/ ١٩٥١

يا أكحل العينين

شيطان الشعر يزاملنى فى هذه الأيام، وأكرم به من زميل عزيز، وفى لحظة أوحى هذه القصيدة الغنائية :

بَعْدَ السنين الطُّوَالْ
يا أكْحَلَ العينين
جَفَا صِبَاكَ وَمَالْ
عَنْ أخْضَرِ العَيْنَيْنْ (١)

***

كانَ الهَوَى لُقْيَاكْ
لُقْيَاكَ فى دَارِي
فجَاءَ خَطْبُ نَوَاكْ
عَنِّي وعن دَارِي

***

تعِيشُ فى الحُسْنِ وَحْدَكْ
وحْدِي اعيشُ بِوَجْدِي
سأشْهَدُ الحُسْنَ بَعْدَكْ
ولَنْ تَرَى الوَجْدَ بَعْدِي

***

(١) كان زكى مبارك يقول: إنه أخضر العينين... ولكنه فى الواقع كان أزرق العينين... وقد عاصره الشاعر إبراهيم ناجى، وفى قصيدة له بعنوان: الدكتور زكى مبارك يقول فيها:

أزرق العين هادئ هداة البحر

بعيد الرضى، بعيد القرار

والسبب أن زكى مبارك كان يرمز إلى المستعمر بأزرق العين.

قلبى إليك إليكْ
كالشُّهْدِ فى شَفَتَيْك
والسِّحْرُ فى عَيْنَيْك
والخَمْرُ فى خَدَّيْك

***

ماذا يَقُولُ الْغَزَالْ
إذا راى نَظْرَتَكْ؟
ماذا يقول الجمَالْ
إذا راى فِتْنَتَكْ؟

١٩٤٨/٦/١

ليلة الربيع مع وصفية

إنها فتاة جميلة، وفيها أوصاف الربيع، كان البلاغ يجهل أنها شخصية وهمية وأنى أبتدع الصور ابتداعا لأزيد فى ثروة اللغة العربية من المعانى الوجدانية..

هذه الفتاة وصلت إلى قلبى بحيلة شيطانية، والنساء يعرفن الطريق إلى سرقة قلوب الرجال... أنا بعد أيام سأراها فى الإسكندرية، والحب صناعة من لا صناعة له... وأنا بدون صناعة لأنى مفتش اللغة العربية بالمدارس الأجنبية، وهذا ضيم أتلقاه مبتسما من وزارة المعارف يضاف غدا إلى غرامى، الغرام بوصفيه صاحبة أجمل عينين وأجمل مشية وأقسى فؤاد... نحن فى مطلع الربيع... وفى الربيع يتفتح القلب للحب، ولعل أصدقائى فى البلاغ يعرفون هذا المعنى، ولكن أمرى يختلف، فأنا اليوم بدون ربيع...

ربيعٌ بلا حُبٍّ أهذِى مَعيشَةٌ؟
وكيفَ يعيشُ القلبُ يومًا بلا حُبِّ؟

فواهًا لقلبٍ بالمحاسن مُولَعًا
قضى أنْ يرانى فى عَنَاءٍ وفى كَرْبِ

أسمراءُ ما هذا؟ أجيبى وأفصِحِى
فلمَّا يبِنْ بالحُسْنِ رُوحٌ ولا قَلْبُ

شَقاءٌ أُعَانيه بِحُبِّ بخيلةٍ
وما بَخِلَتْ يومًا ولكنْ هُوَ العَتْبُ

إذا جاء «شَمُّ النَّسِيم» فإنَّنَا
سَنَقْضِيهِ فى «ثَغْرٍ» هُوَ الكَوْثَرُ العَذْبُ

***

فَتاةٌ رمانى الدَّهْرُ بَغْيًا بحُبِّهَا
فَصِرْتُ أسِيرًا فى الحَدِيدِ من القَيْدِ
أبَحْتُ لِعَيْنى أنْ تَرَى فى رَبِيعِهَا
أزاهِيرَ مِنْ لألائِها القَلْبُ يَسْتَهْدِى
بَكَيْتُ عَلَى أيَّامِهِمْ فى رَبِيعِهِمْ
وإنْ كانَ دَمْعُ العَيْنِ لا يُجْدِى

١٩٥١/٥/١٩

اللحن الجديد

ماذا أصنع؟ إن الغرام يحيط بى من كل جانب، ففى إسكندرية جمال وأنا توهمت أن لى فيها محبوبا جميلا، كما توهم موليير فى روايته المريض الواهم، وهى أجمل ما ألف موليير، وهى رواية شعرية، تحلل فيها من الوزن والقافية... والآن مع هذا القصيد الحزين:

إنَّ عَيْبًا فيكَ لا يُعْجِبُنِى يا حبيبى

إنَّهُ الحُسْنُ الذى يَقْتُلُنِى يا حبيبى

يا صَبُوحَ الوَجْهِ يا حُلْوَ العُيُونِ

لَكَ صَوْتٌ صِيغَ من لَحْنِ الرَّنِينِ

وقَوَامٌ صِيغَ من تلك الغُصُونِ

انْتَ فى عَيْنِى فُتُونٌ فى فُتُونِ

***

انْتَ فى الليلةِ زَادِى

فَلْتَكُنْ طَوْعَ فُؤَادِى

انا جَوْعَانُ وصَادِى

يا ظَلُومًا لِفُؤَادِى

***

آهِ مِنْ صَوْتِكَ آهًا يا بَغُومْ

آهِ من ظُلْمِكَ آهًا يا ظَلُومْ

آه مِنْ وَجْدِى بمَعْسُول الرُّضَابْ

قُبْلَةٌ منه شرابٌ فى شرابْ

وجَحيمٌ وسَعيرٌ وعذَاب

كيف اسْلُو؟ كيفَ يارِبِّ أعِنّى

إنَّ هذا الظَّبْىَ صَادَ الْقَلْبَ مِنّى

لأُغَنّى وأُغَنّى وأُغَنّى

رَشَأ والسّحْرُ فى مُقْلَتِهِ

وسِهَامُ الْحُسْنِ فى لَفْتَتِهِ

***

طالَ هذا اللّيْلَ أمْ طَالَ نَوَاكْ

انا فى شَوْق فَعِدْنى كَىْ أرَاكْ

يا رَشُوفَ الرّيقِ اشْقَانِى هَوَاك

لم يَعُدْ لِى مَنْ أُنَاجِيهِ سِوَاك

أدْمُعِى فيكَ وهذا المَطَر

مِنْهُمَا يا رُوحُ يُسْقَى الشَّجَر

قَدْ دَجَا اللّيْلُ وطَالَ السَّهَر

وفُؤَادِى بالْهَوَى يَنْصَهِرُ

قُلْ لى مَتَى اراك يا قَمَرُ

فَفُؤَادِى بالهوى مُسْتَعِرُ

جَلَّ مَنْ بالحُبِّ قَلْبِى يَأمُرُ

وَهْوَ رَبُّ الْعَالمين الأكْبَرُ

غادِرٌ يا حُسْنُ، ظُلْمًا تَغْدِرُ

وهُيَامى فيك ذَنْبٌ يُغْفَرُ

يَسْتُرُ اللّه جنوبا يَسْتُرُ

وَهْوَ فى الدَّمْعِ عقيقٌ أحْمَرُ

يَسْتُرُ اللّه جنوبا يَسْتُرُ

وَهْوَ فى الدَّمْعِ عقيقٌ أحْمَرُ

١٩٥٠/١٢/١٦

هوى جديد

هَـــوًى جـــديـــدٌ يَـــزُورُ قَـــلْـــبى
فـــأنْـــتَـــشِى مـــنهُ ثُمَّ أَسْـــكَـــرْ
وأَشْـــرَبُ الـــشُّـــهْـــدَ مِنْ لَـــمَـــاهُ
فـــأنْـــتَـــشِى مـــنهُ ثُمَّ أَسْـــكَـــرْ
لا تُـــنْـــكِـــرُوا الـــوَجْـــدَ من أَدِيبٍ
بـــسِـــحْـــرِ هـــذا الجـــمـــالِ يَـــشْـــعُـــرْ
«الـــثَّـــغْـــرُ» فى رِيـــقهِ مُـــدَامٌ
بـــهـــا فـــؤادُ الأديبِ يَـــسْـــكَـــرْ
لا تُـــنْـــكِـــروا الـــوَجْـــدَ من أديبٍ
إلى صـــبـــاحِ الـــوُجُـــوهِ يَـــنْـــظُـــرْ
اصْـــبُـــو إلى الحُـــسْنِ فى سَـــنَـــاهُ
ولَـــستُ أسْـــلُـــو ولَـــسْتُ أَصْـــبِـــرْ
إن كـــان فى مُـــهْـــجَـــتى صِـــيَـــامٌ
فـــإنّـــنى بـــالْـــجَـــمـــالِ أُفْـــطِـــرْ
عَـــيْشٌ بـلا أوْجُـهٍ صِـــبَـــاحِ
عَـــيْشٌ هـــو المـــوتُ ثُمَّ أكْـــثَـــرْ [1]

---

(١) أوجه صباح، بكسر الصاد: مشرقة جميلة.

مَنْ لَمْ يَــهِمْ بــالجــمــالِ يــومًــا

فَــعَــيْــشُهُ فى الحــيــاةِ أَغْــبَــرْ

١٩٤٩/٤/١١

إن الجمال ليطغى

العشق فى طبيعة الحياة، وهو سبب التماسك فى الموجودات من جماد ونبات وحيوان.

والتماسك فى الجماد يدركه من يرى كيف ينجذب حجر إلى حجر بالقليل من الجير والأسمنت، والعدم نفسه وهو عدم له وجود، فما زال الناس يتأثرون بأمرئ القيس، وابن أبى ربيعة، والشريف الرضى، والمتنبى مع أنهم ماتوا قبل أجيال طوال... ومعنى هذا إننا نرث عن أجدادنا كثيرا من الشمائل والخصال... وهذا تمهيد لهذه القصيدة.

اعيشُ مِنْ غَيْرِ عِشْقٍ؟
رَبَّاهُ كَيْفَ اعِيشُ؟
ما العيشُ مِنْ غَيْرِ طيْشٍ
إلاَّ سِهامٌ تَطِيشُ
وَمَا حَيَاتِى إذَا مَا
لمْ ألْقَ رُوحًا بِقُربِى
أبْثُهَا زَفَرَاتى
فى الليل جَنْبًا لِجَنْبِ
إنَّ الجَمالَ لَيَطْغَى
إذَا نظرتَ إليهِ
سينثنى بعد حين
إذا صبرت عليه
والعُمْرُ فيه الخلودْ

إذا امتنت الصدود
باكر إلى الروض واخطف
ما فيه من أزهار
ونادم الحسن واختلف
بطلعة الأقمار
إن كنت تخشى الله
فانظر لما يرضاه

واللّه يرضى بأنْ تلقى الذى صنعت
يداه بالبشر افراحا بأفراح
وأن تقول وصدر منك منشرح
سبحان من خلق التفاح للراح
يا شارب الحسن من وجه تصابحه
احذر كلام الحسود العاذل اللاحى
وأعطه أذنا صماء ساخرة
بما يقول الجهول الأحمق الصاحى
عدوا عيوبى ولم أذكر فضائحهم
بصارم من خطير الشعر فضاح
من جهلهم جهلوا انى الذى بدرت
منه ذنوب سيمحو وزرها الماحى
الله ماح لما قد خطه قدر
من قبل آدم مسطورا بألواح
إذا الليالى تدجت مرة فلها
عود قريب إلى شمس وإصباح

١٩٥٠/٩/٥

الباب التاسع

زكى مبارك ظاهرة من ظواهر الحياة الأدبية الوطنية، وأن ظاهرة الأزهرى المجدد الذى طلب العلم الحديث فى مصر وأوروبا أو فيهما معا كانت أكثر لفتا للنظر وأعظم خيرا على مصر من ظواهر أخرى.

ولم أكن فى حاجة لأعرف سر ظاهرة زكى مبارك؛ فزكى مبارك ممن نأوا بأنفسهم عن السلطة وممن حرصوا على خصائص المصرى الأزهرى الريفى الفقير.

فتحى رضوان

لقد ابتكر زكى مبارك فناً جديداً حين نقل الغزل والتشبيب من الشعر إلى النثر.

على الجارم

الفصل الأول

الدكتور زكى مبارك يتحدى المجمع اللغوى

للدكتور زكى مبارك مكانة كبيرة ومتقدمة فى قلبى وعقلى

د. محمد الجوادى

من سنوات أخبرنى الكاتب الصحفى الأستاذ مصطفى عبد الله المشرف على صفحة الأدب بجريدة الأخبار أن الأستاذ الدكتور محمد الجوادى كتب عن زكى مبارك، ولما كنت أشير فى كل مقالاتى وكتبى إلى من كتبوا عن زكى مبارك فقد أخذت أبحث عما كتبه الأستاذ: الدكتور محمد الجوادى، ولما لم أهتد إليه، حاولت مرارًا الإتصال بالأستاذ الدكتور محمد الجوادى على رقم تليفونه الموجود داخل كتابه: «رحلات شاب مسلم» حتى يئست.

ولكن شاء القدر أن تشرف الهيئة المصرية العامة للكتاب بإشراف الأستاذ الدكتور محمد الجوادى على إدارة النشر، واتصلت به وذهبت إليه وأعطانى الكتاب.

وكانت المفاجأة بالنسبة لى أن أعرف أن والدى الشاعر زكى مبارك قد تقدم لنيل جائزة المجمع اللغوى عن ديوانه الثانى «ألحان الخلود».

والآن مع كلمة الأستاذ الدكتور محمد الجوادى وهى تحت عنوان:

عندما تحدى الدكتور زكى مبارك المجمع اللغوى!

للدكتور زكى مبارك مكانة كبيرة ومتقدمة فى قلبى وعقلى.

وقد كان هذا الرجل صاحب الألقاب العلمية وصاحب السبق إليها معتزا بنفسه، ولكنه كان فى الوقت نفسه يحن إلى التقدير ويتشوق إليه.. ولعل فى هذا

سر ذهابه يوما بعد يوم يبتغى الحصول على ألقاب وشهادات علمية أخرى، حتى صار له ما لم يكن لأحد من قبله.

ولكنه فى اعتزازه بنفسه كان يفوق الحدود، حتى إنه يصدق عليه القول إنه لم يدع مجالا لغيره ليقدر له فضله بعد ما قدره هو، ولعل فى هذا سرا غاب عن زكى مبارك الذى لم يفتأ يستنكر على الناس إهمالهم شأنه.

وقد تكون هذه العناصر الثلاثة هى المكونات النفسية لشخصية زكى مبارك فى اختصار مركز وشمول شديد.

ها هو ذا زكى مبارك يتقدم بديوانه «ألحان الخلود» لينال جائزة المجمع اللغوى فلا ينيله المجمع الجائزة، فيكتب صاحبنا مقالاً هجوميًا فى مسامرات الجيب (٢٢ يناير ١٩٥٠) وتصوره مسامرات الجيب فى وسط المقال بالصورة التى اشتهر بها وهى صورة الملاكم «الأدبى».

يبدأ الدكتور زكى مبارك مقاله بقوله:

«يسألوننى لماذا لم يمنحنى المجمع اللغوى الجائزة الشعرية على ديوان «ألحان الخلود».

ويجيب مباشرة: «وجوابى إن هذا دليل جديد على بعد المجمع اللغوى عن مسايرة الحياة الأدبية».

وينتقل الدكتور زكى مبارك ليفصل رأيه هذا فيقول:

«فقد كان المظنون أن رئيس المجمع وأعضاءه يشترون بأنفسهم الدفاتر الأدبية الجديدة ليعرفوا كيف تنتقل حياة الأدب من حال إلى أحوال.. ولكنهم مع الأسف فى معزل عن فهم هذه الحقيقة الجوهرية..!».

***

وبعد هذا الجانب النظرى من الموضوع، الذى يكتفى أغلبية الكتاب بالوقوف عنده إذا ما تناولوا مثل هذه القضايا، يمضى الدكتور زكى مبارك بطبعه المختلف عن طبع الناس وأخلاق الكتاب، يمضى بصراحته الشديدة التى لا تقف عند حد

وإنما قد تجرح وتحرج وتسبب بهذا إيلاما شديدا لا يزال بالمتألم يحثه على الانتقام لما أحسه من ألم مثل هذه الكلمات التى كتبها زكى مبارك!!

وكان رئيس المجمع فى ذلك الوقت هو الأستاذ أحمد لطفى السيد، وهو مع أستاذيته لم يعرف بالشعر، وهنا يغمز زكى مبارك أستاذ الجيل فيقول:

«وأنا ما فكرت فى إهداء نسخة من ديوان «ألحان الخلود» إلى رئيس المجمع اللغوى لأننى أيقنت أنها هدية ضائعة لأن فخامة الرئيس لم ينظم فى حياته بيتًا من الشعر حتى يدرك قيمة الديوان».

ثم يردف زكى مبارك بعبارة لا تزال غامضة علىّ حين يقول:

«ولأن من أعضاء المجمع أشخاصًا من سلالة الرسول، والله عز شأنه قال فى رسوله الكريم: (وما علمناه الشعر وما ينبغى له).

***

ثم يأخذ زكى مبارك فى مهاجمة بعض أعضاء المجمع فيقول فى شأن الأستاذ العقاد:

«ولأن فى المجمع عضوا يزعم أنه شاعر، وما هو بشاعر، وهو الشيخ عباس محمود العقاد».

ويكتفى زكى مبارك بهذا فى شأن العقاد ليتركه إلى الذين انتقلوا إلى رحمة اللَّه فيقول: «ولو كان الأستاذ على الجارم حيا لكان من المستحيل أن ينصفنى لأننى هجوته فى مجلة الرسالة، وهكذا يجعل زكى مبارك أسباب عدم التقدير مختلفة.. وهكذا يتبين لنا من حديثه هجاء لشخص الجارم لا لشعره فى حين أن شعر العقاد ليس بشعر!

وينتقل زكى مبارك إلى بعض علماء اللغات الذين يضمهم المجمع ليقول:

«ولا موجب للقول بأن بين أعضاء المجمع أشخاصا لا يفهمون من الشعر شيئا.. أمثال فضيلة الشيخ حمروش عميد اللغة العربية بالأزهر، والحاخام ناحوم الذى لا يفهم العربية إلا بصعوبة..!».

«وفى المجمع اللغوى أيضا مستشرقون لا يمكنهم أن يدعوا العلم بأسرار الشعر العربى لأنه بعيد عن أفهامهم كل البعد».

هكذا يتحدث زكى مبارك بدون تفصيل.

***

ولكن زكى مبارك لا يمضى فى الطريق إلى نهايته، وإنما يقرر أن هناك واحدا فقط من أعضاء المجمع فى وسعه الحكم فى قيمة ديوان «ألحان الخلود» لزكى مبارك... وهو صاحب المعالى الشيخ محمد رضا الشبيبى، فهو «من أكابر شعراء العراق»، ولكنه لا يقيم فى مصر غير أسابيع ثم يقفل راجعًا إلى بغداد، فليس هناك أمل فى أن تتاح له الفرصة ليحكم لديوان «ألحان الخلود».

وهكذا تجد فى كلمات مبارك هنا ـ كما تجد دائما ـ حنينًا وشوقًا إلى العراق وأهل العراق، وكيف لا وقد وجد حظه عندهم بعدما يئس من التقدير فى مصر، ثم عاد من العراق ليستأنف اليأس من التقدير بل ليموت بعد هذا المقال بقليل.

***

كان هذا هو الجزء الأول من مقال زكى مبارك تحدث فيه عن «الناس» أو عن «الغير» الذين لم يحظوا بتقديره لأنهم لم يعطوه تقديرهم.. ولكن هناك جزءًا آخر هو قاسم مشترك فى مقالات زكى مبارك.. هو الحديث عن «النفس» وعن «الذات» التى تعطيه تقديرها وتحظى بتقديره، فى هذا الجزء من المقال الذى بين أيدينا بعض جوهر رأى زكى مبارك فى نفسه وذاته.

يقول الأستاذ الكبير:

◆ كتب المؤرخ العربى المصرى الأستاذ أنور الجندى على صفحات كتابه «المساجلات والمعارك الأدبية» صفحة ٣٨ عن المجمع اللغوى، وكان مما قاله: إن زكى مبارك كان ينتصر لفكرة إنشاء مجمع اللغة العربية فى مصر، فى حين كان هناك من يهاجم الفكرة. ونحن بدورنا نقول من العجب العجاب أن المجمع اللغوى الذى أنشئ فى مصر بدعوة من زكى مبارك وغيره من أصحاب الغيرة للوطن لم يضم إليه زكى مبارك؟!.

«ليس يهمني أن اكون عضوا في المجمع وانما يهمني ان انشئ ادبا يشتغل بدراسة أعضاء المجمع».

ثم يقول زكي مبارك:

«مهمته أن يستفيد من آراء العارفين بسائر اللغة العربية، ولكنه تجاهل آراء الدكاترة زكي مبارك لأن هؤلاء الدكاترة لا يعترفون بقيمة الأنظمة الإدارية التي يجيدها الأستاذ الفلاني والأستاذ الفلاني».

أحلام الحب

هذا هو الديوان الخامس للشاعر زكى مبارك وقد صدر سنة ١٩٨٩، والقصيدة التالية تحمل هذا العنوان:

عاشق

قلت من قبل إن المعانى الوجدانية قلت فى الأدب الحديث وأن أبناءنا صاروا يأخذون أدبهم الوجدانى من الفرنسية والإنجليزية، فما الذى يمنع من أن ننشئ لهم أدبا وجدانيا؟

نفترض أنه كانت لى محبوبة اسمها سعدية وقد عانقتها فى إسكندرية وقلت فيها:

ذَكَرْتُ فِراقَكِ فى عَوْدَتِى
ونحْتُ على الليلة الماضيه

فبالرَّمل كنا وكان الصفاءْ
تجودُ به أعين داميَه

ولم أدْرِ كيف عَرَفْنَا الطريقْ
إلى الشوق فى تلكُمُ النَّاحِيه

ولا كيف سِرْنَا إلى ما نَراهْ
من الوجد تُعْوِزُنا العافيه

تَنَاسى المحبون أحبابَهُمْ
وأمسيتَ وَحْدَكَ فى باليه

١٦/ ١/ ١٩٥١

والفلسفية من الجامعة المصرية.. وأننى أول دكتور فى الفلسفة من جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٧».

هذا عن ألقابه، وهى كما نرى كافية فى حد ذاتها لأن تجعله عضواً فى المجمع أو فائزاً بجائزة الشعر التى يمنحها المجمع.

أما عن خدماته فإنه يتحدث عنها هكذا:

من ظفر بوسام الرافدين من الدولة العراقية، وهو وسام لم يظفر به أحد ممن خدموا بالتعليم فى العراق سواى!».

ولا بأس عند زكى مبارك أن يقارن الناس بنفسه دون ذنب جناه الناس إلا أنهم خدموا مثله فلم يحظوا بمثل التقدير الذى حظى به:

«فهل ظفر بهذا الوسام الأستاذ محمود عزمى؟ أو السنهورى باشا؟»

وبعد كل هذا الاعتزاز يقول الدكتور زكى مبارك:

«ومع هذا المجد كله لا يهمنى أن يتغاضى عنى المجمع اللغوى».

***

ويستأنف زكى مبارك حديثه أو هجومه فيقول:

«ويعيب قوم علىّ أننى أعتز بنفسى.. وهذا من حقى»

حتى هذا العيب الظاهر فى شخصية زكى مبارك لا يدعه صاحبه دون أن يجعل منه مزية، أو أن يرجعه إلى سبب أو أسباب وهو يقول:

« ..... لأننى بنيت مجدى بنفسى فقد تعلمت فى باريس على حسابى، وأنجبت أدباء فضلاء منهم الدكتور محمد هاشم والدكتور محمد مندور وفؤاد باشا سراج الدين،.. ومن حقى أيضا أن أعتز بأننى طالب فى جامعة فاروق الأول بالإسكندرية... خير القارات فى نظرى هى قارة آسيا التى نبغ فيها غاندى

وطاغور شاعر الهند.. ولكن أرى إفريقيا أضخم وأعظم لأن فيها مصر، ولأن فى مصر المنوفية، ولأن فى المنوفية «سنتريس»، ولأن فى سنتريس منزل مبارك، وهو منزل تفضل بزيارته خمسة وزراء.

ترى هل أدرك القارئ الآن لماذا أجلنا تفصيل القول فى مسألة سنتريس وباريس عندما عرضناها منذ دقائق.

ترى هل يجد القارئ شيئا من الاستغراب لسرور زكى مبارك، وفخره، بزيارات الوزراء الخمسة!!

***

أما الفقرة الأخيرة من مقال الدكتور زكى مبارك فسننقلها كما هى دون تعليقات تفسد على القارئ متعته الكاملة بالدكاترة، وكفانا أننا لم ندع فقرة من فقرات الرجل من دون تعليق، يختم الدكاترة زكى مبارك مقاله بقوله:

«ونعود فنتحرى.. هل للمجمع اللغوى أن ينازلنى فى ميدان المجد والفخار؟ هل لأحد من أعضائه أن يصاولنى فى الشعر والأدب؟ بالطبع لا..! إنه لا يملك شيئا من هذه المحامد. فليس له وجود إلا فى الخيال، وأنا الدكاترة زكى مبارك صاحب أعظم وأفخم وأمجد ديوان شعر.. ولو كره اللغويون».

د. محمد الجوادى

الباب التاسع

الفصل الثانى

لقد حان الوقت لجمع مقالات زكى مبارك من مظانها الكثيرة والمنتشرة فى جرائد عصره؛ فهى أصدق تعبيرا عن فكره وربما أكثر قيمة أيضا من الكتب التى كتبها والتى لا يذكر إلا بها.

الدكتور السعيد محمد بدوى

وأخيراً.... وقفة مع القرّاء

عزيزى القارئ :

بعد أن عشت معنا فى هذا الكتاب الممتع لأديب الأمة العربية الذى اشتهر بمقالاته تحت عنوان: ((الحديث ذو شجون)).. نقول ما دام الحديث ذو شجون، فما رأيك فيما ذكره الأستاذ أنور الجندى أيضًا عن " زكى مبارك" ؟.

إنه بخلاف حديثه عن "زكى مبارك" والمرأة، فقد قال ما معناه: إن "زكى مبارك: قد توقف عن الكتابة الجادة فى أخريات أيامه، مما حدا بمعظم من كتب عن "زكى مبارك" بعد ذلك أن ينقل عنه:

إن " أنور الجندى" كما نقل بعض الجمل المتفرقة من مقالات "زكى مبارك" عن المرأة نقل أيضًا بعض السطور من عدة مقالات متفرقة، وهى سطور لارابط بينها ولكنها بالصورة التى نشرت بها فإنها تدين " زكى مبارك" وتصوره كمن لا يعرف ماذا يقول وماذا يكتب.. إن "أنور الجندى" هذا كان أيضًا كمن قال: لاتقربوا الصلاة، ولم يكمل!!!

والآن آن الأوان لمناقشة هذه المقولة لأن من يقرأ " زكى مبارك" يرى الحياة وجها لوجه، و"زكى مبارك" لم يتوقف أبدًا عن الكتابة الجادّة.

إن "زكى مبارك" بخفة ظله المعروفة لم يستطع أن يغفل كلمة قالها له أحد الشبان، بل نشرها على صفحات جريدة "البلاغ بتاريخ ١٩٥٠/٧/٤ تحت عنوان واضح هو "هل يجب أن أنتحر"؟

وكما ذكرنا من قبل فقد كتب د. زكى مبارك يقول:"الأستاذ محمد فهمى شاعر يشغل نفسه بوضع قصة كليوباترا فى مسرحية شعرية كما صنع شاعرنا" أحمد شوقى".

وأخيراً.... وقفة مع القرّاء

عزيزى القارئ :

بعد أن عشت معنا فى هذا الكتاب الممتع لأديب الأمة العربية الذى اشتهر بمقالاته تحت عنوان: ((الحديث ذو شجون)).. نقول ما دام الحديث ذو شجون، فما رأيك فيما ذكره الأستاذ أنور الجندى أيضًا عن " زكى مبارك" ؟.

إنه بخلاف حديثه عن "زكى مبارك" والمرأة، فقد قال ما معناه: إن "زكى مبارك: قد توقف عن الكتابة الجادة فى أخريات أيامه، مما حدا بمعظم من كتب عن "زكى مبارك" بعد ذلك أن ينقل عنه:

إن " أنور الجندى" كما نقل بعض الجمل المتفرقة من مقالات "زكى مبارك" عن المرأة نقل أيضًا بعض السطور من عدة مقالات متفرقة، وهى سطور لارابط بينها ولكنها بالصورة التى نشرت بها فإنها تدين " زكى مبارك" وتصوره كمن لا يعرف ماذا يقول وماذا يكتب.. إن "أنور الجندى" هذا كان أيضًا كمن قال: لاتقربوا الصلاة، ولم يكمل!!!

والآن آن الأوان لمناقشة هذه المقولة لأن من يقرأ " زكى مبارك" يرى الحياة وجها لوجه، و"زكى مبارك" لم يتوقف أبدًا عن الكتابة الجادّة.

إن "زكى مبارك" بخفة ظله المعروفة لم يستطع أن يغفل كلمة قالها له أحد الشبان، بل نشرها على صفحات جريدة "البلاغ بتاريخ ١٩٥٠/٧/٤ تحت عنوان واضح هو "هل يجب أن أنتحر"؟

وكما ذكرنا من قبل فقد كتب د. زكى مبارك يقول:"الأستاذ محمد فهمى شاعر يشغل نفسه بوضع قصة كليوباترا فى مسرحية شعرية كما صنع شاعرنا" أحمد شوقى".

ستطغى عليهم إن ذكروا وتكون النتيجة أنهم حين يرحلون يشربون من نفس الكأس !

قالوا، وقالوا... ويطول بنا الكلام لوحاولنا تفنيد كل ما قالوه.

قالوا إن "زكى مبارك" فى أواخر أيامه لم يعد يكتب؟!

والحقيقة أن "زكى مبارك" رحل والقلم فى يده، كما كان يشتهى، فقد توفى فى ٢٣ يناير سنة ١٩٥٢، ونشرت آخر مقالة له - كما سبق أن ذكرنا ذلك - فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ومقالة أخرى بعد رحيله على صفحات مجلة ((الرسالة)) بتاريخ ٢١/ ٤/ ١٩٥٢ بعنوان: ((البلبل الذبيح)) حيث قال محرر مجلة ((الرسالة)).

بعث إلى المجلة بهذه الكلمة المرحوم الدكتور: زكى مبارك" قبل وفاته بأيام يرثى المرحوم الأستاذ على محمود طه، وقد أخرناها انتظارًا لأى مناسبة تدعو إلى نشرها، والمناسبة اليوم هى حفلة تأبينه التى أقامتها نقابة الصحفيين فى هذا الأسبوع، وقد وضعناها فى غير هذا المكان"..

والمقالة نثرية، وضمت مقطوعتين للشاعر "زكى مبارك"، إحداهما فى رثاء الراحل على محمود طه، أما المقطوعة الثانية فيقدمها "زكى مبارك" بقوله:

((فى سهرة بمنزل توحيد بك السلحدار، ومعنا الأستاذ أحمد حسن الزيات أخذ البلبل ينشد أشعاره، وكان قوى الذاكرة، فقلت: أنا أخذت راية الشعر من أيديكم فيقول: لن تستطيع يا دكتور، أخذت من جيبى ورقة وقرأت الأبيات الآتية:

عـجب الـنـاس مـن بـقـاء أديب

غم رغم بـغـى الخـطـوب والأيـام

انـا أيـضًـا عـجـبت من طـول عـيـشى

فى زمـان مـجـتـح بـالـظلام

إن يـومًـا يمـر مـن غـيـر غم

هـو طـيـف يمـر فى الأحلام

لا صـديق يـرد ديـنـى عـلـيـه

لاحــبـيـب وفىّ بــعــهــد الــغــرام

قــد ســئــمت الحـيـاة أوســئــمـتــنى

فــرمــتــنى بــكـيــدهــا الــهــدام

قــال لى صــاحــبى: تــواضع قــلــيلاً

تجــد الــرزق صــافــيًــا كــالمـدام

قــلــت رزق مــن الــريـــاء يــوافى

هــو عــنــدى من الــطــعــام الحــرام

قــال الــبــلــبل: هــذا شــعــر نــفــيس.

* * *

إن"زكى مبارك" لم يتوقف عن الكتابة أبدًا، فقد كان المحرر الأدبى لجريدة "البلاغ" وظل ينشر بها حتى رحيله.

لقد رحل "زكى مبارك" فى٢٢يناير ١٩٥٢ ونشرت آخر مقالة له على صفحات جريدة "البلاغ" فى٢٦ يناير ١٩٥٢..

وعلى صفحات جريدة "البلاغ".. وفى ٢٦ يناير ١٩٥٢ قال الكاتب الصحفى الأستاذ/ محمد عبد القادر حمزة:

«يعز على هذه الصفحة ألا يتوجها الكلام الذى كانت تسطره يد "زكى مبارك" فى كل أسبوع، وأن ينقطع هذاالمعين الطيب عن ذهن كان عبقريًا فى إنتاجه، بل كان معلمًا حتى للعلماء.»

وعلى صفحات جريدة " البلاغ" أيضًا وفى السادس والعشرين من يناير سنة ١٩٥٢ يقول الأديب الكبير والناقد الأستاذ/ عبد المنعم شميس تحت عنوان: «أديب لا يجود بمثله الزمان»:

كان زكى مبارك" منطلقًا يقول ما يريد ويكتب ما يريد، فى حرية لا يخشى صولة أحد، فكان يهاجم الوزراء فى صراحة لا مواربة فيها، وكان يقف أمام المتعنتين فى صلابة لاخشية فيها، بل يعلم أن رزقه سوف يقطع إذا ما استمر فى هجومه، ولكنه لا يكف عن الهجوم لأنه رجل.

وقال الأديب الناقد الأستاذ/ فتحى رضوان فى كتابه «أفكار الكبار» الذى صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨، وعلى الصفحات ٥٥، ٦٦، ٦٧، ١٠٦ :

«حرص" زكى مبارك" على أن يبقى فى الجوهر مصريًا عربيًا مسلمًا حرًا، لايدين بفضل إلا لمن علموه وأرشدوه، لايبيع قلمه، ولا لسانه، لحاكم ولا لحزب ولا لصاحب جاه».

ويرى الأستاذ/ فتحى رضوان أنه كان ظاهرة من ظواهر الحياة الأدبية الوطنية، وأن ظاهرة الأزهرى المجدّد الذى طلب العلم الحديث فى مصر وأوروبا أو فيهما معًا كانت أكثر لفتا للنظر وأعظم خيرًا على مصر من ظواهر أخرى فى حياتنا الاجتماعية.

ثم يقول فتحى رضوان: «ولم أكن فى حاجة لأعرف سر ظاهرة "زكى مبارك"، فزكى مبارك" ممن نأوا بأنفسهم عن السلطة، وممن حرصوا على خصائص المصرى الأزهرى الريفى الفقير.»

ثم يقول فتحى رضوان: وتعجب كيف أفلت صاحب قلم مثل " زكى مبارك" من شباك الأحزاب التى كانت تجزل العطايا لمن يروج لمذهبها ويحارب بسيفها، ولو فعل "زكى مبارك" ما فعل زملاؤه وأنداده من أهل عصره لتغير الأمر معه تمامًا،فاسمه كان يزداد ذيوعًا ورزقه كان يزداد اتساعًا، ومقامه من صاحب السلطان كان يزداد ارتفاعًا.

ثم يقول فتحى رضوان: ولكن المرائين والمتاجرين بالأقلام والمروجين للأوهام والمتخذين أعداء الوطن نجحوا فى جعل آخر أيامه صابًا وعلقمًا، حتى أطبقت عليه غربته بين أهله، ووحشته فى وطنه.. وهذا شرف يزينه، وإكليل غار يتألق فوق مفرقه حينما يروى التاريخ الصحيح بعد أن يسقط البهرج الزائف، ويختفى الضلال المتأله؟

* * *

ويقول "زكى مبارك" على صفحات كتابه: «« ليلى المريضة فى العراق»»..

يقول:

««أستطيع أن أؤكد أن كثيرًا من الأصنام التى تعبد فى مصر والشرق ستتحطم عما قريب، وسينشأ فى مصر والشرق جيل يبنى أحكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات، وستهدم صروح العظمة التى تبنى على أساس التوقر والتحفظ... متى أشهد مصرعك ياعصر النفاق؟؟

ويؤكد "زكى مبارك" أن غايته ليست الانتفاع المادى فى حمل رسالة القلم قائلاً:

لو كان غايتى هى الانتفاع المادى لسلكت سبيلاً غير هذا السبيل، فللأقلام ميادين تصل بأصحابها إلى الثراء العريض»».

***

وقال الأديب العربى المصرى الدكتور/ عبد العزيز شرف فى الكتاب الذى صدر فى احتفال مصر بذكرى مولد " زكى مبارك" تحت عنوان : ««الذكرى المئوية لميلاد الدكتور/ "زكى مبارك" من سنة ١٨٩١ إلى سنة ١٩٩١.. يقول فى دراسة تحت عنوان: ««فن اليوميات الصحفية فى أدب " زكى مبارك»» :

««فى أدب زكى مبارك" تتعرف على فن مقالى جديد، كان من أهم رواده فى الصحافة المصرية والعربية، ونعنى به «« فن اليوميات الصحفية»»، فى أدب "زكى مبارك" أو فن ««المقال الاعترافى»» الذى انتقل به من حيزً المقالة الذاتية إلى فن مقالى جديد يخدم أغراض الاتصال الصحفى بالجماهير.

وهو الفن الذى مهد لفن السيرة الذاتية فى أدبناالحديث. ووصله بتراثنا فى أدبنا القديم، تأسيسًا على أن «السيرة الذاتية» لاتقتصر على النشاط الذهنى، والنشاط العملى، بل هى تستند أساسًا إلى النشاط اللغوى باعتبارها فنًا أدبيًا.

ثم يقول الدكتور عبد العزيزشرف :

وضع "زكى مبارك"بذور فن اليوميات فى أدبه فى المقالات التى نشرها فى جريدة ««الأفكار»» منذ سنة ١٩١٤ تحت مسمى ««البدائع»»، وكان أسلوبه يقوم على أصلين هما السر فى نجاحه: الصدق والوضوح، يضاف إلى هاتين الميزتين ميزة ثالثة هى الحيوية العنيفة فى نقد الآراء)).

وقال الأديب الناقد والكاتب الكبيرالأستاذ/ السعيد محمد بدوى على صفحات الكتاب السابق نفسه :

لقد حان الوقت لجمع مقالات " زكى مبارك" من مظانها الكثيرة والمنتشرة فى جرائد عصره، فهى أصدق تعبيرًا عن فكره وربما أكثر قيمة أيضًا من الكتب التى كتبها والتى لا يذكر إلا بها».

إذن "زكى مبارك" بخلاف كتبه كان صاحب يوميات، بل هو واضع بذرتها الأولى فى الصحافة المصرية والعربية..

إن " زكى مبارك" كان المحرر الأدبى لجريدة " البلاغ" وكان يكتب تحت عنوان: ((الحديث ذو شجون)) وهذه المقالات لوجمعت لملأت مجلدات.

فما بال بعض الكتاب يحاسبون "زكى مبارك" بقولهم لو كان "زكى مبارك" ؟!!!

لو.... ولو ولو ولو.. وكلنا يعلم أن لوتفتح طريق الشيطان...

إن "لو" من النقد الهدام... والحقيقة أنها ليست أصلاً من النقد، لأن النقد ليس فيه "لو" !

النقد أن تنقد ما تقرأ وتقول رأيك فيه إما مدحًا أو قدحًا.. ولكن بدون "لو"؟!!!

وهل أعيدكم إلى كلام الدكتور عبد العزيز شرف عن فن المقال فى أدب "زكى مبارك؟»

وكذلك فإننا نذكر بما قاله الكاتب الكبير والأديب الناقد الأستاذ/ أنيس منصور على صفحات جريدة الأخبار بتاريخ ١٩٧٤/٢/٥، قال :

«.. ورغم أن "زكى مبارك" أديب كبير، وشاعر أيضًا، ورغم اجتهاداته العديدة، وإبداعاته ومعاركه، مع كبار الأدباء فى زمانه، فإنه لم ينل ما يستحقه من تقدير، وربما كان السبب أنه لم يحسن العلاقات ولا دار حول الأصنام ولا نافق الحكام.

وإنما كان فى كل مناسبة يلقى قنبلة فيلتفت الناس إلى فرقعتها وينسون السبب، ولم يستوعبوا ما كان يريده " زكى مبارك". ويعاود الكاتب الكبير أنيس منصور الحديث عن زكي مبارك فيكتب علي صفحات جريدة الأهرام بتاريخ ٢/٢/ ٢٠٠٤ يقول:

أما أسلوب "زكى مبارك" فسهل جميل. وأما لغته العربية فقوية رصينة. وأما حرصه على جمالها وجلالها ففى كل مؤلفاته. ولايمكن أن يدرس أحد الأساليب الحديثة دون أن يحتشد لقراءته».

وفى بغداد قال الشاعر العربى العراقى معروف الرصافى وهو فى غنى عن التعريف فى قصيدة عصماء قال فيها :

إذا اطــــرى الأنــــام فــــتى اديــبًــا
فلا بن مــــبــارك ادب غــــزيــــر
وعــــلـم لا اشــبــــهه بــــبحــــر
فــقــد نـضــبـت بـجـانـبـه الـبـحـور
إذا افـــتـــخــرت بـه مــصـــر وتـــاهـت
فـــكـل بـــنى الـــعـــراق بـه فـــخـــور

وهذا هو الكلام المفيد

* * *

ورغم كل ما قدمه "زكى مبارك" فإنه لم ينصف فى حياته العملية، فقد بقى حتى رحيله إلى عالم البقاء فى الثالث والعشرين من يناير ١٩٥٢ مفتشًا فى وزارة المعارف (أى وزارة التربية والتعليم) وفى الدرجة الثالثة، وبعقد.. ولهذا فصل من عمله أكثر من مرة لصدقه ونزاهته..

استمع إلى "زكى مبارك" وهو يشكو على صفحات كتابه «ليلى المريضة فى العراق»، فيقول :

لا تحزن ياقلبى، فليست هذه أول غربة، فقد كنت غريبًا فى كل أرض حتى فى سنتريس!

لاتحزن يا قلبى، فأقرب الناس إلى الله هم الغرباء؛ لأن الغريب يؤدى امتحانًا فى كل لحظة، وتدرسه الأعين فى كل مكان، ويؤدى حسابًا إلى كل مخلوق، ويعجز عن إصلاح ما يفسد المفترون.

لاتحزن يا قلبى، فكل غيم يتلوه صحو وكل ليل يعقبه صباح.

لا تحزن يا قلبى، فأنا بجانبك أرعاك وأواسيك، وسأكفنك بدموعى إن قضى الله أن تموت غريبًا بين القلوب.

لا تحزن يا قلبى، لاتحزن ياقلبى!

ماهذا؟ ما هذا؟

أتريد أن تفرّ من قفص الضلوع؟

وإلى أين؟ حدثنى إلى أين؟ إلى أين يا جاهل؟ فأنت تجمح إلى قلوب عرفت من بعدك كيف يحلو اللهو، وكيف تقرع الكأس بالكأس، وكيف تطيب الأسمار والأحاديث إلى أين؟ حدثنى إلى أين؟

وهل لك وطن أيها القلب ؟

حدثنى أين وطنك فقد نسيت؟ أيكون وطنك بين تلك القلوب الغوادر التى تضن عليك بخطاب تكاليفه عشرة فلوس؟ أيكون وطنك عند تلك الإنسانة الغادرة التى قطعت حبل الودّ لأنى دعوتها لزيارتك متنكرة فى بغداد ؟

أين وطنك يا قلبى؟ أحب أن أعرف أين وطنك لأمضى معك إليه.. أهو مصر؟ كذبت، ثم كذبت، فلو عرفتك مصر حق معرفتك لكان لك اليوم مكان مرموق، ولكنك فى مصر منبوذ مجهول ؟.

قلبى! قلبى! رحمة الله عليك، فقد سعد ناس بالرفق المزيّف، وشقيت أنت بالرفق الصحيح.

وقد وصل ناس لأنهم كذبوا، وتخلفت أنت لأنك صدقت.

ونعم ناس لأنهم خانوا، وشقيت أنت لأنك وفيت.

وتقدم ناس لأنهم هزلوا، وتأخرت أنت لأنك جددت.

وانتفع ناس لأنهم غدروا، وخسرت أنت لأنك وفيت.

قلبى! قلبى! أحسن اللهّ إليك!))

وعلى صفحات ديوانه الثانى ((ألحان الخلود)) يقول تحت عنوان: ((الناس والزمان)):

إذا اعتكرت دياجى الظلم حينا	نظرت ظلامها ثم ابتسمت
وإن طالت مصاولة الليالى	هزمت صيالها فيما هزمت
زمان لم أجد فيه صديقًا	اشاطره سروري إن فرحت
فكيف يكون لى فيه صديق	انادمه بحزنى إن حزنت
عرفت الناس من شرق وغرب	فوا اسفى على من قد عرفت
لقد ماتوا وماتوا ثم ماتوا	ونقض العهد والميثاق موت
عليهم قد بكيت فلست ابكى	على زمن بصحبتهم اضعت
قضيت الدهر ما احد رآنى	على باب لمخلوق وقفت
ولا علمى اهنت ولا بيانى	ولا بمدارج الأطماع سرت
ستمضى محنة وتجىء اخرى	وليس لمحنة الأحرار وقت
ويبقى خاطرى شهمًا شجاعًا	اصول به وافتك ما اردت
فعودى ياصروف الدهر عودى	مولولة الزئير كما عهدت
فمالك غير قلبى من قرار	وقلب الحر للأخطار بيت
إلى قلبى تعالى لا تهابى	فإنى بالشدائد قد انست

***

إذا عظمت اناس بالعطايا	فبالحرمان منها قد عظمت
عظيم لم اقل يومًا لشخص	لفيض يديك ياهذا غدوت
بنانى الله وثابًا طموحًا	اروم من المعالى ماشتهيت
اخاف الله اخشاه إذا ما	بغير جلاله يومًا وثقت

***

ونعود لحديث "زكى مبارك" عن عاطفة الحب، ففى بداية حياته ألف كتاب "حب ابن أبى ربيعة وشعره" وتتابعت بعد ذلك مؤلفاته. وما يهمنا هنا هو تلك الكتب التى تعرض فيها " زكى مبارك" للحديث عن "عاطفة الحب" وهى "مدامع العشاق" و ((ليلى المريضة فى العراق)). و ((آدم وحواء)) و((العشاق الثلاثة)).. وأيضًا ((مجنون سعاد)) وهذا الكتاب الأخير رسائل تصوّر أعنف مأساة غرامية فى العصر الحديث نشرها "زكى مبارك" مسلسلة على صفحات مجلة ((الصباح)) لصاحبها الأستاذ "مصطفى القشاشى" وبتوقيع "بديع الزمان".. أى

بدون ذكر اسمه، لأن " زكى مبارك" كان وقتئذ مفتشًا للغة العربية بالمدارس الأجنبية بالمملكة المصرية، ويومها كان لا يجوز لمرب فاضل نشر رسائل عاطفية... وقد جمعت المقالات بعد ذلك، وقدمت للقراء فى مارس ١٩٧٧ فى كتاب ((الهلال)) مصدرة بكلمة طيبة من صاحب الفضل فى صدور الكتاب الأديب الناقد الفنان الأستاذ رجاء النقاش.. كما نشير أيضًا إلى كتابه "الموازنة بين الشعراء".

وقد صدر أيضًا للشاعر " زكى مبارك" فى حياته ديوانه الأول:((ديوان زكى مبارك)) وديوانه الثانى:((ألحان الخلود)). ومعظم القصائد عاطفية.

بعد رحيل "زكى مبارك تم جمع عدة دواوين للشاعر " زكى مبارك" وهى: ((أطياف الخيال))، و ((أحلام الحب))، وديوان ((قصائد لها تاريخ)) وهى مطارحات بين " زكى مبارك" ومعاصريه،، وهو أيضًا يضم العديد من الأبيات العاطفية.

وأيضًا ديوان ((شط إسكندرية)) وهو يضم ما نظمه "زكى مبارك" عن أيام وليالى الإسكندرية، وكلها قصائد وجدانية.

أما بعد..

وقد أتعبتنا أما بعد.. إن حديثنا عن " أحاديث الحب" بقلم الدكتور " زكى مبارك" يطول، ويطول، ولا تكفى مجلدات لتقديمه للقارئ، وربما تعرض للموضوع أحد الأدباء من زاوية أخرى.

فعلى صفحات كتاب " زكى مبارك" ((وحى بغداد)) ـ الطبعة الأولى ـ صفحة ٢٩ يقول "زكى مبارك" :

لامنى صديق فقال: ما قرأت لك كتابًا أومقالاً ولا قصيدة، إلا رأيتك مشغولاً بالحب، فما هذا الإسراف ؟

ويجيب "زكى مبارك" قائلاً :

((لاتؤاخذنى يا مولاى، فأنا أريد أن أملأ أقطار قلبى بالحب حتى لايوجد فيه مجال للبغض)).

وعلى صفحات جريدة ((البلاغ)) بتاريخ ١٩٤٨/١١/٤ وتحت عنوان :

((جواب عن سؤال)) يقول " زكى مبارك" :

إنها أسئلة كثيرة من قراء ((البلاغ)) عن السبب فى إكثارى من الكتابة عن الحب والجواب حاضر وهو أننى أرى إغناء الأدب العربى بالأدب الوجدانى وحياتى قامت على التغريد فوق أفنان الجمال.

وأنقل لكم ما كتبه" زكى مبارك" على صفحات جريدة ((البلاغ)) بتاريخ ١٩٤٧/٩/٢٩ حيث يقول تحت عنوان ((أطياف الخيال)): هذه القصيدة تصور ليلة من ليالى الأنس، وما أكثر هذه الليالىْ فى حياتى بالحقيقة أو بالخيال..

ومن المستحيل أن يكون جميع ما أذكره فى أشعارى من أخبار عن صولات وقعت بالفعل فذلك يقتضى أن أنهب جميع المفاتن وأن يكون طعامى من لحوم النسور وأن يكون شرابى من عصير الخدود.

إن لى غرضًا وطنيًا من هذه الصور الشعرية وذلك الغرض هو إغناء الأدب العربى بألوان يكثر وجودها فى الأدب الغربى... وأنا أعترف بأننى خائف من أن يضيع أبناؤنا من أيدينا، لأنهم لا يجدون عندنا من الصور البيانية بعض ما يجدون فى الأدب الأوروبى..

وعلى صفحات جريدة ((البلاغ))، وبتاريخ ١٩٥١/١/١٦ - أى قبل رحيله إلى عالم البقاء بعام واحد تقريبًا كتب "زكى مبارك" فى مقدمة إحدى قصائده :

قلت من قبل إن المعانى الوجدانية قلّت فى الأدب الحديث ، وأن أبناءنا صاروا يأخذون أدبهم الوجدانى من الفرنسية والإنجليزية، فما الذى يمنع من أن ننشئ لهم أدبًا وجدانيًا؟..

نفترض أنه كانت لى محبوبة اسمها "سعدية" وقد عانقتها فى إسكندرية وقلت فيها:

ذكرت فراقك فى عودتى

ونحت على الليلة الماضيه

إلى آخر القصيدة، التى نجد بعض أبياتها فى الصفحات الأولى من هذا الكتاب.

من هنا نرى أن " زكى مبارك" قد شغل نفسه بحديث الحب، فما رأى " زكى مبارك" فى كتاباته وأحاديثه العديدة عن "الحب" ؟

قال " زكى مبارك" إنه إنما فكر فى إغناء الأدب العربى بألوان من الصور الشعرية التى تصور عذاب الأرواح والقلوب، وإنه أحب أن يقيم فى عالم الأدب العربى دولة للقلوب وأحاسيس.

يقول"زكى مبارك" فى مقدمة كتابه ((الأسمار والأحاديث))، والذى طبع ونشر فى دار الجيل بصيدا ـ لبنان ـ يقول :

ساءنى أن يقال إن ((راسين)) هو أعظم من شرح عاطفة الحب، فألفت كتاب: ((ليلى المريضة فى العراق)) لأقيم الدليل على أن فى كتاب اللغة العربية من يتفوق أظفر التفوق على ((راسين)).

ومن هنا، نرى أن" زكى مبارك" كان يرمى من كل ما كتبه من أحاديث عن الحب ـ إلى تحبيب الشباب فى اللغة العربية.

كان "زكى مبارك" يحلم بأن تسود اللغة العربية جميع الممالك الإسلامية والعربية... وأن تستطيل حتى تسيطر على العالم... وكان يرى أن الوصول باللغة العربية إلى ما يريد يمكن أن يكون مفتاحه الحب وخاصة بالنسبة للشباب، فالشباب هوصانع المستقبل.

ويقول الدكتور نعمة رحيم العزاوى على صفحات كتابه: (("زكى مبارك"... سيرته الأدبية والنقدية)) .. يقول الأديب العربى العراقى على صفحة ١٢٨ من الكتاب الذى طبع فى بغداد:

((كان "زكى مبارك" يرى أن للحب فضلاً على اللغة العربية فهو الذى يثريها بالتعابير، ويوسع رقعة انتشارها، ويزيد عدد قرائها والمعجبين بها.. فنحن لم نعجب بالفرنسية مثلاً بفضل ما كتب العلماء فى هذه اللغة، وإنما عرفناها بفضل وجدانيات هوجو وميسيه ولا مارتين)).

ثم ينقل لنا الدكتور نعمة رحيم العزاوى كلمة لـ "زكى مبارك" عن الحب من على صفحات كتاب "زكى مبارك" ((العشاق الثلاثة)) حيث يقول " زكى مبارك":

فما تسمو لغة على لغة إلا بفضل قوة الإفصاح عن الأسرار الوجدانية ولاهتف أول شاد فى أية لغة بغير الصوت الأول، وهو صوت القلب، ومن هنا كان الغزل أول شىء أجاده الناس فى فجر الزمان. وطغيان العقل فى عصر المدنية لم يقو على طغيان القلب؛ لأن القلب هو الجارحة الباقية، ولأنه من أقوى الشواهد على صحة العقل، ولهذا امتازت الأمم القوية بإجادة التعبير عن أسرار القلوب..

وهل ننسى أن الآداب الأجنبية لم تصل إلينا إلابجاذبية الأدب الوجدانى؟

هل عرفنا الأدب الفرنسى أول ما عرفناه إلا عن وجدانيات هوجو وميسيه ولامارتين؟

وعلى صفحات كتابه: ((ليلى المريضة فى العراق)) طبعة بيروت ـ المكتبة العصرية، وعلى صفحتى/ (٢١٦، ٢١٧) يقول " زكى مبارك" :

((....أنا لن أخلد إلا فى عالم الفكر، إن كان فى الدنيا خلود... وقد صاننى الله تباركت أسماؤه عن الفسق والفجور والدنس، وليس لى مأرب من أهل الجمال إلا مأرب واحد هو درس الطبائع والغرائز والميول لأخرج من ذلك بمحصول فلسفى قد ينفع بعض النفع فى إزكاء الدراسات الأدبية والفلسفية)).

إن من يدرس مقالات الأديب الناقد والكاتب الكبير والشاعر الفنان الدكتور "زكى مبارك" والتى نشرها على صفحات الجرائد والمجلات من يوم بدأ ينشر على صفحات جريدة ((الأفكار)) سنة ١٩١٤، وحتى رحيله سنة ١٩٥٢.. بجدة قدم للمكتبة العربية والإسلامية، بل والعالمية الكثيرمن الآراء الجديدة والصائبة والمفيدة والدراسات النقدية المهمة، كما كتب عن شخصيات يجدر بنا أن نقرأها الآن والتى نشرها "زكى مبارك" فى أيامه الأخيرة، والتى يعكف على دراستها الآن لتقديمها للقراء الأستاذ الدكتور "مصطفى الضبع" ـ أستاذ الأدب والنقد بدار العلوم ـ جامعة القاهرة.

وهكذا ينتهى بنا المطاف إلى أن نقرر:

أن " زكى مبارك" عاش يهتف للعدالة والوفاء، ويدعو أبناء الجيل الجديد إلى محاسبة النفس وعدم تضييع لحظة واحدة فى القيل والقال..إذا كانوا يريدون أن يكون لهم فى الحياة السامية مكان.

على صفحات مجلة ((الرسالة)) فى يونيو سنة ١٩٤١ قال " زكى مبارك":

((إن لقرائى فضلاً علىّ لن أنساه، فهم يحببوننى إلى الدنيا والوجود، وهم يسوقوننى إلى الاعتزاز بسنان القلم وسلطان البيان)).

ولكن لى عليهم حقٌ يفوق حقوقهم علىّ وهو دعوتهم إلى أن تكون لهم غاية وطنية وروحية.. فإنى أرى لهم قدرة على التعبير الجميل، وتلك موهبة يعزّ علينا أن تضيع.

هل يذكرون أنى حدثتهم مرة بأنى لم أشرب فنجان قهوة فى غير دارى قبل أن أظفر بإجازة الدكتوراه وقبل أن أبلغ الثلاثين؟

شبابكم، شبابكم، يا قرائى من أبناء الجيل الجديد.

واحذروا، ثم احذروا أن تضيع من دمائكم قطرة فى غير الواجب.

وتذكروا، ثم تذكروا أنكم خلفاؤنا فى الحياة الأدبية والفلسفية.

واعرفوا، ثم اعرفوا.. أن المجد الأدبى لاينال بالأمانى، وإنما ينال بالجهاد الشاق، فكونوا كما نريد لكم من كرائم الرجال، ثم تيقنوا أن الدنيا لكم إذا واجهتموها بعزائم المجاهدين الصادقين.

كتب الله لكم عافية البدن وطهارة القلب وسلامة الروح)).

* * *

أعزاءنا القراء..

نحن فى انتظار تعليقكم على ما كتبه " زكى مبارك" من أحاديث عن الحب، وما تجودون به لينشر على صفحات الطبعة الثانية من هذا الكتاب، وذلك على عنوان:

((سنتريس - مركز أشمون - محافظة المنوفية - جمعية زكى مبارك الأدبية - دار الأستاذ/ حسين محمد العابد فرحات)).

* * *

يقول زكى مبارك :

"أين من يفتش فى دفاترنا بعد الموت ليرى ما سطرناه من أخلاق هذا الجيل.؟"

ونحن بدورنا.. نرجو كل من لديه فسحة من وقت أن يبحث فى الجرائد والمجلات المطوية لجمع إنتاج زكى مبارك، وتقديمه للقراء خدمة للأدب.

ولا نمل من التكرار أن نذكر أن أسلوب زكى مبارك سهل جميل، وأن لغته العربية لغة رصينة، وأن حرصه على جمالها وجلالها فى كل ماخطه قلمه من كتب أو مقالات أو أبحاث - شعرًا أو نثرًا - حرص أصيل، وكما يقول أنيس منصور فلا يمكن أن يدرس أحد الأساليب الحديثة إلا إذا احتشد لقراءة زكى مبارك..

وإنا لفى الانتظار. وعند الله خير الجزاء

عادل الشامى. كريمة زكى مبارك

تليفون

٣٧٢١٢٩٣٠ /١٢/١٤٠٦١٥٠.

الفهرس

الموضوع | رقم الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg



هـذا الكتاب يـضم أحاديـث الحب الممتعة، سطّرها أديب الأمة العربية الدكاترة زكى مبارك.

-يقول زكى مبارك :

-افتح قلبك لوحى الحياة والحب واعلم أن الابتسام الصادق هو أثمن ما يملك الرجل.

-الحب يـواجه الناس فى جميع الميادين ولـه قدرة قاهـرة علـى الضر والنفع، ولـه تأثير شديـد فى توجيـه مصائر الرجل .

-ويقول أنيس منصور: أما أسلوب زكى مبارك فسهل جميل، وأما لغته العربية فقوية رصينة، وأما حرصه على جمالها وجلالها ففى كل مؤلفاته، ولا يـمكن أن يدرس أحد الأساليـب الحديـثة دون أن يـحتشد لقراءته.

ISBN# 9789774210006